

الطاعون
ألبير كامو

♦ المؤلف: ألبير كامو

♦ العنوان: الطاعون

♦ ترجمة: دكتورة كوثر عبد السلام البحيري

♦ طبعة آفاق الأولى 2019

♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

♦ مستشار النشر: سوسن بشير

♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠١٨ / ٢٦٣٥١

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977-765 - 210 - 0

جميع الحقوق محفوظة؛ لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-0111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

ألبير كامو
الطاعون
رواية

ترجمة
دكتورة كوثر عبد السلام البحيري

مراجعة
دكتور محمد القصاص

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

كامو، ألبير.

ألبير كامو : الطاعون - ترجمة: دكتورة كوثر عبد السلام البحيري

ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2019

400 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 2018 / 26351

الترقيم الدولي 978 - 977 - 765 - 210 - 0

1 - الأدباء (روايات)

2 - كامو، ألبير

يتفق لدى العقل تشبيه نوع من السجن
بنوع آخر منه، وتشبيه أي شيء يوجد حقيقة
بشيء غير موجود.

[دانيال دي فو]

وقعت تلك الحوادث المثيرة التي يتألف منها هذا التاريخ في سنة ١٩٤٠ في مدينة وهران، وقد أجمع الناس على أن تلك الأحداث التي تخرج عن حيز المؤلف، لم تقع في المكان المناسب لها؛ فمدينة وهران تبدو في الواقع مدينة عادية لمن ينظر إليها لأول وهلة؛ إذ إنها ليست أكثر من مديرية فرنسية على الشاطئ الجزائري.

ونحن نعترف بأن المدينة في حد ذاتها قبيحة المنظر، ولا بد من بعض الوقت لكي يدرك المرء لماذا تختلف هذه المدينة عن غيرها من المدن التجارية الكثيرة في جميع أنحاء العالم، وذلك لمنظرها الهادئ؛ إذ كيف يمكن أن نصور للقارئ مثلاً مدينة لا يوجد بها حمام ولا أشجار ولا حدائق، ولا تسمع فيها خفقات أجنحة، ولا حفيف أوراق، وبالاختصار كيف يتأتى لنا أن نصور له مكاناً لا شيء فيه يثير الاستطلاع؟ وتغير الفصول بها لا يقرأ إلا على صفحة السماء؛ ذلك أن الربيع إنما تعلن عنه طبيعة النسيم، ولال الزهور التي يجلبها صغار الباعة من الضواحي. إنه الربيع الذي يباع في الأسواق، وفي أثناء الصيف تكاد الشمس تحرق المنازل المفرطة في الجفاف حرقاً، وتغطي الجدران برماد داكن، وحيث لا يمكن للسكان الحياة إلا خلف أبواب نوافذهم المغلقة. أما في الخريف، فعلى العكس من ذلك يجتاح المدينة طوفان

من الوحل، وأما الأيام الجميلة فلا تأتي إلا في الشتاء.

ولعل من أسهل الطرق التي يتعرف بها المرء على مدينة ما أن يبحث: كيف يعمل الناس فيها، وكيف يحبون، وكيف يموتون، ففي مدينتنا الصغيرة -وقد يكون ذلك من تأثير الجو- يحدث كل هذا بطريقة واحدة عصبية ذاهلة -ومعنى هذا أن السأم يدرك أهل المدينة، وأنهم يبذلون جهدهم حتى تكون حياتهم سلسلة من العادات الراسخة، ومواطنونا يعملون كثيرًا، وهدفهم الدائم هو الثروة، والتجارة أكثر الأشياء إثارة لاهتمامهم، فهم -على حد قولهم- يشغلون أنفسهم أولاً بعقد الصفقات. ومن الطبيعي أنهم يميلون كذلك للمباهج التي يميل إليها الناس جميعًا، فيحبون النساء والسينما وحمامات البحر، ولكن حكمتهم تدفعهم إلى الاحتفاظ بهذه المسرات لمساء السبت ويوم الأحد، باذلين جهدهم طوال أيام الأسبوع الأخرى، في كسب الكثير من المال. وفي المساء -عندما يغادرون مكاتبهم- تراهم يتجمعون في ساعة معينة في المقاهي، أو يتنزهون في الشارع الكبير، أو يجلسون في شرفات منازلهم، وإذا كانت الملذات التي ينغمس فيها الشبان عنيفة وقصيرة الأمد، فإن رذائل الشيوخ لا تتعدى جماعات «هواة الكرة اليدوية»، وحفلات جمعيات الصداقة، وحلقات لعب الورق، حيث يقامرون بمبالغ كبيرة.

أغلب الظن أنهم سيعترفون بأن ذلك لا يميز مدينتنا بالذات، وأن جميع معاصرنا يعيشون على هذا النمط في نهاية الأمر، وقد يكون من المألوف حقًا في أيامنا هذه أن نرى أناسًا يعملون من الصباح إلى

المساء، ثم يقضون ما يتبقى لهم من وقت يحيونه في لعب الورق، أو في المقهى أو في الثرثرة حسب ما يتراءى لهم، ولكن هناك مدناً وبلدات يتوق فيها الناس لأشياء أخرى، وقد لا يغير هذا من حياتهم في شيء، ولكن حسبهم هذه الضروب من التطلع التي تداعب خيالهم، أما وهران فعلى العكس من ذلك؛ مدينة بلا تطلُّع على ما يبدو، أي أنها مدينة جد عصرية، ومن ثم فليس من الضروري أن نحدد الطريقة التي بها يمارس الناس الحب في مدينتنا؛ فالرجال والنساء إما أن يلتهم بعضهم بعضاً فيما يسمى بعملية الحب، وإما أن ينخرطوا في عادة طويلة الأمد تربط بين شخصين، وبين هذين الطرفين لا يوجد وسط في غالب الأحيان، وهذا أيضاً ليس من مميزات مدينتنا، ففي وهران - كما في غيرها - يضطر الناس إلى أن يحبوا دون أن يشعروا، بسبب ضيق الوقت وقلة التفكير.

أما ما يعتبر أصل من كل ذلك في مدينتنا، فهو الصعوبة التي يلقاها الناس في سبيل الموت، وكلمة «صعوبة» ليست هي الكلمة المناسبة هنا، وربما كان من الأصح أن نقول: «عدم الراحة»؛ وذلك أنه إذا لم يكن من الأمور المستحبة في أي مكان أن يصاب المرء بالمرض، فهناك مدن وبلدان تساندك في مرضك، وتستطيع فيها الاستسلام بصورة ما. والمريض بطبيعة الحال يحتاج إلى الرقة، ويجب أن يجد ما يستند عليه. أما في وهران فإن تطرف الجو، والأهمية القصوى التي يعلقونها على الأعمال المالية، وتفاهة منظر المدينة الخارجي، والسرعة التي يمر بها الغروب، ونوع الملذات، كل هذا يتطلب أن يكون المرء في

صحة جيدة. فمن يقعده المرض هنا لا بد أن تضنيه الوحدة، ولنفكر إذن فيمن يحضره الموت، وقد وقع فيما يشبه الفخ خلف مئآت من الجدران التي يضطرم حرها، بينما تنكب جمهرة السكان في نفس اللحظة على التحدث في التليفون، أو في المقهى عن عقد الصفات وحوافظ الشحن والخصم التجاري، وحينئذ نستطيع أن نفهم مدى ما يعانیه الناس من عدم الراحة عند الموت عندما يحضرهم في مكان جاف كهذا المكان، حتى ولو كان موتًا عصريًا.

قد تعطي هذه الإشارات فكرة كافية عن مدينتنا، على أنه لا يجدر بنا أن نهول في الأمر؛ فإننا لم نرد إلا أن نبرز ما تتميز به المدينة والحياة من ابتذال وقلة طرافة، ومع ذلك فإن المرء يستطيع أن يقضي فيها أيامه بلا صعوبة، إذا ما كون له بعض العادات، وما دامت مدينتنا تحبذ اكتساب العادات، فيمكننا أن نقول: إن كل شيء فيها على ما يرام. نعم، إننا إذا نظرنا إلى الحياة من هذه الزاوية، فربما بدت لنا غير مثيرة ولا شائقة، ولكن حسبنا أن الناس في مدينتنا لا يعرفون عدم النظام؛ فهم يمتازون بالصراحة، وخفة الدم والنشاط، مما يجعل المسافر ينظر إليهم دائمًا بتقدير يشوبه التعقل، وهكذا نرى هذه المدينة الخالية من الجمال ومن الخضرة ومن الروح تبدو مريحة حتى ينتهي فيها المرء بالركون إلى النوم. ولكن من الحق أن نضيف أنها قد ألفت على منظر لا شبيه له، وسط هضبة جرداء تحيط بها التلال الغارقة في الضوء تجاه خليج خطته يد رسام بارع، ويحق لنا أن نأسف؛ لأنها قد بنيت بحيث تعطي ظهرها لهذا الخليج، فاستحالت رؤية البحر، حتى يضطر طالبه دائمًا

أن يبحث عنه. إذا عرفنا ذلك، سهل علينا أن نسلم بأنه لم يكن هناك ما يجعل مواطنينا يتوقعون الأحداث التي وقعت في ربيع هذا العام، والتي كانت -كما فهمنا فيما بعد- بمثابة النذر الأولى للحوادث الخطيرة التي نقوم هنا بتسجيلها. وقد تبدو هذه الأحداث طبيعية في نظر البعض، وقد تبدو خيالية للبعض الآخر، وأيًا ما كان فإن المؤرخ لا يمكنه أن يحسب حسابًا لهذه المتناقضات، حيث إن مهمته تنحصر في أن يقول: «هذا ما حدث» عندما يعلم أنه قد حدث فعلاً، وأنه مس حياة شعب بأسره في الصميم، وأن هناك -بناء على ذلك- آلاف الشهود الذي يقدرّون -بقلوبهم- صدق ما يقول.

ولم يكن ليتاح للراوي -الذي سنعرفه في الوقت المناسب- أن يصل إلى شيء من هذا القبيل، لو لم تمكنه المصادفات من الاستماع إلى عدد من الشهادات، ولو لم تضطره الظروف إلى المشاركة في كل ما يدعي أنه يقصه، وهذا ما يخول له هنا أن يتنحل لنفسه صفة المؤرخ، ومن الطبيعي أن يكون لدى المؤرخ وثائقه، حتى لو كان هاويًا، وهكذا فلدى صاحب هذه الرواية أيضًا مستنداته؛ وهي أولاً شهادته وشهادات الآخرين حيث إن لدور الذي لعبه قد مكّنه من جمع ما أسر إليه به أبطال هذا التاريخ، ثم هي أخيرًا النصوص التي انتهت بالوقوع في يديه، والتي ينوي أن يستفيد منها في الوقت الذي يراه مناسبًا، وأن يستغلها كما يحلو له، كما أنه ينوي... ولكن الوقت قد حان -فيما نظن- لكي نترك ضروب التعليق والاحتياطات اللغوية جانبًا وندخل في صلب القصة، فإن رواية ما حدث في أيامها الأولى تحتاج إلى بعض التدقيق.

في صبيحة اليوم السادس عشر من أبريل، خرج الدكتور «برنار ريو» من مكتبه، واصطدم بفأر ميت على بسطة السلم، ومن دون أن يعطي للأمر أي اهتمام أزاح الفأر من طريقه ونزل، ولكن ما إن وصل إلى الشارع حتى تنبه إلى أن هذا الفأر لا ينبغي أن يبقى في مكانه، وعاد على أعقابهِ ليلفت نظر البواب إلى ذلك، وكان لرد الفعل الذي أحدثه ذلك على السيد ميشيل الهرم أثره في أن يجعل الدكتور ريو يشعر بما لهذا الاكتشاف من غرابة؛ فلم يكن وجود هذا الفأر يبدو له أكثر من أمر غريب، في حين كان البواب يعتبره أمراً فاضحاً، والواقع أن موقع هذا الأخير كان حازماً؛ إذ إنه لم تكن توجد فئران بالمنزل، وعبئاً حاول الدكتور أن يؤكد له أن هناك فأراً على البسطة، وأنه قد يكون ميتاً، فقد ظل البواب يؤمن إيماناً لا يتزعزع بأنه لا توجد فئران بالمنزل، وإذا وجد فأراً، فلا بد أن يكون مجلوباً من الخارج، وبالاختصار لا بد أن يكون في الأمر مجال لدعابة سمجة.

وفي مساء اليوم نفسه كان برنار ريو واقفاً في دهليز العمارة يبحث عن مفاتيحه قبل أن يصعد إلى مسكنه، ففوجئ بفأر كبير يبرز في أقصى الدهليز المظلم ويسير في خطى مضطربة وقد ابتلت فروته. وتوقف الفأر كما لو كان يحاول أن يزن خطاه، ثم يستأنف مسيره في اتجاه

الطبيب، ولم يلبث أن يتوقف من جديد، ويدور حول نفسه، ويصرخ صرخة قصيرة، ثم يسقط، وقد نزل الدم من منخريه، وقد وقف الطبيب يتأمل بهمة، ثم صعد إلى مسكنه.

ولم يكن يفكر في الفأر، وإنما أعاده هذا الدم النازف إلى مشاغله، فزوجته المريضة منذ عام كانت تعتزم السفر في اليوم التالي إلى إحدى المواقع الجبلية. وقد وجدها مستلقاة في غرفتها، كما طلب منها أن تفعل؛ حتى تستعد لتحمل متاعب السفر، وراحت تبتسم له وهي تقول: - إنني أشعر أنني بصحة جيدة.

ونظر الطبيب على ضوء المصباح القريب من الفراش إلى ذلك الوجه الذي التفت ناحيته، وبدا له أنه - وقد بلغ الثلاثين من العمر - هو نفسه وجه الشباب، برغم آثار المرض الواضحة عليه، وربما كان ذلك بسبب تلك الابتسامة التي تغلبت على كل شيء، ثم قال لها:

- نامي إذا استطعت، ستحضر الممرضة في الحادية عشرة، وسأصحبك إلى قطار الظهر.

ثم قبل جبينها المندى، وشيعته هي بابتسامتها حتى الباب.

وفي الساعة الثامنة من اليوم التالي، وهو اليوم السابع عشر من أبريل، استوقف البواب الطبيب أثناء مروره، وأخذ يتهم هؤلاء المازحين السمجين الذين ألقوا إليه بثلاثة فئران ميتة وسط الدهليز، وراح يقرر أنهم لا بد أن يكونوا قد اصطادوها جميعاً بفخ كبير؛ لأنها غارقة في الدم، ثم ظل البواب بعض الوقت واقفاً بالباب ممسكاً بالفئران الثلاثة

من أرجلها، منتظرًا أن يكشف المذنبون عن أنفسهم ببعض الدعابات، ولكن لم يأت أحد، فأخذ يقول:

- أما هؤلاء فسأنتهي حتمًا بأن أعرف من هم.

وقد خامر الشك نفس ريو، فقرر أن يبدأ جولة بالأحياء الخارجية حيث يسكن الفقراء من مرضاه، وفي هذه الأحياء يتم جمع القمامة في ساعة متأخرة، وكان من عادة السيارة التي تمر بشوارع هذا الحي المستقيمة المتربة أن تمر مرًا سريعًا بصناديق القمامة التي يتركها أصحابها على جانبي الطريق، وبينما كان الطبيب يمر في أحد الشوارع، استطاع أن يعد اثني عشر فأرًا ملقاة فوق بقايا الخضر والخرق القذرة.

وقد وجد الطبيب أول مرضاه طريح الفراش في غرفة تطل على الشارع، وتستخدم غرفة نوم وغرفة طعام في وقت واحد، إنه إسباني هرم ذو وجه جامد قد غطته التجاعيد، وكان أمامه على الغطاء قدران مليئان بالبازلاء. وفي اللحظة التي دخل فيها الطبيب كان المريض جالسًا نصف جلوس، فانكفأ إلى الخلف محاولاً التقاط أنفاسه الضيقة بفعل الربو المزمن، وأحضرت له زوجته صحيفة صغيرة.

وفي أثناء انشغال الطبيب بإعطاء الحقنة، قال له:

- أرايت يا دكتور؟ إنها تخرج!

وقالت الزوجة:

- نعم، وقد التقط جارنا ثلاثة منها.

ثم أخذ العجوز يفرك يديه، وهو يقول:

- إنها تخرج، ويعثرون عليها في كل صندوق من صناديق القمامة المنزلية. إنه الجوع!

ثم لاحظ ريو -دون جهد- أن الحي بأجمعه يتحدث عن الفئران، ولما انتهت زيارته، عاد إلى منزله، فقال له السيد ميشيل:

- توجد برقية لك في مسكنك.

ولما سأله الطبيب عما إذا كان قد رأى مزيدًا من الفئران، أجاب:

- كلاً، إنني أقوم بالحراسة كما تفهم، ولن يجرؤ هؤلاء الخنازير على إعادة الكرّة.

وكانت البرقية تخبر ريو بوصول أمه في اليوم التالي. إنها قادمة لترعى منزل ابنها أثناء غياب زوجته، ولما دخل الطبيب مسكنه، وجد الممرضة قد حضرت، وشاهد زوجته واقفة ترتدي ثوبًا من قطعتين، وتضع المساحيق على وجهها.

فابتسم لها، وقال:

- حسن، هذا طيب جدًا.

وبعد لحظة كانا قد وصلا إلى المحطة، وأجلسها في عربة النوم، وقد أخذت السيدة تتأمل المكان، وهي تقول:

- إن مثل هذا المكان يكلفنا أكثر مما نحتمل، أليس كذلك؟

فقال ريو:

- ولكنه ضروري.

- وما قصة الفئران هذه؟

- لا أدري، إنه أمر غريب، ولكنه سيمر بلا ريب.

ثم قال لها -بسرعة-: إنه يطلب منها الصفح؛ لأنه قصر في السهر على راحتها، ولأنه قد أهملها كثيرًا، وكانت هي تهز رأسها، كما لو كانت تريد أن تطلب منه أن يكف عن الكلام.

ولكنه أردف قائلاً:

- سوف تتحسن الأحوال عند عودتك، وسنبداً حياتنا من جديد.

فقال -وقد برقت عيناها-:

- نعم، سوف نبدأ من جديد.

وبعد لحظة كانت قد أدارت له ظهرها، وأخذت تنظر من خلال الزجاج، وكان الناس على الرصيف يهرولون ويتصادمون، وكان ضجيج القاطرة يصل إلى مسامعها، ودعا ريو زوجته باسمها الأول، ولما التفتت إليه، وجد وجهها قد تغطى بالدموع.

فقال لها برقة:

- لا.

فعدت إليها ابتسامتها من وراء الدموع، ولكنها كانت ابتسامة مغتصبة بعض الشيء، ثم أخذت السيدة نفساً عميقاً، وقالت:

- عُدت أنت الآن، سيجري كل شيء على ما يرام.

فضمها إليه، ولم يعد الآن يرى على الرصيف من خلال الزجاج

سوى ابتسامتها، وقال لها:

- أتوسل إليك أن تعتني بنفسك.

ولكنها لم تتمكن من سماع ما يقول.

وبالقرب من باب الخروج اصطدم ريو بالسيد «أوتون» القاضي الذي كان ممسكاً بيد ولده الصغير، وسأله الطبيب عما إذا كان ينوي السفر.

وكان السيد أوتون بقامته المديدة ولباسه الأسود، يبدو خليطاً من هذا الذي يسمونه رجل مجتمع وعامل من عمال دفن الموتى، وأجاب أوتون في صوت لطيف، ولكنه مقتضب:

- إني في انتظار السيدة أوتون التي ذهبت لزيارة أسرتي.

وصفّر القطار، وقال القاضي:

- والفئران...

وهنا أتى ريو بحركة في اتجاه القطار، ثم عاد فاستدار ناحية باب الخروج، وقال:

- نعم، إنه أمر لا أهمية له.

وفي تلك اللحظة، لاحظ ريو أحد رجال التنظيم وهو يحمل صندوقاً مليئاً بالفئران الميتة.

وفي عصر اليوم نفسه استقبل ريو في أول استشاراته شاباً قالوا عنه إنه صحفي، وإنه كان قد أتى لزيارته في الصباح، واسمه ريمون رامبير، وهو شاب قصير القامة ممتلئ الكتفين يبدو على وجهه التصميم، ذو

عينين صافيتين يبدو فيهما الذكاء، ويرتدي ملابس رياضية، ويلوح عليه أنه يعيش في سر.

وقد دخل رأسًا في الموضوع الذي أتى من أجله؛ إنه يجمع الأخبار لجريدة كبيرة بباريس حول حياة العرب، ويريد معلومات عن حالتهم الصحية، فقال له ريو: إن حالتهم ليست طيبة، ولكنه يريد أن يعرف - قبل أن يدخل في مزيد من التفاصيل - ما إذا كان الصحفي يستطيع أن يقول الحقيقة، فأجاب هذا الأخير:

- بكل تأكيد.

- أقصد هل تستطيع أن تؤكد أن حالتهم ميؤوس منها يأسًا كليًا.

- يأسًا كليًا لا، وهذا ما أقوله لك بصراحة، ولكنني أفترض أن هذا الحكم لا أساس له.

وأجاب ريو بهدوء قائلاً: «إن حكمًا كهذا سيكون حتمًا بلا أساس»، ولكنه عندما وجّه هذا السؤال كان يريد فقط أن يعرف ما إذا كان رامبير يحتاج في شهادته أم لا، ثم قال:

- إنني لا أقبل إلا الشهادة التي لا يقيدتها احتياطات، وعلى ذلك فلن أؤيد شهادتك بمعلوماتي.

فقال الصحفي مبتسمًا:

- هذه لهجة سان جوست^(١).

فقال ريو -دون أن يرفع نبرة صوته- إنه لا يعرف شيئًا عن لهجة

(١) سان جوست: هو أحد الأسماء التي لمعت في الثورة الفرنسية، وقد مات على المقصلة مع روبسبير.

سان جوست، ولكنه يتكلم بلهجة رجل برم بالعالم الذي يعيش فيه، على الرغم من أن مزاجه لا يختلف عن مزاج من هم على شاكلته، ولكنه مصمم -من ناحيته- على ألا يقبل الظلم، ولا الامتيازات.

وأخذ رامبير ينظر إلى الطبيب، وقد غاص عنقه بين كتفيه، ثم قال وهو ينهض:

- أعتقد أنني أفهمك.

وصحبه الطبيب حتى الباب، وهو يقول:

- أشكرك على فهمك للأمور بهذه الطريقة.

وهنا بدا على رامبير الضجر، وهو يقول:

- نعم إنني أفهمك، وأرجو أن تغفر لي إقلاقي لراحتك.

وشد الطبيب على يده وهو يقول: «إن هناك بحثًا صحفيًا طريفًا يمكن أن يُقدم عن كمية الفئران الميتة التي يعثرون عليها في المدينة في هذه الآونة».

فصاح رامبير قائلاً:

- حقًا! إن هذا يهمني.

وفي الساعة الخامسة مساءً، عندما خرج الطبيب لعيادات جديدة، واجه على السلم رجلًا ما زال في سن الشباب، ضخم الجسم، ذا وجه هائل مليء بالحفر، يعلوه حاجبان كثيفان.

وكان ريو قد قابل هذا الرجل عدة مرات عند الراقصين الإسبانيين الذين يسكنون الدور الأخير من عمارته، كان «جان تارو» هذا واقفًا يدخن

سيجارته باهتمام، وهو يتأمل التشنجات الأخيرة لفأر يلفظ أنفاسه على إحدى درجات السلم تحت قدميه، ورفع تارو رأسه إلى الطبيب، ونظر إليه بعينه الشهابوين نظرة هادئة، وقال له: «صباح الخير»، ثم أضاف قائلاً: «إن ظهور الفئران على هذا النحو أمر عجيب»، فأجاب الطبيب: - نعم، ولكنه أصبح الآن مثاراً للضيق.

- هذا من ناحية، من ناحية واحدة فقط يا دكتور. إننا لم نر ذلك أبداً من قبل، هذا كل ما في الأمر، ولكنني أرى أن هذا الأمر يثير الاهتمام، من الناحية الموضوعية.

وملس تارو بيده على شعره مرسلاً إياه إلى الخلف، وألقى نظرة أخرى على الفأر الذي أصبح الآن بلا حراك. ثم ابتسم لريو، وقال:

- ولكن على كل حال - يا دكتور - هذا من شأن البواب. وفي هذه اللحظة بالذات وجد الطبيب البواب واقفاً أمام البيت، وقد أسند ظهره إلى الحائط قرب المدخل، وبدا التعب على وجهه الذي لا يُرى عادة إلا محققناً، وقال ميشيل الهرم لريو الذي أعلن له الخبر الأخير:

- أجل، أعرف هذا، إنهم يعثرون عليها الآن مثني وثلاث، ولكن هذا أمر لا تخلو منه المنازل الأخرى.

كان ميشيل يبدو محطماً قلقاً، وقد انهال على عنقه يحكه بحركة آلية، وسأله ريو عن صحته. ولم يكن في استطاعته أن يجيب بأنها ليست

على ما يرام، ولكنه لم يكن يشعر أنه في حالة عادية، وتوهم أن حالته المعنوية هي التي تسبب له هذا التعب، فهذه الفئران قد تسببت له في صدمة، وسيزول كل شيء حتمًا عندما تختفي الفئران.

ولكن في صباح اليوم التالي -الثامن عشر من أبريل- عاد الطبيب من المحطة إلى البيت في صحبة أمه، فوجد ميشيل وقد بدا عليه المزيد من الغم، وازداد وجهه ندوبًا، فمن البدروم إلى السطح انتشرت نحو عشرة فئران على السلم، كما امتلأت بالفئران أيضًا صناديق القمامة بالمنازل المجاورة، وقد تلقت أم الطبيب هذا الخبر دون أن تبدي أي دهشة، وقالت:

- هذا أمر كثير الحدوث.

وكانت هذه السيدة امرأة قصيرة القامة، ذات شعر فضي، وعينين سوداوين رقيقتين، وقد جعلت تقول لابنها:

- إنني سعيدة برؤيتك يا برنار، ولن تقوى الفئران على تغيير هذا الشعور.

وأيد هو ما تقوله، والحقيقة أن كل شيء كان يبدو في عينها سهلاً. وتحدث ريو بالتليفون إلى مركز إبادة الفئران -الذي كان يعرف رئيسه- تُرى هل سبق إلى سمع هذا المدير حديث تلك الفئران التي تخرج زرافات إلى الهواء الطلق لكي تموت فيه؟

نعم إنه هذا المدير -واسمه مرسيه- قد سمع الناس يتكلمون عنها، بل إنهم قد عشروا في مركزه نفسه -الذي لا يبعد كثيرًا عن أرصفة

الميناء - على نحو خمسين منها، ولكنه مع هذا كان يسائل نفسه عما إذا كان الأمر حقيقة خطرًا؟ ولم يكن ريو ليستطيع أن يجزم بشيء في هذا الصدد، ولكنه كان يعتقد أنه يجب على مركز إيادة الفئران أن يتدخل، فقال مرسييه:

- أجل! لو كان هناك أمر بذلك، وإذا كنت تعتقد أن الأمر يستحق التدخل حقيقة، ففي وسعي أن أحاول استصدار هذا الأمر.
فقال ريو:

- إن المسألة تستحق هذا العناء.

وأخبرته الخادمة أنهم جمعوا من المصنع الكبير الذي يعمل به زوجها مئات ومئات من الفئران الميتة.

ومهما يكن من شيء، فإن هذه الآونة -على وجه التقريب- هي التي بدأ مواطنونا يشعرون فيها بالقلق؛ إذ إنه ابتداء من الثامن عشر أخذت المصانع والمخازن تمتلئ بمئات من جثث الفئران.

وفي بعض الحالات كانوا يضطرون إلى الإجهاز على الفئران التي يطول احتضارها، ولكن الدكتور ريو كان يرى -أنني ذهب وأنني تجمع المواطنون، ابتداء من الأحياء الخارجية حتى قلب المدينة- أكوام الفئران تملأ صناديق القمامة، أو تسد المجاري.

وقد أثارت صحف المساء هذا الموضوع، وتساءلت عما إذا كانت البلدية تنوي التدخل أم لا؟ وعن الإجراءات العاجلة التي ترى اتخاذها لحماية السكان الذين من واجبها أن ترعاهم من هذا الهجوم المموج.

ولم تكن البلدية قد رأت اتخاذ أي إجراء، ولكنها بدأت بعقد اجتماع للتشاور، وصدر أمر لمركز إيادة الفئران لكي يقوم بجمع الفئران النافقة كل يوم عند الفجر.

وما كانت تنتهي عملية الجمع حتى كانت تحمل هذه الحيوانات سيارتان من سيارات المركز لحرقتها في معمل إحراق القمامة.

ولكن الحالة لم تزدد إلا سوءًا في الأيام التالية؛ فكان عدد هذه الحيوانات القارضة كل يوم في ازدياد، وكذلك كان المحصول الذي يجمع منها كل صباح.

ومنذ اليوم الرابع بدأت الفئران تخرج لتموت جماعات، كانت تخرج من الأماكن المنعزلة، ومن «بدرومات» المنازل، ومن الأقبية والمجاري في صفوف طويلة، مضطربة الخطى، وتروح ترتعد وتدور حول نفسها، ثم تنفق بالقرب من الآدميين. وفي أثناء الليل كانت صرخاتها القصيرة -ساعة احتضارها- تُسمع بوضوح في الممرات وفي الحواري، وفي الأحياء البعيدة كانوا يجدونها في الصباح ملقاة بحذاء النهر وعلى فمها المدبب زهرة صغيرة من الدم. وكان يرى بعضها منتفخًا متعفنًا، وبعضها الآخر متصلبًا وشواربه ما زالت منتصبه، وحتى في قلب المدينة كانوا يعثرون عليها في أكوام صغيرة على بسطات السلالم أو في الأقبية. وفي بعض الأحيان كان يأتي بعضها منفردًا ليموت في أبهاء الإدارات أو في الأماكن المسقوفة من أفنية المدارس، أو في رحبات المقاهي. وكانت الدهشة تعقد ألسنة مواطنينا حين يعثرون عليها في الأماكن الآهلة من المدينة، حتى ميدان الأسلحة والشوارع الكبرى والمتنزهات لم تسلم

من تكدسها بها -تدريجياً وفي أعداد كبيرة- أثناء النهار. وكثيراً ما كان يحدث أن تصطدم أقدام المتنزهين ليلاً بجثة أحدها وما زالت دافئة، وكانت الأرض التي أقيمت عليها منازلنا تبدو وكأنها قد أخرجت أثقالها، وما كان ينخر جوفها من سرطانات وقروح.

ولنتصور دهشة مدينتنا الصغيرة -التي كان يسودها الهدوء حتى الآن- وقد اضطرب أمرها في بضعة أيام، كما لو كان هناك رجل في صحة جيدة، ثم أخذ دمه الكثيف في الغليان على حين غرة!

واستفحلت الأمور، حتى إن وكالة الأنباء «رانسدوك» أعلنت في إحدى إذاعاتها الإخبارية المجانية أنه في اليوم الخامس والعشرين وحده تم جمع ستة آلاف ومائتين وثلاثين فأراً، ثم إحراقها. وقد عمل هذا الرقم الذي يقدم لنا صورة واضحة للمنظر الذي كانت المدينة تراه كل يوم تحت بصرها على ازدياد حالة الاضطراب التي سادتها؛ فحتى ذلك الحين كان الأمر لا يتعدى الشكوى من حدث مقرر. أما الآن، فقد أخذ الناس يشعرون بأن هذه الظاهرة التي لم يمكن حتى الآن تحديد مداها، أو تبيان أصلها، تحمل نذير الخطر، ولم يكن هناك سوى الإسباني الهرم المصاب بالربو الذي ما فتئ يفرك يديه ويردد في فرح الشيوخ:

«إنها تخرج، إنها تخرج».

وفي الثامن والعشرين من أبريل، عندما أعلنت وكالة «رانسدوك» أن المحصول قد بلغ ثمانية آلاف فأر تقريباً، عم القلق المدينة، وطالب الناس باتخاذ إجراءات جوهريّة، وأخذوا يوجهون الاتهامات

للسلطات، وجعل الأشخاص الذين يملكون منازل على شاطئ البحر يفكرون في الهجرة إليها.

ولكن في اليوم التالي أعلنت الوكالة أن الظاهرة قد توقفت فجأة، وأن محصول الفئران الميتة التي جمعت محصول ضئيل، وتنفست المدينة الصعداء.

ومع ذلك، فقد حدث في ظهيرة اليوم نفسه أن كان الدكتور ريو يوقف سيارته أمام عمارته، فلمح البواب وهو يقبل من أقصى الشارع بصعوبة، وقد مال رأسه وتباعدت ذراعه وساقاه، كما لو كان مهرج مسرح، وكان الرجل الهرم يستند على ذراع قس يعرفه الطبيب، ولم يكن إلا الأب پانلو، وهو قس من علماء الياسوعيين المجاهدين كان قد قابله من قبل عدة مرات، وكان أهل مدينتنا جميعًا يحيطونه بالتقدير، حتى من كان منهم لا يهتم بأمر الدين، ووقف الطبيب ينتظر وصولهما، كانت عينا ميشيل الهرم تلمعان، ويسمع لتنفسه صفير، وكان حينما شعر بانحراف صحته وقد عقد العزم على الخروج لاستنشاق الهواء الطلق، ولكن آلامًا حادة في العنق وتحت الإبطين، وعند ثني الفخذين اضطرته إلى العودة، وإلى طلب المعونة من الأب پانلو.

وقال ميشيل:

- إنها عقد، فلا بد أنني قد بذلت مجهودًا فوق طاقتي.

وأخرج الطبيب ذراعه من باب السيارة، ومر بإصبعه على أسفل العنق التي مدها إليه ميشيل، فرأى بها ما يشبه عقدة من الخشب، وقال له:

- الزم فراشك، وقس درجة حرارتك، وسأحضر عصرًا لزيارتك.
ولما انصرف البواب، سأل ريو الأب پانلو عما يظنه في أمر قصة
الفئران؟ فقال الأب:
- لا بد أنه وباء.

وكانت عيناه تبسمان من خلف زجاج نظارته المستدير.
وبعد الغداء، وبينما كان ريو يعيد قراءة البرقية التي وصلته من
المصححة تعلن إليه وصول زوجته، دق جرس التليفون، وكان المتحدث
عميلًا قديمًا يعمل موظفًا في دار البلدية، ويطلب الآن من ريو أن يعود.
كان هذا العميل قد قاسى طويلًا من ضيق في الأورطى، ولما كان فقيرًا
فقد عالجه ريو مجانًا، وانبرى الرجل يقول:

- نعم، إنك تذكرني، ولكن المسألة تتعلق الآن بغيري، احضر
بسرعة، فقد حدث شيء ما عند جاري.

كان يتكلم وهو يلهث. وفكر ريو في البواب، وقرر أن يزوره
بعد رجوعه من هذه الزيارة، ولم تمر إلا دقائق حتى كان يجتاز باب
منزل منخفض في شارع «فيديرب» من حي خارج المدينة، وفي وسط
السلم الرطب الذي تفوح منه رائحة العفن، تقابل مع «جوزيف جران»
الموظف الذي كان نازلاً لاستقباله، وهو رجل في الخمسين من عمره،
أصفر الشارب، طويل القامة، محدودب الظهر، ضيق ما بين الكتفين،
نحيل الأطراف، وقال للطبيب وهو يتقدم منه:

- إن حالته تتحسن، ولكنني قد ظننت أنه لن ينجو منها.

وأخذ يمشط أنفه.

وعندما وصل ريو إلى الدور الثاني، قرأ على الباب الذي على يساره هذه العبارة: «ادخل.. فقد شنقت نفسي» مكتوبة بالطباشير الأحمر.

ودخلا. كان الجبل يتدلى من ثريا معلقة فوق كرسي مقلوب، كما كانت هناك منضدة مقلوبة في ركن من أركان المكان، ولكن الجبل كان يتدلى في الفراغ. وقال جران -وهو يلتقط كلماته رغم بساطتها-:

- كيف أشرح لك ذلك، لقد فككت الجبل من عنقه في الوقت المناسب، كنت في تلك اللحظة في سبيلي للخروج، فسمعت حركة، ولما قرأت هذا الكلام ظننت أن الأمر لا يعدو المزاح، ولكني سمعت أنيناً غريباً يصدر منه، أنيناً يمكن أن نسميه حزيناً.

وهرش رأسه، ثم استطرد قائلاً:

- في رأيي أن هذه العملية لا بد أن تكون مؤلمة، وقد دخلت بطبيعة الحال.

وهنا دفعا أمامهما أحد الأبواب، ووقفوا على عتبة غرفة يغمرها الضوء، ولكن أثاثها ينم عن الفقر. كان فيها رجل قصير القامة، مكور الجسم، يرقد على سرير من نحاس، وكان يتنفس بقوة، وينظر إليهما بعينين محقتتين. فوقف الطبيب في مكانه، وكان يخيل إليه أنه يسمع اللحظات التي تتخلل شهيق الرجل صرخات الفئران القصيرة، ولكن لم تكن هناك أي حركة في أركان الغرفة، واتجه ريو نحو السرير، لم يكن الرجل قد سقط من ارتفاع كبير، ولا كانت سقطته مفاجئة، ولذا

صمدت فقرات ظهره. لقد أصيب طبعًا ببعض الاختناق، وكان من الأجدر أن تؤخذ له صورة بالأشعة، ولكن الطبيب اكتفى بإعطائه حقنة من زيت الكافور، وقال:

- إن الحالة ستتحسن خلال أيام.

ورد الرجل بصوت مختنق:

- شكرًا يا دكتور.

وسأل ريو جران عما إذا كان قد أبلغ البوليس؟ فبدأ عليه الارتباك وقال:

- كلا! كلا! لقد ظننت أن الإجراء الأسرع أن...

وقاطعه الطبيب قائلاً:

- طبعًا، إذن سأقوم أنا بالتبليغ.

ولكن لم يكد المريض يسمع هذه الكلمة، حتى انتفض، واستوى على فراشه، وراح يعترض بأنه على ما يرام، وليس هناك ما يدعو إلى ذلك، فقال ريو:

- هدئ من روعك، فهذه مسألة بسيطة، وينبغي أن أقدم بلاغي.

ولكن المريض صاح قائلاً:

- آه! وألق بنفسه إلى الخلف، وهو يبكي بكاء متقطعًا.

وكان جران -حتى هذه اللحظة- مشغولًا بمداعبة شاربه، فاقرب منه، وقال:

- هيا يا سيد كوتار، حاول أن تفهم، فقد يعتبر الدكتور مسؤولاً عما يحدث، لو أنك فكرت في إعادة الكرة.

ولكن كوتار رد من خلال دموعه بأنه لن يعيد الكرة، وأنها كانت لحظة جنون، وأنه لا يطلب الآن إلا أن يتركوه في سلام.

فقال ريو، وهو يكتب تعليماته الطبية:

- اتفقنا، وسأعود بعد يومين أو ثلاثة، ولكن لا ترتكب حماقات أخرى.

وعلى بسطة السلم قال الطبيب لجران إنه مضطر لتقديم بلاغه، ولكنه سيطلب من الضابط ألا يقوم بالتحقيق إلا بعد يومين.

ثم أردف قائلاً:

- يجب مراقبته هذه الليلة، هل له أسرة؟

- أنا لا أعرف له أسرة، ولكنني أستطيع أن أسهر عليه أنا نفسي.

ثم هز رأسه وهو يقول:

- لا يمكنني أن أقول إنني أعرفه، ومع ذلك فإن التعاون واجب.

وكان ريو ينظر -بحركة آلية- إلى أركان ممرات المنزل، فسأل جران عما إذا كانت الفئران قد اختفت تمامًا من الحي؟ ولكن هذا الموظف لم يكن يعرف شيئاً عن الموضوع، وإذا كان بعض الناس قد حدثه عنه، فإنه لم يكن ليعير اهتماماً كبيراً لتقولات أهل الحي، قال:

- إن لديّ مشاغل أخرى.

وشد ريو على يده؛ لأنه كان معجلاً لكي يزور البواب قبل أن يكتب إلى زوجته.

وقد كان باعة الصحف يصيحون معلنين أن هجوم الفئران قد توقف.

ولكن ريو وجد مريضه متدلياً إلى نصفه من الفراش، وقد وضع يداً على بطنه، وأخرى حول عنقه، وراح يقيء عصارة وردية في وعاء من أوعية القمامة، والألم يكاد يمزقه تمزيقاً.

وبعد جهد كبير عاد فاستلقى على فراشه، وقد كادت أنفاسه أن تنقطع. كانت درجة حرارته تسعاً وثلاثين درجة ونصف درجة، وقد ازدادت عقد رقبته وأطرافه انتفاخاً، وظهر في جنبه بقعتان داكنتان أخذتا في الاتساع.

وأصبح الآن يشكو من ألم في جوفه، وهو يردد قوله:

- إنه يحرقني، هذا الخنزير يحرقني.

كان فمه -الذي أصبح في لون السناج- يجعله يمزغ الكلمات مضغاً، وقد أدار نحو الطبيب عينين متبلورتين ملأهما الصداع بالدموع، وأخذت زوجته تنظر بقلق إلى ريو الذي ظل صامتاً، ثم قالت له:

- دكتور، ما هذا؟

- قد يكون أي شيء. إني حتى الآن لا أستطيع الجزم بشيء، حتى هذا المساء عليه أن يلتزم بالحمية التامة، وتناول بعض المطهرات، ولا بد له من أن يشرب كثيراً.

والحقيقة أن البواب كان يحترق من العطش.

وما إن وصل ريو إلى بيته، حتى دق التليفون، وطلب زميله «ريشار» وهو من أكبر أطباء المدينة، ورد ريشار على سؤاله لريو بقوله:

- كلاً، لم أر حالة واحدة غير عادية.

- ألم تصادف حالات حمى مصحوبة بالتهابات موضعية؟

- بلى، رأيت حالتين من التورمات الشديدة الالتهاب.

- بشكل غير عادي؟

فقال ريشار:

- إن ما يسمّى عادياً، أنت تعرف..

ومهما يكن من شيء، ففي المساء كان البواب يهذي، ويشكو من الفتران، وقد بلغت درجة حرارته الأربعين، وحاول ريو أن يجري اختباره على أحد الخرايج لعله يعرف نوع المرض، فكان البواب يعوي من لهيب زيت التربنتينا، ويقول: آه! هؤلاء الخنازير!

وازدادت العقد حجماً، وأصبحت صلبة الملمس، وكادت زوجة البواب تجن، وقال لها الطبيب:

- اسهري عليه، واطلبيني إذا دعى الأمر إلى ذلك.

وفي اليوم التالي، وهو اليوم الثلاثين من أبريل، أخذ يهب على المدينة نسيم دافئ، تحت سماء زرقاء رطبة، وقد حمل هذا النسيم رائحة الزهور التي جلبها معه من الضواحي البعيدة، وكانت ضوضاء الصباح في هذا اليوم في الشوارع تبدو أكثر انتعاشاً، وأكثر مرحاً من

المعتاد، وكان هذا اليوم أشبه ببداية عهد جديد في مدينتنا الصغيرة بعد أن تخلصت من الهلع الذي عاشت فيه طوال الأسبوع، حتى لنرى ريو نفسه ينزل لعيادة البواب بقلب مرح بعد أن تلقى خطاباً مطمئناً من زوجته.

وكانت الحمى قد هبطت فعلاً إلى ثمان وثلاثين درجة، وكان المريض يتسهم في فراشه، وقد بدا عليه الهزال، وقالت زوجته:

- إن حالته قد تحسنت، أليس كذلك يا دكتور؟

ورد الطبيب:

- يجب أن ننتظر وقتاً آخر.

ولكن لم يحن وقت الظهر حتى عادت الحمى إلى الارتفاع فجأة، فوصلت درجتها إلى الأربعين، وعاد المريض إلى الهذيان دون توقف، وعأوده القيء من جديد. وكانت عقد الرقبة تؤلمه عند اللمس، ويبدو كما لو كان يريد أن يبعد رأسه عن جسمه بقدر المستطاع. أما زوجته فقد جلست بجانب رجل السرير، ويداها على الغطاء وقد أمسكت بهما قدمي المريض في رفق، وكانت تنظر إلى ريو الذي قال لها:

- أنصتي لما سأقول: يجب علينا عزله، وعلاجه علاجاً خاصاً. سأكلم المستشفى، وسننقله في سيارة الإسعاف.

وبعد ساعتين كان الدكتور والمرأة ينحنيان على المريض في السيارة، وكانت تخرج من فمه المبطن بالبشور الملتهبة بعض بقايا الكلمات، فيردد قوله «الفئران». وهنا اخضر لون وجهه، وأصبحت

شفتاه في لون الشمع، وثقل جفناه، وتقطعت أنفاسه وتلاحقت،
وتباعدت أطرافه بسبب الأورام، وقد لصق بقاع فراشه كما لو كان يريد
أن يطبقه عليه، أو كما لو كان هناك صوت ما ينبعث من باطن الأرض
ويدعوه بلا انقطاع، كان البواب يختنق تحت ضغط خفي، وانفجرت
المرأة بالبكاء وهي تقول:

- ألم يعد هناك أي أمل يا دكتور؟

وأجاب ريو:

- لقد مات.



يمكننا أن نعتبر موت البواب نهاية تلك الفترة المليئة ببواغث الحيرة، وبداية لفترة أخرى أصعب نسبياً من الفترة السابقة، تحولت فيها الدهشة التي استولت على الناس في الفترة الأولى إلى ذعر؛ فمواطنونا لم يكونوا قد فكروا قط أنه يمكن لمدينتنا الصغيرة أن تصبح مكاناً مختاراً للفئران لكي تأوي وتنفق فيه تحت وهج الشمس، وأن البوابين يموتون فيه بأمراض غريبة، وهذا ما قد فطنوا إليه منذ ذلك الحين، ولا شك أنهم كانوا مخطئين من وجهة النظر هذه، وأنه كان عليهم أن يعيدوا النظر في أفكارهم، ولو أن الأمر وقف عند هذا الحد لانضم إلى ما لديهم من عادات مكتسبة، ولانتهت المشكلة، ولكن كان هناك مواطنون آخرون ممن لم يكونوا دائماً بوابين ولا فقراء، وقد اضطروا أن يسلكوا نفس الطريق الذي كان ميشيل أول من ارتاده، ومنذ هذه اللحظة بدأ لديهم الخوف المصحوب بالتفكير العميق.

ولكن الراوي يرى -قبل أن ندخل في تفاصيل هذه الحوادث- أن يستشهد برأي شاهد آخر هو «جان تارو» الذي تعرفنا عليه في أول القصة، فيما يتعلق بالفترة التي انتهت.

كان هذا الرجل قد أتى إلى وهران قبل ذلك بعدة أسابيع، ونزل منذ قدومه فندقًا كبيرًا في وسط المدينة، كان مظهره يدل على أنه في درجة من اليسر تسمح له بالعيش من دخله، ولكن لم يكن أحد يستطيع أن يقول: من أين أتى؟ ولا لماذا أتى؟ بالرغم من أن المدينة كانت قد ألفتها، كنت تراه في جميع الأماكن العامة. وما إن بدأ الربيع حتى كان يُشاهد كثيرًا على الشواطئ، ويسبح في مياهها في متعة ظاهرة، كان رجلًا طيبًا، دائم الابتسام، يبدو صديقًا لكل المتع العادية دون أن يكون عبدًا لها، والعادة الوحيدة التي عرفت عنه كانت زيارته للراقصين الإسبانيين، وما أكثرهم في مدينتنا.

وتعتبر مفكرة هذا الرجل هي الأخرى تاريخًا لتلك الفترة العسيرة، ولكنه تاريخ من نوع خاص يبدو فيه التحيز بشكل ينم عن التفاهة، وقد نظن -لأول وهلة- أن تارو كان يتفنن في إصدار أحكامه على الأشياء، وعلى الناس من خلال الجانب المفرط في التكبير من منظاره. فكان في وسط هذا الاضطراب الذي ساد المدينة، يحاول جاهدًا أن يجعل من نفسه مؤرخًا لما لا تاريخ له، وقد نلومه على تحيزه هذا، ونظن فيه تبدل القلب، ولكن هذا لا يمنعنا من الاعتراف بأن مفكرته تحوي مجموعة كبيرة من التفصيلات الثانوية التي لها أهميتها رغم كل اعتبار، بل إن هذه الغرابة نفسها تمنعنا من التسرع في الحكم على هذا الرجل الطريف.

كانت الملاحظات الأولى التي دونها جان تارو ترجع إلى بداية قدومه إلى وهران، وكانت تعبر منذ البداية عن رضاه التام بوجوده في مدينة تصل -في حد ذاتها- إلى هذه الدرجة من القبح، فنراه يورد فيها

وصفًا مفصلاً للأسدين البرونزيين اللذين يزينان دار البلدية، ويحشوها باعتذاراته عن عدم وجود أشجار بالمدينة، وعن قبح منظر المنازل، وغرابة تخطيط المدينة، ونرى تارو يذكر في غضون هذه الملاحظات بعض المحادثات التي سمعها في الترام والشوارع دون أن يعلق عليها، فيما عدا محادثة واحدة ذكرها فيما بعد، وتدور حول شخص يُدعى كامب، وهذه هي المحادثة التي سمعها تارو من اثنين من محصلي الترام:

- أنت تعرف كامب جيدًا.
- كامب؟ أهو شخص طويل القامة، وذو شارب أسود؟
- هذا هو، كان يعمل محوّلًا للخطوط.
- نعم بكل تأكيد.
- لقد مات.
- حقًا! متى حدث ذلك؟
- بعد قصة الفئران.
- هكذا! وماذا أصابه؟
- لا أدري، ربما كانت الحمى، إنه لم يكن قوي البنية، وقد أصيب بخراريج تحت الإبطين، ولم يقو على المقاومة.
- ومع ذلك لم تكن حالته تختلف عن غيره من الناس.
- بلى، فقد كان متعب الصدر، وكان مع ذلك مشتركًا في «جمعية نشر الموسيقى»، ومن الطبيعي أن يصاب المرء بالضرر من مواصلة

النفخ في قصبة هوائية.

وأنتهى الثاني الكلام قائلاً:

- آه! إذا كان المرء مريضاً، فما عليه إلا أن يكف عن النفخ في قصبة هوائية.

وبعد أن انتهى تارو من تسجيل هذه الإشارات القليلة، أخذ يسائل نفسه عن السبب الذي حدا بكامب إلى الاشتراك في جمعية الموسيقى ضد مصلحته الأكيدة، والبواعث العميقة التي جعلته يغامر بحياته في سبيل استعراضات يوم الأحد، ويتبع ذلك مشهد يبدو أنه أثر في تارو تأثيراً طيباً، وهو مشهد يحدث كثيراً في الشرفة المواجهة لناذته؛ فقد كانت غرفته تطل على شارع جانبي تنام فيه بعض القطط في ظل الجدران، ولكن لم يكن الناس ينتهون من تناول غدائهم في كل يوم، ويأوون إلى مضاجعهم خلال الساعات التي تأخذ فيها المدينة بأسرها سنة من النوم بسبب الحرارة حتى يظهر في شرفة الجانب الآخر من الشارع رجل هرم قصير القامة، فكان يقف بشعره الأبيض المرجل، وقامته المستقيمة وملابسه ذات الطابع العسكري، ويدعو القطط بصوت متعال حنون في آن واحد: «قطيطة، قطيطة»، وترفع القطط أعينها المثقلة بالنعاس دون أن تتحرك، ثم يأخذ الرجل في تمزيق قطع صغيرة من الورق ويلقي بها إلى الطريق، وتتقدم نحو الشارع، وهي تمد أرجلها بتردد نحو القصاصات الأخيرة، وحينئذ يأخذ الرجل في البصاق على القطط بقوة ودقة، فإذا ما أصاب الهدف ضحك من أعماقه.

وفضلاً عن ذلك، يبدو أن تارو قد أخذ بطابع المدينة التجاري،

ذلك أن مظهر المدينة وازدحامها، بل ووسائل التسلية فيها، كانت كلها من مستلزمات الحياة التجارية. وقد حظي هذا الطابع الفريد -وهذا هو نص العبارة الواردة في المفكرة- برضى تارو، حتى لنراه ينهي إحدى الملاحظات التي قالها في إطرائه بهذه الصيحة التعجبية «وأخيراً!».

هذه هي النواحي الوحيدة التي اتخذت فيها ملاحظات هذا المسافر طابعاً شخصياً يصعب تحديد معناه وجديته، فنراه -مثلاً- بعد أن يذكر أن اكتشاف فأر ميت قد دفع صراف الفندق إلى ارتكاب خطأ حسابي -يضيف معقّباً بخط أقل وضوحاً من المعتاد:

سؤال: ماذا نفعل حتى لا نضيع وقتنا؟

جواب: أن نمارسه بكل ما فيه من طول.

الوسائل: قضاء أيام بطولها في قاعة الانتظار بعبادة طبيب الأسنان على مقعد غير مريح، قضاء يوم الأحد بعد الظهر في الشرفة، الاستماع إلى محاضرات بلغة لا نفهمها، أن يختار المرء أطول الطرق الحديدية وأكثرها مشقة ويسافر واقعاً بطبيعة الحال، أن يقف في الصفوف الطويلة أمام شباك التذاكر في المسارح، ثم يترك دوره يمر دون حجز... إلخ... إلخ.

وبعد هذه المفارقات اللغوية أو الفكرية مباشرة، تبدأ الفكرة في وصف مفصل لعربات الترام في مدينتنا، بشكلها الزورقي، ولونها الذي لا يمكن تحديده، وقذارتها المعتادة، ثم ينهي كاتبها ملاحظاته بكلمة: «هذا جدير بالملاحظة»، وهي عبارة لا تضيف جديداً. أما فيما يتعلق بقصة الفران، فهذا مثل من الإيضاحات التي يقدمها له تارو:

«لقد أصيب الرجل الهرم المواجه لي بخيبة أمل؛ إذ لم تعد توجد قطط، فقد اختفت جميعاً بعد أن أثارها الفئران النافقة التي يعثر عليها بكميات كبيرة في الشوارع، وفي رأيي أن هذا الأمر لا يرجع إلى أن القطط تأكل الفئران النافقة؛ فإني أذكر أن قططي لم تكن تحب ذلك، ولكن هذا لا يمنع من أنها تمرح الآن في البدرومات، وأن الرجل المسن القصير قد أصيب بخيبة أمل، فهو الآن يصفف شعره بعناية أقل من ذي قبل، ويبدو أقل قوة، وإنك لتشعر بما يعتره من قلق؛ إذ إنه يعود أدراجه من الشرفة بعد لحظة من خروجه إليها، وقد حدث ذات مرة أن بصق في الهواء.

«وفي المدينة أوقفوا اليوم إحدى عربات الترام؛ لأنهم وجدوا فيها فأراً ميتاً لا يدري أحد كيف وصل إلى هذا المكان. وقد غادر العربة سيدتان، أو ثلاث سيدات، وألقي بالفأر بعيداً، ثم استأنف الترام سيره.

«وفي الفندق أخبرني المشرف المناوب -وهو رجل جدير بالثقة- بأنه يتوجس شراً من هذه الفئران الكثيرة.

«فعندما تغادر الفئران السفينة...» وقد أجبت: أن هذا صحيح في حالة السفن، ولكن لم يثبت صحته فيما يتعلق بالمدن. ولكنه مع ذلك كان راسخ الاقتناع بما يقول، وقد سأله عن رأيه فيما يمكن أن نتوقع، فلم يدر شيئاً؛ إذ إنه من المستحيل التكهن بهذا الشر، ولكنه لن يكون من المستغرب حدوث زلزال، وقد وجدت أن هذا محتمل. ولما سألني عما إذا لم يكن هذا يسبب لي القلق، قلت له: إن كل ما يهمني هو أن أتمتع باطمئنائي الداخلي، وقد فهمني الرجل فهماً كاملاً.

«وفي مطعم الفندق توجد أسرة بأكملها تثير الاهتمام؛ أما الأب فرجل طويل القامة نحيل العود يرتدي لباساً أسود، وياقة منشأة، وبه صلع في وسط رأسه، وله خصلتان من الشعر الأشهب، واحدة ذات اليمين، وأخرى ذات اليسار، وتخلع عليه عيناه المستديرتان القاسيتان، وأنفه الدقيق، وفمه المستقيم صورة بومة مهذبة.

كان الرجل دائماً أول من يصل إلى باب المطعم، حيث كان يتراجع تاركاً زوجته تمر -وهي سيدة قصيرة تشبه الجرد الأسود- وبعد ذلك يدخل، ومن خلفه مباشرة غلام وفتاة صغيرة يدوان في ملابسهما ككلبين حسني التدريب، وعندما يصل إلى مائدته ينتظر حتى تأخذ زوجته مكانها، ثم يتبعها بالجلوس، وحيثذ يسمح للجروين الصغيرين بأن يستلقيا على مقعديهما.

كان يخاطب زوجته وأولاده بكلفة، فكان يوجه لها جارح القول في غلاف مهذب، ويلقي إلى أولاده بالأوامر الصارمة:

- نيكول، إنك تبدين ثقيلة الدم بصورة تعتبر غاية في العظمة.

«إن الفتاة الصغيرة على وشك أن تنفجر باكية، وهذا ما ينبغي لها أن تفعل».

«لقد كان الغلام الصغير جد مشغول هذا الصباح بمسألة الفئران»، وأراد أن يقول كلمة في هذا الموضوع، وهو على المائدة، فقال الأب:

- لا ينبغي أن تتكلم عن الفئران وأنت على المائدة، يا فيليب. إنني أنهاك عن التفوه بهذه الكلمة مستقبلاً.

فقال الجرذ الأسود:

- إن أباك على حق.

وهنا أخفى الجروان الصغيران أنفيهما في طبقيهما، وعبرت البومة عن شكرها بحركة مقتضبة من رأسها.

«ورغم هذا المثل الجميل، نرى المدينة تكثر من الكلام عن قصة الفئران هذه، وقد تدخلت الجريدة في الموضوع. أما المجلة المحلية -وهي متنوعة الموضوعات في العادة- فقد أصبحت لا هم لها إلا حملة الهجوم التي شنتها على البلدية، فقالت:

«هل يعلم رجال البلدية أي خطر نتعرض له من جراء جثث الفئران المتحجرة؟».

أما مدير الفندق، فإنه لم يعد يستطيع التحدث في موضوع آخر، ومعنى هذا أن الموضوع يثيره، فالثور على فئران في مصعد فندق محترم يبدو له أمراً غير معقول، وقد قلت له مواسياً:

«ولكن كل الناس في البلية سواء» فأجابني:

«هو كذلك، فنحن الآن في نفس حالة الآخرين».

وكان هو أول من حدثني عن حالات تلك الحمى الغريبة التي بدأ الناس يقلقون لظهورها -وقد أصيبت بها إحدى وصيفات فندقه- فقال لي -شارحاً- باهتمام:

- ولكنها ليست معدية بكل تأكيد.

فقلت له:

- إن هذا لا يغير من الأمر شيئاً.

فقال:

- آه. إنك مثلي يا سيدي، تؤمن بالقضاء والقدر.

ولم أكن قد قلت شيئاً من هذا القبيل، ولا أعتقد أنني أؤمن بالقضاء والقدر.

فقلت له....

ونأخذ مفكرة تارو -ابتداء من هذا الموضوع- في التحدث بشيء من التفصيل عن تلك الحمى المجهولة التي بدأ الناس يقلقون بسببها، وبعد أن ذكر كيف أن الرجل الهرم القصير قد استعاد قططه عقب اختفاء الفئران، وكيف استأنف إصابته الهدف بمزيد من الدقة والأناة، أضاف قائلاً: «إنه من الممكن أن نذكر نحو عشر حالات من هذه الحمى فيها توفي معظم المصابين».

ومن الممكن أن نحصل على صورة للدكتور ريو من خلال هذه الوثيقة، وهي صورة يستطيع الراوي أن يؤكد صدقها:

«يبدو في الخامسة والثلاثين من عمره، متوسط الطول، له كتفان ممتلئتان، ووجه شبه مستطيل، وعينان قاتمتان تنمان عن الجذ، وبفكيه بروز، ويتسم أنفه بالاستقامة، له شعر أسود قصير، وفم مقوس، وشفتان غليظتان مضمومتان في غالب الأحيان، إنه يشبه أن يكون فلاحاً صقلياً بجلده الأسمر المغطى بشعر أسود، وملابسه ذات الألوان القاتمة دائماً -وإن كانت لائقة- سريع الخطى، ينزل من الإفريز دون أن يغير من

مشيته، ولكني رأيته مرتين كل ثلاث مرات يصعد الإفريز المقابل بقفزة قصيرة، كثير الشرود أثناء القيادة، فهو ينسى أن يعيد إشارة الدوران في سيارته بعد أن يتم دورانه، عاري الرأس دائمًا، وهيئته تدل على أنه متمكن من علمه.



كانت الأرقام التي دَوَّنها تارو صحيحة، وقد كان الدكتور ريو على بينة من ذلك، ولما تم عزل جثة البواب اتصل الدكتور -تليفونياً- بريشار ليسأله عن هذه الحمى التي تصيب أعلى الفخذين.

فقال ريشار:

- لست أدري شيئاً عنها. لقد تسببت في وفاة اثنين، مات أحدهما بعد ثمان وأربعين ساعة من إصابته، والثاني بعد ثلاثة أيام، وكنت قد تركت هذا الأخير ذات صباح، وقد بدت عليه كل مظاهر النقاهة.

فقال له ريو:

- أرجو إخطاري إذا صادف حالات أخرى من هذا القبيل.

ثم اتصل بأطباء آخرين، وقد دله هذا التحقيق الذي أجراه على حدوث نحو عشرين حالة خلال بضعة أيام، وكانت أغلبها قاتلة، وحينئذ طلب من ريشار -أمين عام نقابة الأطباء في وهران- أن يتخذ إجراء بعزل المرضى الجدد.

فأجابه ريشار قائلاً:

- ولكني لا أملك هذا الحق؛ إذ لا بد لذلك من صدور قرارات إدارية، ولكن ما الذي يجعلك تظن أن هذا المرض معد؟

- لا شيء يجعلني أظن ذلك، ولكن أعراضه تشير القلق.

ومع ذلك فقد وجد ريشار أنه ليس له الحق في اتخاذ إجراء كهذا، وأن كل ما يستطيع عمله هو أن يتحدث عنه إلى المدير.

وفي أثناء هذه المحادثات اكفهر الجو، ولم يأت صباح اليوم التالي لموت البواب حتى ظهر ضباب كثيف حجب السماء، وهطلت على المدينة أمطار كالسيول، ولكنها كانت قصيرة الأمد، وتلت هذه التغيرات المفاجئة حرارة مصحوبة بالأعاصير، كما أن البحر نفسه قد فقد لونه الأزرق القاتم، وبدأ تحت هذه السماء الغائمة ذا انعكاس فضي أو حديدي تؤذي العين رؤيته، وكانت حرارة الربيع مصحوبة بالرطوبة حتى جعلت الناس يهفون إلى حر الصيف اللافح، وقد خيم على المدينة -التي بنيت فوق هضبة على شكل قوقعة- نوع من الخمول الحزين، وراح كل من يقبعون وراء تلك الجدران الطويلة المتداعية، أو يجوسون خلال الشوارع ذات المعارض الزجاجية التي يعلوها التراب، أو يتكدسون في عربات الترام ذات اللون الأصفر القدر، يشعرون كما لو كانوا سجناء تحت هذه السماء. ولم يسعد بهذا الجو سوى مريض ريو الهرم الذي تغلب على ربوه، حتى كان يقول:

- إن هذا الجو اللافح مفيد لشعبيات الرئة.

والواقع أن هذا الجو كان لافحًا، ولكنه لم يكن أشد ولا أقل لافحًا من الحمى؛ لقد أصيبت المدينة بأجمعها بالحمى، هكذا على الأقل كان إحساس الدكتور ريو في ذلك الصباح الذي توجه فيه إلى شارع «فيديرب» ليحضر التحقيق في محاولة كوتار الانتحار، ولكن هذا

الإحساس كان يبدو له مجانبًا للصواب، وكان يعزوه إلى توتر أعصابه، وإلى الهموم التي كانت تحيطه من كل جانب، ورأى من الواجب أن يسرع بتنظيم أفكاره.

وعندما وصل لم يكن ضابط الشرطة قد حضر بعد، وكان جران ينتظر على بسطة السلم، فقررا أن يدخل حجرة بادي ذي بدء، وأن يتركا الباب مفتوحًا. وكان جران موظف البلدية يسكن غرفتين اثنتا تأثيثًا بسيطًا، ولم يكن فيهما ما يثير الملاحظة سوى رف من الخشب الأبيض وضعت عليه بعض المعاجم، وسبورة سوداء كتب عليها بخط قد أمّحى بعض الشيء، وإن كان لا يستعصي على القراءة «المرات المزهرة». وقد قرر جران أن كوتار قضى ليلة هادئة، ولكنه استيقظ في الصباح وهو يشكو من ألم في رأسه، وقد فقد كل نشاط، أما جران نفسه فكان يبدو متعبًا متوتر الأعصاب، وقد أخذ يذرع المكان ذهابًا وجيئة، ثم لا يني يفتح ملفًا كبيرًا موضوعًا على المنضدة، وملئيًا بأوراق مكتوبة باليد، لكي يعيد إغلاقه.

ومع ذلك فقد قص على الطبيب أنه لا يعرف كوتار إلا معرفة سطحية، ولكنه يظن أن لديه بعض المال، وكوتار في رأيه رجل غريب الأطوار؛ ولذا فقد وقفت علاقتهما مدة طويلة عند حد تبادل بعض التحيات على السلم.

- لم أتحدث معه إلا مرتين، فمنذ بضعة أيام سقطت مني علبة مليئة بالطباشير كنت أحملها معي إلى البيت، وكان بها بعض الطباشير الأحمر والأزرق، وفي هذه اللحظة خرج كوتار إلى السلم وساعدني في

جمعه، وسألني فيم أستعمل هذا الطباشير مختلف الألوان.

وحيثُذ شرح له جران أنه يحاول استرجاع معلوماته في اللاتينية التي نسي الكثير منها منذ عهد اليسييه، ثم قال موجهاً كلامه للطبيب:
- نعم، فقد أكدوا لي أنه ذو فائدة كبيرة في معرفة معاني الكلمات الفرنسية.

لقد كان إذن يكتب على سبورته كلمات لاتينية. كان يرسم أجزاء الكلمات التي تتغير مع التصريف باللون الأزرق، أما الأجزاء التي تبقى على حالها في التصريف فكان يكتبها باللون الأحمر، ثم واصل كلامه قائلاً:

- لست أدري ما إذا كان كوتار قد فهم ما أقول، ولكنه أبدى كثيرًا من الاهتمام، وطلب مني قطعة من الطباشير الأحمر، وقد أدهشني ذلك بعض الشيء، ولكن... لم يكن في إمكاني طبعًا أن أنكهن بأنه سيستخدمها في مشروعه.

وسأله ريو عن موضوع المحادثة الثانية، ولكن في هذه اللحظة حضر ضابط الشرطة يصحبه أمين أسرارهِ، وطلب أن يبدأ بسماع أقوال جران. ولاحظ الطبيب أن جران إذا تحدث عن كوتار لقبه دائماً «باليائس» وقد أطلق مرة على محاولته الانتحار عبارة «القرار الذي لا راد له». وقد استمر الرجلان يناقشانه أسباب الانتحار، وكان يبدو على جران كما لو كان يتحسس في اختيار ألفاظه، وتوقف الضابط عند عبارة «هموم شخصية» وسأل جران عما إذا لم يكن قد ظهر شيء في تصرفات كوتار يمكن منه الوصول إلى معرفة ما أسماه «بقراره».

- لقد طرق بابي أمس ليطلب بعض عيدان الثقاب، فأعطيته علبتي، وقد اعتذر لي قائلاً: «إن بين الجيران..» ثم أكد لي أنه سيعيد إليَّ علبتي، فطلبت منه أن يحتفظ بها.

ثم سأله الضابط عما إذا لم يكن قد لاحظ شيئاً غريباً في تصرفات كوتار، فقال:

- لقد بدا لي من الغريب أن سيماء كانت تدل على أنه يود إطالة حديثه معي، ولكنني كنت مشغولاً بالعمل.

ثم التفت إلى ريو، وأضاف قائلاً بشيء من الحرج:

- عمل شخصي.

وطلب الضابط رؤية المريض، ولكن ريو رأى من الأوفق أن يعد كوتار لهذه الزيارة أولاً. ولما دخل عليه في غرفته وجده لا يرتدي إلا ملابس داخلية ذات لون ضارب إلى الشبهة، وكان جالساً في سريره وعيناه في اتجاه الباب، ووجهه يعبر عن القلق، وقال:

- أهى الشرطة إذن؟

فقال ريو:

- نعم، ولكن لا تضررب. ما هي إلا بعض الشكليات، ثم يتركوك في سلام.

ولكن كوتار أجاب بأن هذا عبث في عبث، وأنه لا يحب الشرطة، فظهر على ريو شيء من التأفف، وقال:

- وأنا أيضاً لست متيماً بحبها، ولكن كل ما يطلب منك هو أن

تجيب بسرعة على ما يوجه إليك من أسئلة؛ لكي تنتهي المسألة إلى الأبد.

وسكت كوتار، وعاد الطبيب ناحية الباب، ولكن هذا الرجل القصير عاد فدعاه، ولما صار قريباً منه أمسك بيديه قائلاً:

- لا يصح أن يسيئوا إلى رجل مريض، رجل شفق نفسه، أليس كذلك يا دكتور؟

وظل ريو يتفحصه بدقة، ثم أكد له أن أحداً لم يفكر قط في ذلك، وأنه هنا لحمايته، فبدأ على كوتار شيء من الارتياح. ثم قام ريو بإدخال الضابط.

وقرئت شهادة جران على كوتار، وسأله الضابط عما إذا كان يستطيع أن يحدد أسباب فعلته، فأجاب -دون أن ينظر إليه- بأن تعبير «هموم شخصية» مناسب جداً، وألح عليه الضابط أن يذكر ما إذا كان في نيته إعادة هذه الفعلة، ولكن الانفعال بدا على كوتار، وأجاب بالنفي، وبأنه لا يطلب سوى أن يتركوه في سلام.

وقال الضابط بشيء من الحدة:

- ألفت نظرك إلى ذلك، أنت الآن تقلق سلام الآخرين.

ولكن ريو أوماً إليه بالألوان كلامه، فتوقف عند هذا الحد، واتجه إلى باب الخروج، وهو يتنهد ويقول:

- أنت تعلم أن لدينا مشاغل أخرى منذ أن بدأ الناس يتكلمون عن هذه الحمى.

ثم وجه كلامه للطبيب يسأله عما إذا كان الأمر جد خطير، فأجاب بأنه لا يدري.

فقال الضابط - خاتماً كلامه -:

- إن الوقت أزف، هذا كل ما في الأمر.

نعم، أغلب الظن أن الوقت قد أزف، فقد كان الأمر يزداد استفحالاً لدى مرور كل لحظة من النهار، وكان ريو يشعر بأن مخاوفه تزداد بعد كل زيارة يؤديها لمرضاه. وفي مساء اليوم نفسه، حدث في الحي الخارجي أن أخذ أحد جيران المريض الهرم في القىء، وراح يضغط على ثنتي فخذه، ويهذي، وكانت أورامه أشد من أورام البواب، وقد بدأ أحدهما يبعث التتن، ثم انفجر كما تنفجر الثمرة العطبة. ولما عاد ريو إلى منزله اتصل -تليفونياً- بمخزن أدوية المنطقة، ومما يذكر بهذه المناسبة أن ريو كان يكتفي بأن يسجل ملاحظاته الخاصة بالعمل في هذا التاريخ عبارة: «إجابة بالنفي».

وكان الناس قد أخذوا يدعونه إلى منازلهم في حالات مشابهة، فكان لا بد له من فتح الخرايج.

وكانت تكفي ضربة أو ضربتان متقاطعتان من مبضعه حتى يقذف الخراج بصديد ممزوج بالدم، وكان المرضى ينزفون وهم متباعدون الأطراف، ولكن البقع كانت لا تني عن الظهور على البطن وعلى السيقان، وكان الخراج الذي يكف عن الإفراز يعود فيتورم من جديد، وفي أغلب الأحيان كان المريض يموت في جو من الرائحة المروعة التي تفوح منه.

أما الصحافة التي طالما ثرثرت حول موضوع الفئران، فلم تذكر هذه الحمى بشيء، ذلك أن الفئران كانت تنفق في الطرقات، أما الناس فكانوا يموتون في منازلهم، والجرائد لا تهتم إلا بالشارع، وأما المديرية والبلدية فقد خامرهما الشك؛ ذلك أنه لم يكن يدور بذهن أحد أن يبدي اهتماماً ما دام كل طبيب لم ير إلا حالتين أو ثلاث حالات، ولكن كانت الكفاية كل الكفاية في أن يقوم أحد الناس بعملية جمع بسيطة، وقد جاءت نتيجة هذه العملية مزعجة، فقد تضاعفت حالات الوفاة مراراً في بضعة أيام، وبدا لمن كان يشغلهم هذا المرض الغريب أن الأمر يتعلق حتماً بوباء حقيقي، وكان هذا هو الوقت الذي اختاره كاستل لزيارة ريو، وكاستل زميل لريو، ويكبره كثيراً في السن.

وقال له:

- أنت تعرف طبعاً يا ريو ما هو هذا المرض؟

- إنني أنتظر نتيجة التحليلات.

- أما أنا فأعرف ما هو، ولست في حاجة إلى تحليلات، فقد قضيت شطراً من خدمتي في الصين، ثم رأيت بعض الحالات التي من هذا القبيل في باريس منذ نحو عشرين عاماً، ولكن لم يكن أحد يجرؤ على أن يطلق اسماً على هذه الحالات في ذلك الحين؛ فالرأي العام شيء مقدس، ويجب أن يتجنب حدوث أي زعر، أن يتجنب حدوث زعر بوجه خاص - ثم إنه - كما يقول أحد الزملاء - «هذا مستحيل! فقد اختفى هذا المرض من الغرب». نعم، الجميع يعرفون أنه اختفى ما عدا من ماتوا، وأنت أيضاً يا ريو تعرف ذلك، كما أعرفه أنا.

وأخذ ريو يفكر وهو ينظر من نافذة مكتبه إلى الأراضي الضحلة التي تحيط بالخليج بما فيها من حصى، وكانت السماء مغبرة اللون رغم زرقتها، ولم يكن يخفف من حدة هذه الغبرة سوى وجود المساء، وقال ريو:

- نعم يا كاستل، من الصعب تصديق هذا، ولكن يبدو واضحًا جليًا أنه الطاعون.

ونهض كاستل، واتجه نحو الباب. ثم ما لبث الطبيب العجوز أن قال:

- أنت تعرف ماذا سيقولون لنا، سيقولون: «إنه اختفى من بلاد المناطق المعتدلة منذ سنوات».

فأجاب ريو -وهو يهز كتفيه-:

- اختفى؟ ماذا يعني ذلك؟

- نعم، لا تنس أنه اختفى من باريس منذ حوالي عشرين عامًا.

- حسن. ولنأمل ألا تكون وطأته هنا أشد مما كانت هناك، ولكنه حقيقة أمر صعب التصديق.



كانت هذه أول مرة تُذكر فيها كلمة «الطاعون». والآن وقد وصلنا إلى هذه النقطة من القصة -التي نترك فيها برنار ريو ساهمًا خلف نافذته- يجدر بنا أن نسمح للراوي بأن يبرر شك الطبيب ودهشته؛ إذ إن وقع الأحداث على الطبيب كان هو نفسه وقعها على بقية المواطنين مع اختلاف في الدرجة، فالواقع أن الأوبئة من الأمور الشائعة، ولكن عندما ينزل الوباء على رؤوسنا يصعب علينا الاعتقاد بأنه وباء، وقد أصيب العالم بالطاعون مرات تقارب عدد المرات التي نكب فيها بالحرب، ومع ذلك فكلا الشرّين -الحرب والطاعون- يباغتان الناس على غير استعداد منهم لملاقاتهما.

لقد فوجئ ريو -كما فوجئ مواطنونا- بهذا الوباء، وعلى هذا النحو ينبغي لنا أن نفسر تردده، وعلى هذا النحو أيضًا يجب أن نفهم أنه كان موزعًا بين القلق واليقين؛ فعندما تندلع نيران الحرب يقول الناس: إنها لن تطول؛ لأن استمرارها ينم عن أشد الغباء، فالواقع أنه لا شيء أشد غباء من الحرب، ولكن هذا لا يمنع من أن يطول أمدّها؛ إذ الغباء من شأنه المثابرة، ويمكن أن نلمس ذلك بوضوح إذا ما صرفنا النظر قليلًا عن حصر تفكيرنا في أنفسنا، وإذن فقد كان مواطنونا في هذا الصدد كغيرهم من الناس، كان تفكيرهم محصورًا في أنفسهم، وبعبارة

أخرى كانوا عريقين في الإنسانية، أي لا يعتقدون في الأوبئة، فالوباء أكبر من الإنسان، ولذا يميل الناس إلى الاعتقاد بأنه ليس من أمور الواقع، وبأن المسألة لا تتعدى حلمًا مزعجًا لا يلبث أن ينتهي، ولكن الحلم لا ينقضي في كل الأحيان، ثم تتابع الأحلام المزعجة بعضها في إثر بعض، حتى ينقض الناس أنفسهم فيها - وفي مقدمتهم أصحاب الفلسفة الإنسانية - لأنهم لم يتخذوا للأمر حيطته، فمواطنونا لم يكونوا أشد من غيرهم وزرًا، كل ما في الأمر أنهم نسوا أن يتواضعوا، وأنهم ظنوا أن كل شيء لا يزال ممكنًا بالنسبة لهم، ومعنى هذا أن الأوبئة غير ممكنة الحدوث، فاستمروا في عقد الصفقات، وفي إعداد الرحلات، وفي اعتناق الآراء. كيف كان يمكنهم إذن أن يفكروا في الطاعون الذي يقضي على المستقبل والأسفار والمناقشات؟ كانوا يظنون أنفسهم أحرارًا، ولكن لا وجود للأحرار ما دام للأوبئة وجود.

وقال ظل الدكتور ريو يعتقد أن الخطر غير حقيقي بالنسبة له، حتى بعد أن اعترف أمام صديقه بأن حفنة من المرضى في نواح مختلفة من المدينة قد ماتوا منذ قليل بالطاعون دون سابق إنذار، كل ما في الأمر أنه إذا ما كان المرء طبييًا، فإنه يكون أقدر من غيره على تكوين فكرة عن الأمم، ويكون أوسع من غيره خيالًا، فلما نظر الدكتور ريو من النافذة إلى المدينة - التي لم يتغير فيها شيء - لم يكد يشعر إلا بشيء يسير من الامتعاض أمام المستقبل الذي يسمونه القلق، وأخذ يحاول أن يجمع في فكره ما يعرفه عن هذا المرض، وأخذت الأرقام تطفو في ذاكرته، وهو يقول في نفسه: إن المرات الثلاثين التي عرف فيها العالم

«الطاعون» قد أسفرت عن نحو مائة مليون من الموتى، ولكن ما قيمة هذه الملايين المائة من الموتى؟ فإن كل من ساهم في حرب لا يكاد يعرف ما هو الميت.

ولما لم تكن للإنسان الميت أي قيمة إلا إذا رأيناه ميتًا، فإن مائة مليون من الجثث المثورة في غضون التاريخ لا يعتبرون إلا بمثابة خيط من الدخان في خيالنا. وتذكر الطبيب طاعون القسطنطينية الذي أسفر عن عشرة آلاف ضحية في يوم واحد، كما يقول پروكوب، وعشرة آلاف شخص يقدرّون -على وجه التقريب- بخمسة أمثال عدد المتفرجين في إحدى دور السينما الكبيرة. فلتتصور -إذن- أن شخصًا قد جمع المتفرجين بعد خروجهم من خمس دور للسينما وقادهم إلى أحد ميادين المدينة، ثم جعل منهم كومة واحدة من الموتى؛ لكي نستطيع الحكم على الأمر بوضوح. ويمكننا أن نضع بعض الوجوه المعروفة فوق هذه الكومة التي تتكون من أشخاص مجهولين.

ولكن هذا بطبيعة الحال أمر مستحيل التنفيذ، ثم من منا يعرف عشرة آلاف وجه؟ وأيًا ما كان، فإن پروكوب وأمثاله لا يعرفون العدد، وقد حدث في كانتون -منذ سبعين عامًا- أن نفق أربعمئة ألف فأر بالطاعون قبل أن يدير الوباء وجهه نحو السكان، ولكن لم تكن هناك في سنة ١٨٧١ وسيلة لحصر عدد الفئران. كانت الإحصاءات تقريبية، بالجملة، وكانت فرص الوقوع في الخطأ مؤكدة، ومع ذلك فإنه إذا كان طول الفأر ثلاثين سنتيمترًا ووضعنا أربعين ألف فأر في صف أحدها تلو الآخر، أصبح طولها...

وأخذ صبر الطبيب في النفاد، فما كان ينبغي له أن ينساق وراء الأحداث، ذلك أن بضع حالات لا تعتبر وباء، ويكفي اتخاذ بعض الاحتياطات. ينبغي أن نتمسك بما تعلمناه عن أعراض هذا الوباء؛ الدهول، والانهيار، واحمرار الأعين، واتساح الفم، وآلام الرأس، والعقد، والعطش الشديد، والهديان، والبقع التي تنتشر على الجسم، والتمزق الداخلي، وفي نهاية كل هذا... في نهاية كل هذا، طرأت جملة في ذاكرة الدكتور ريو، جملة تضع خاتمة كل هذه الأعراض: «يصبح النبض ضعيفاً متقطعاً، وتحدث الوفاة فجأة إثر حركة بسيطة». نعم في نهاية كل هذا، يصبح المرء وكأنه علق بخيط رفيع، وكان ثلاثة أرباع الناس - وهذا هو الرقم الصحيح - ينتظرون بقلق شديد أن تصدر منهم تلك الحركة الصغيرة التي سوف تهوي بهم.

واستمر الطبيب ينظر من النافذة، كان يرى خلال زجاج النافذة سماء الربيع الرطبة من ناحية، ومن الناحية الأخرى تلك الكلمة التي ما زالت ترن في الغرفة: الطاعون.

ولم يكن لهذه الكلمة نفس المعنى الذي أراد العلم أن يضمناها إياه، ولكنها كانت تعني سلسلة طويلة من الصور الغريبة التي تتسق والمدينة التي يغلب عليها اللونان الأصفر والأشهب، تلك المدينة التي كانت في هذه الآونة متوسطة الازدحام، والصوت الذي ينبعث منها أقرب إلى الطنين منه إلى العجيج، بالاختصار تلك المدينة السعيدة، إذا كان من الممكن أن يكون الشيء سعيداً وكثيراً في وقت واحد.

كان اطمئنان المدينة وهدوءها وعدم اكترائها مما يباعد - بكل سهولة - بينها وبين الصور القديمة المعروفة للوباء؛ أثينا عندما اجتاحتها الطاعون وهجرتها العصافير، المدينة الصينية، وقد غصت بالمحتضرين في صمت، المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة في مرسيليا وهم يهيلون في الحفر البجث التي تقطر دمًا، مدينة بروفانس عندما بنوا فيها الجدار الكبير ليصد ريحه العاتية، يافا وما فيها من متسولين ذوي مناظر بشعة، الأسرّة الرطبة المتعفنة وقد التصقت بأرض مستشفى القسطنطينية، المرضى وهم يجرون بالخطم، وتلك المواكب التكرية من الأطباء ذوي الأقنعة إبان الطاعون الأسود، ووضع الأحياء في قبور ميلانو كل زوجين في قبر، عربات اليد وهي تحمل الموتى في مدينة لندن المذعورة، والأيام والليالي وقد غصت - في كل مكان وكل وقت - بصرخات الناس التي لا تنتهي. ولكن لم تكن كل هذه الصور قد وصلت بعد من القوة إلى الحد الذي يكفي للقضاء على الهدوء الذي ساد المدينة ذلك النهار، ومن الناحية الأخرى أخذ ضجيج الترام يرتفع فجأة من خلال النافذة مفندًا - في ثانية واحدة - كل قسوة وكل ألم، أما البحر الذي ربض في نهاية رقعة الشطرنج القاتمة التي تكونها المساكن، فكان هو وحده الذي يكشف عما يحويه العالم أبدًا من اضطراب وعدم استقرار.

وأخذ الدكتور ريو - وهو ينظر إلى الخليج - يفكر في الحرائق التي تحدث عنها لوكريس والتي كان الأثينيون يقيمونها تجاه البحر حيث كانوا يحملون إليها الموتى ليلاً؛ ولكن لما لم يكن ثمة مكان

لكل الجثث، كان الأحياء يتصارعون بالمشاعل ليتمكنوا من الحصول على مكان لمن كانوا أعزاء عليهم، مفضلين النضال الدامي على ترك ما معهم من جثث. ويمكننا أن نتخيل هذه النيران الحمراء أمام مياه البحر الهادئة الداكنة، ومعارك المشاعل في ليل يتطاير فيه الشرر، والدخان الكثيف المتصاعد إلى السماء التي ترعي كل هذا، ويمكننا أن نخشى... ولكن هذا الدور لم يكن ليصمد أمام صوت العقل. صحيح أن كلمة «طاعون» قد ذكرت منذ لحظة، وصحيح أنه في هذه الحالة نفسها انقضّ الوباء على ضحية أو ضحيتين وجندلهما.

ولكن هذا مما يستطاع إيقافه. وكل ما هنالك -مما ينبغي عمله- ينحصر في أن نعترف بوضوح بما يجب الاعتراف به، وأن نطرد الظلال غير المفيدة، ونتخذ الإجراءات المناسبة. وبعد ذلك لا بد أن يتوقف الطاعون؛ إذ إن الطاعون لا يمكن توهمه، أو يمكن توهمه بصورة خاطئة، فلو توقف -وهو الأمر الأقرب إلى الاحتمال- سار كل شيء على ما يرام، أما إذا كان الأمر عكس ذلك، فإن حقيقته ستعرف، ويعرف أيضًا ما إذا لم تكن هناك وسيلة للاستعداد له أولًا، ثم للقضاء عليه ثانيًا. وفتح الطبيب النافذة، وارتفع فجأة صخب المدينة، وأخذ يطرق سمعه صليل متقطع قصير لمنشار ميكانيكي في مصنع مجاور، وانتفض ريو مستيقظًا؛ فهذا العمل اليومي هو اليقين بعينه، أما ما دون ذلك فليس إلا خيوطًا واهية، وأحداثًا غير ذات قيمة لا يصح التوقف عندها، وأهم ما في الأمر أن يمارس كل إنسان مهنته بأمانة.

بينما كان الدكتور ريو غارقاً في تأملاته على هذا النحو، أعلن إليه
مقدم جوزيف جران.

وكان جوزيف جران الموظف بالبلدية كثير المشاغل، وبالرغم من
هذا كان يكلف من حين لآخر بالمعاونة في أعمال الإحصاء الخاصة
بالأحوال الشخصية للسكان، وقد ساقه ذلك إلى القيام بحصر الوفيات،
ولما كان بطبيعته خدوماً، فقد قبل أن يحضر بنفسه إلى ريو نسخة من
النتائج التي يصل إليها.

ورأى الطبيب جران يدخل مصحوباً بجاره كوتار، وكان الموظف
يلوّح بورقة في يده، وهو يصيح قائلاً:

- إن الأرقام في صعود يا دكتور، إحدى عشرة حالة وفاة في ثمان
وأربعين ساعة.

وحيا ريو كوتار، وسأله عن صحته، وشرع جران يشرح للطبيب
كيف أن كوتار أصر على شكر الطبيب، والاعتذار له عن المتاعب التي
سببها له، ولكن ريو كان مشغولاً بالنظر في صحيفة الإحصائيات.

ثم قال بعد قليل:

- قد يكون من الأفضل أن نقرر تسمية هذا المرض باسمه. لقد كنا
نتخبط حتى الآن، هيا معي فإني ذاهب إلى المعمل.

وقال جران، وهو يهبط السلم خلف الطيب:

- نعم، نعم. يجب تسمية الأشياء بأسمائها، ولكن ما هو هذا الاسم؟

- لا أستطيع أن أذكره لك، ولن يجديك هذا في شيء.

وابتسم الموظف قائلاً:

- أترى؟ إن الأمر ليس سهلاً.

واتجه الجميع إلى ميدان الأسلحة، حيث ظل كوتار لائئداً بالصمت، وكانت الشوارع قد بدأت تزدهم بالناس، وأخذ غروب بلدنا العابر ينسحب أمام جحافل الليل، وبدأت طلائع النجوم في الأفق الذي لم يزل واضحاً للبصر، وما هي إلا ثوان حتى أضيئت المصابيح فوق الشوارع فشملت السماء كلها بالظلام، وبدا ضجيج المناقشات وكأنه قد ازداد درجة عن ذي قبل.

ولما وصلوا إلى ركن من أركان ميدان الأسلحة، قال جران:

- إنني أسألك المَعذرة؛ إذ يجب أن أستقل الترام، فإن أمسياتي مقدسة عندي، وكما يقولون في بلدي: «لا ينبغي أبداً أن تُؤجل للغد».

وكان ريو كثيراً ما لاحظ أن جران -وهو من مواليد مونتليمار- يحب دائماً أن يستشهد بأمثال بلده، وأن يضيف إليها عبارات أخرى تافهة لا تنتمي لأي مكان مثل: «زمن الأحلام» أو «إضاءة سحرية».

وقال كوتار:

- هذا صحيح، فمن غير الممكن إخراجه من مسكنه بعد العشاء.

وسأله ريو عما إذا كان يعمل لحساب البلدية، فأجاب جران بالنفي قائلاً: إنه يعمل لحسابه هو.

فقال ريو -لمجرد أن يضيف شيئاً-:

- حسن. وهل هناك تقدم؟

- بطبيعة الحال؛ إذ إنني أعمل في ذلك منذ سنوات، ولكن إذا نظرنا للمسألة من ناحية أخرى، وجدنا أن النجاح ليس كبيراً.

وقال الطبيب وهو يوقف سيارته:

- ولكن ما هذا العمل؟

وتتمم جران بشيء ما، وهو يثبت قبعته المستديرة فوق أذنيه الكبيرتين.

وفهم ريو بشكل غامض جداً أن الأمر يتعلق بذهاب إحدى الشخصيات. وهنا كان الموظف قد غادرهما، وأخذ يسير بخطى سريعة قصيرة في شارع المارن، وعلى عتبة المعمل قال كوتار للطبيب: إنه يريد مقابلته ليطلب إليه النصيحة، فدعاه ريو -ويده تعبت في جيبيه بورقة الإحصائيات- إلى أن يأتي لاستشارته، ولكنه تنبه إلى أنه ذاهب في اليوم التالي إلى الحي الذي يسكنه، فاستدرك قائلاً: «إنه سيمر لرؤيته في نهاية فترة العصر».

ولاحظ الطبيب -وهو يغادر كوتار- أنه لا يزال يفكر في جران. تخيله وسط نوع من وباء الطاعون، ليس هذا الوباء الذي تمر به المدينة الآن؛ لأنه بكل تأكيد لن يكون ذا خطر، ولكن وسط وباء من تلك الأوبئة

الكبار التي عرفها التاريخ. «إنه من هذا النوع من الأشخاص الذين لا يمسون بسوء في مثل هذه الحالات». وتذكر أنه قرأ - في مكان ما - أن الطاعون لا يمس ذوي البنية الضعيفة بسوء، ولكنه - بصفة خاصة - يحطم ذوي البنية القوية، واستمر يفكر فيه، وقد رأى أن مظهره يوحي بشيء من الغموض.

والواقع أن «جوزيف جران» لا يبدو لأول وهلة أكثر من موظف في دار البلدية - كما تدل عليه هيئته - فهو طويل القامة، نحيل، ويبدو غارقاً في ملابسه التي يختارها دائماً فضفاضة متوهماً أنه بذلك يستطيع الانتفاع بها مدة أطول، وإذا كان يحتفظ للآن بكل أسنانه السفلى، فإنه على العكس من ذلك، قد فقد كل أسنان الفك العلوي، ومن شأن ابتسامته - التي ترفع شفته العليا - أن تجعل فمه يبدو كفتحة مظلمة، فإذا أضفنا إلى هذه الصورة ما يتسم به من هيئة تشبه هيئة رجل من رجال مدرسة اللاهوت، ومن السير بحذاء الجدران، والتسلل إلى البيوت، ورائحة البدرود والدخان، وكل ملامح التفاهة، عرفنا أننا لا نستطيع أن نتخيله إلا أمام أحد المكاتب منكباً على مراجعة تعريفات حمامات المدينة، أو منهمكاً في جمع عناصر تقرير حول الضريبة الجديدة المقررة على رفع القمامة المنزلية، يقوم أحد المحررين الشبان بإعداده؛ نعم لقد كان جران يبدو - حتى في عين من لم يوهبوا فطنة خاصة - كما لو كان قد خلق لكي يشغل وظيفة مساعد مؤقت في البلدية، حيث يعهد إليه بالأعمال الدقيقة والضرورية في آن واحد، ويتقاضى عليها أجراً قدره اثنان وستون فرنكاً في اليوم.

والواقع أن هذه هي الصفة التي يقول إنه ذكرها أمام كلمة «المؤهلات» في أوراق توظيفه، وكانوا قد وعدوه قبل هذا العمل منذ اثنين وعشرين عامًا -بعد فشله في الحصول على «الليسانس» بسبب قلة المال- بأن يجعلوا منه موظفًا مثبتًا بعد فترة وجيزة، وكان ذلك يتوقف على أن يقضي في منصبه فترة قصيرة يثبت فيها كفاءته في المسائل الدقيقة التي تُعرض لإدارة مدينتنا، وقد أكدوا له أنه لا بد سيصل إلى مركز محرر الذي يسمح له بالعيش في سعة. ومما لا شك فيه أنه لم يكن الطموح هو الذي دفع جوزيف جران إلى العمل، وكان هو نفسه يؤكد لنا ذلك بابتسامة حزينة، ولكنه كان شديد الرغبة في حياة مادية مستقرة، يصل إليها بوسائل شريفة، ومن ثم يمكنه القيام بالمشاغل المحببة إلى نفسه دون أن يتعرض لتأنيب الضمير، وإذا كان قد قبل العرض الذي عُرض عليه، فإنه لم يفعل ذلك إلا لأسباب مشرفة، بل ويمكننا أن نقول: إلا بدافع إخلاصه لمثل أعلى.

واستمر هذا الوضع المؤقت سنوات طويلة، وارتفع مستوى المعيشة بنسب لا حدود لها، وظل راتب جران -رغم بعض العلاوات- صغيرًا بشكل يصعب تصديقه. وقد شكا ذلك إلى ريو، ولكن يبدو أنه لم يكن يهتم بذلك أحد، وهنا تظهر غرابة أطوار جران، أو على الأقل إحدى علاماتها؛ فقد كان في إمكانه أن يطالب، لا بحقوق لم يكن هو نفسه متأكدًا منها، ولكن بما أُعطي من تأكيدات ووعود. ولكن رئيس المكتب الذي عينه كان قد مات منذ زمن طويل، ثم لم يكن هذا الموظف يذكر بدقة نص الألفاظ التي قيلت له في الوعد الذي أُعطي له،

أما السبب الأخير - وهو أهم الأسباب - فهو أن جوزيف جران كان لا يجد كلماته إلا بصعوبة.

كانت هذه هي السمة المميزة التي يبدو طابعها واضح المعالم على مواطننا هذا، كما لاحظ ريو، وكانت هي التي تمنعه من كتابة خطاب المطالبة الذي يفكر فيه، أو تحول بينه وبين القيام بالمساعي التي تتطلبها الظروف، فقد كان - على حد قوله - يحس أن شيئاً ما يمنعه من استعمال كلمة «حق» بصفة خاصة؛ لأنه لم يكن واثقاً من وجاهتها، أو كلمة «وعد» التي قد يفهم منها ضمناً أنه يطالب بحقه، ومن ثم تنم عن نوع من الجراءة لا يتفق والوظيفة المتواضعة التي يشغلها. ومن جهة أخرى كان يحرم على نفسه استعمال كلمات «التعطف» و«الرجاء» والاعتراف بالجميل، التي يرى أنها لا تتفق مع كرامته الشخصية، وهكذا ظل مواطننا يمارس وظيفته المغمورة تلك إلى سن متقدمة؛ لأنه لم يجد الكلمة المناسبة، هذا إلى أن جران قد لاحظ - على حد قوله للدكتور ريو - أن حالته المادية مضمونة؛ لأنه يكفيه في هذا الصدد أن يقيس احتياجاته على دخله، وهكذا رأى نفسه يعترف بصحة إحدى الكلمات المحببة إلى العمدة، وهو من كبار رجال الصناعة في مدينتنا، وتؤكد هذه الكلمة - بكل قوة - أنه في نهاية الأمر (وهو يدقق في إبراز هذه الكلمة التي تحمل كل ما في هذه الحجة من وزن) إنها إذن تؤكد نهاية الأمر، أنه لم يتأت لأحد أن يشاهد شخصاً يموت من الجوع، وأياً ما كان، فقد كان من شأن الحياة المتقشفة - شبه الصوفية

هذه التي يحياها جوزيف جران - أن حررته نهائياً من كل المشاغل التي من هذا القبيل، واستمر يبحث عن ألفاظه.

ويمكننا - على نحو ما - أن نقول: إن حياته كانت مثالية؛ فقد كان من أولئك الرجال النادرين في مدينتنا وفي غيرها من المدن، الذين لا تنقصهم شجاعة التصريح بمشاعرهم الطيبة. والواقع أن القليل الذي كان يدلي به عن ذات نفسه يشهد بما يمتاز به من طيبة وميول لا يمكن الاعتراف بها في أيامنا هذه؛ فلم يكن وجهه يحمر خجلاً عندما يقر أنه يحب أبناء أخته وأخته، وهم كل ما تبقى له من أقارب، وأنه يذهب لزيارتهم في فرنسا مرة كل عامين، ويعترف بأن ذكرى والديه - اللذين فقدهما وهو لا يزال صغيراً - تحز في نفسه، ولا يضيره أن يعترف بأنه يحب - أولاً وقبل كل شيء - أحد أجراس الحي الذي يسكنه، وهي تدق برقة حوالي الساعة الخامسة مساءً. ومع ذلك، فقد كانت كل كلمة يستعملها في التعبير عن هذه العواطف البسيطة تكلفه عناءً كبيراً، وكانت هذه الصعوبة هي أكثر ما عاناه من هموم، فكان يقول للدكتور:

- آه يا دكتور! كم يطيب لي أن أتعلم كيف أعبر عن نفسي.

وكان يكرر ذلك في كل مرة يقابل فيها ريو.

وفي هذا المساء، فهم ريو فجأة - وهو ينظر إلى هذا الموظف في انصرافه - ماذا يريد جران أن يقول، إنه يكتب ولا ريب كتاباً أو شيئاً من هذا القبيل. وقد اطمأن ريو إلى هذه الفكرة حتى عندما وصل إلى المعمل، لقد كان يعلم أنها فكرة سخيفة، ولكن لم يكن في استطاعته

أن يصدق أن الطاعون يستطيع أن يحط رحاله في مدينة يوجد فيها
موظفون صغارًا يمارسون هوايات مشرفة، ذلك أنه لم يستطع أن يتخيل
وجود مكان لهذه الهوايات وسط الطاعون، ومن ثم فقد أصدر حكمه
بأنه لا يمكن للطاعون - من الوجهة العملية - أن يكون له مستقبل بين
مواطنينا.



وفي اليوم التالي تمكن ريو -بفضل إلحاحه الذي قيل إنه في غير محله- من تشكيل لجنة صحية بالمديرية، وقال ريشار:

- صحيح أن الشعب في حالة قلق، ومن شأن الشرثرة أن تحيط كل شيء بالتهويل، وقد قال لي المدير: «للتصرفوا بسرعة -إذا أردتم- ولكن في صمت»، وذلك بالرغم من اقتناعه بأن المسألة لا تتعدى كونها إنذارًا كاذبًا.

وبينما كان برنار ريو يصطحب كاستل في عربته قاصدين المديرية، قال له هذا الأخير:

- أتعرف أن هذا المركز خال من المصل؟
- أعرف ذلك، وقد اتصلت تليفونيًا بالمخزن، والمدير واقع في حيرة. يجب إحضار المصل من باريس.

- أتعشم ألا يطول ذلك.

وواصل ريو كلامه قائلاً:

- لقد أبرقت فعلاً.

وكان المدير لطيفًا، ولكنه كان بادي العصبية، فقال:

- لنبدأ في الموضوع أيها السادة؛ هل أُلخص لكم الموقف؟
ولكن كان من رأي ريشار ألا فائدة من ذلك، فالأطباء يعرفون
الموقف، ولم تبق إلا معرفة الإجراءات التي ينبغي اتخاذها.
وأجاب كاستل العجوز بصراحة مذهلة قائلاً:

- المسألة تنحصر في معرفة ما إذا كان المرض هو الطاعون أم لا.
وصاح طبيبان أو ثلاثة في دهشة. أما الآخرون فبدأ عليهم التردد،
وانتفض المدير في مكانه، والتفت بحركة آلية نحو الباب كما لو كان
يريد أن يتأكد من منع هذا الخبر الهائل من التسرب إلى الممرات،
وأعلن ريشار أنه لا ينبغي الاستسلام للذعر، فالمسألة تتعلق بحمي ذات
مضاعفات على شكل عقد، هذا هو كل ما يمكن إعلانه. أما الفروض،
فإنها دائماً أخطر الأمور، سواء في العلم أو في الحياة. وأخذ كاستل
العجوز يمزغ شاربهِ الأصفر في هدوء، ورفع عينيه الغائمتين نحو ريو،
ثم عاد فوجّه إلى الحضور نظرة ملؤها حسن النية، ونبههم إلى أنه يعرف
جيداً أنه الطاعون، ولكن الاعتراف بذلك رسمياً يضطرهم طبعاً إلى
اتخاذ إجراءات لا تعرف الرحمة، وهو يعرف أيضاً أن هذا هو ما يضطر
زملاءه إلى التراجع، لذلك يراه يود -يكيلاً يزعمهم- أن يقر بأنه ليس
الطاعون، وهنا ثار المدير، وأعلن أن هذه طريقة خاطئة في التفكير.

وقال كاستل:

- ليس المهم أن تكون هذه الطريقة في التفكير حسنة، ولكن المهم
أن تبعث على التأمل.

ولما كان ريو قد لزم الصمت، فقد طلبوا منه أن يدلي برأيه، فقال:
- إنها حمى تشبه التيفود، ولكنها مصحوبة بعقد وقيء، وقد فتحت
بعض العقد، وأجريت بعض تحليلات يرى المعمل أنها تحتوي على
ميكروب الطاعون، ومع ذلك يجب أن نكون أكثر دقة، فنقول: إن هناك
بعض خلافاً نوعية في هذا الميكروب تجعله لا يتفق تماماً والأوصاف
التقليدية لميكروب الطاعون.

وانبرى ريشار يؤكد أن هذه النتيجة تبعث على التردد، وأنه ينبغي
على الأقل الانتظار حتى ظهور النتيجة الإحصائية لمجموعة التحليلات
التي بدأ فيها منذ أيام.

وقال ريو بعد فترة صمت وجيزة:

- إذا كان الميكروب يصل في ظرف ثلاثة أيام إلى مضاعفة حجم
الطحال إلى أربعة أمثاله، وأن يجعل العقد تصبح في حجم البرتقالة
وقوام العصيدة، فإن هذا بالذات يحرم علينا أن نتردد؛ فبؤرات العدوى
في ازدياد مطرد، وإذا لم نوقف المرض بعد أن رأينا هذه الصورة التي
ينتشر بها، فإنه قد يقضي على نصف سكان المدينة قبل مضي شهرين،
ومن ثم فليس المهم أن نسميه طاعوناً أو حمى، إنما المهم ألا نسمح له
بالقضاء على نصف سكان المدينة.

وكان من رأي ريشار ألا نكون متطرفين في تشاؤمنا، ولا سيما أنه
لم يقم الدليل بعد على أنه مرض معد، ما دام أهل المريض لم يصابوا
بسوء.

ولكن ريو لفت نظر الجميع إلى أن آخرين قد ماتوا، وأن العدوى لم تكن قط أمراً مطلقاً، وإلا استمرت في صعود لا ينتهي حتى يقضي المرض على جميع السكان بشكل صاعق، والمسألة لا علاقة لها بالتشاؤم، وإنما ينبغي اتخاذ الإجراءات اللازمة.

ومع ذلك فقد ظن ريشار أنه يلخص الموقف عندما ذكر الحضور بأنه ينبغي -لإيقاف هذا المرض، في حالة ما إذا لم يتوقف من تلقاء نفسه- أن نطبق الإجراءات الوقائية الصارمة التي ينص عليها القانون، وأنه لا يمكن تطبيقها إلا إذا اعترفنا بأنه الطاعون، ولما لم يكونوا متأكدين من ذلك، فإن الأمر يتطلب بعض التفكير.

والح ريو قائلاً:

- إن المسألة لا تنحصر في معرفة ما إذا كانت الإجراءات التي ينص عليها القانون إجراءات صارمة، ولكن في معرفة ما إذا كانت ضرورية لحماية نصف سكان المدينة من الهلاك، أما ما عدا ذلك فمسألة إدارية، وقد نص دستورنا بالذات على وجود مدير للفصل في هذه المسائل.

وقال المدير:

- هذا لا شك فيه، ولكن المسألة تحتاج إلى أن تعترفوا -رسمياً- بأن الأمر يتعلق بوباء الطاعون.

فقال ريو:

- إذا لم نعترف بذلك، فسوف نجازف بقتل نصف سكان المدينة. وتدخل ريشار -بشيء من الحدة- قائلاً:

- الحقيقة أن الزميل يعتقد أنه الطاعون، ووصفه لأعراض المرض
يثبت ذلك.

وأجاب ريو: بأنه لم يصف أعراض المرض، وإنما وصف ما رآه،
وما رآه هو الأورام والبُقع والحمى المصحوبة بالهذيان التي تقضي
على المريض في ثمان وأربعين ساعة. وسأل السيد ريشار عما إذا كان
يستطيع أن يأخذ على عاتقه مسؤولية التأكد بأن الوباء سوف يتوقف
دون إجراءات وقائية شديدة؟

وتردد ريشار بعض الشيء، ثم نظر إلى ريو، وقال:

- قل لي رأيك بإخلاص، هل أنت متأكد من أنه الطاعون؟

وأجاب ريو:

- إنك لم تحسن عرض المسألة، فإنها ليست مسألة ألفاظ، بل
مسألة وقت.

وقال المدير:

- رأيك إذن أنه يجب تطبيق الإجراءات الوقائية التي تتخذ في حالة
الطاعون، حتى لو لم يكن الأمر يتعلق بالطاعون.

- لو أصررتم على أن يكون لي رأي ما، فهذا هو رأيي بالفعل.

وأخذ الأطباء في التشاور، ثم قال ريشار:

- ينبغي أن نأخذ على عاتقنا مسؤولية التصرف مع افتراض أن
المرض هو الطاعون.

وقد وافق الجميع على هذه الصيغة بحرارة.

وقال ريشار لريو:

- أهذا هو رأيك أنت أيضًا، أيها الزميل العزيز؟

فقال ريو:

- لا تهمني الصيغة في شيء، قولوا -إذا شئتم-: إنه لا ينبغي لنا
التصرف على أساس أن نصف سكان المدينة غير مهدد بالموت؛ لأنه
في هذه الحالة سيموت حتمًا.

وخرج ريو من الاجتماع وسط الامتعاض العام، وبعد قليل كان
يتجول في الحي الخارجي الذي تتصاعد منه رائحة الشواء والبول،
فالتفت نحوه امرأة تصرخ صراخًا يائسًا، وقد التهبت أصول فخذيها.



وفي اليوم التالي للاجتماع قفزت الحمى قفزة أخرى صغيرة، واضطرت الصحف نفسها إلى التحدث عنها، ولكن بطريقة خفيفة، حيث اكتفت ببعض الإشارات، وفي اليوم الذي تلاه لاحظ ريو أن البلدية قد ألصقت بعض الإعلانات البيضاء في أقل الأماكن ظهورًا بالمدينة، وكان من الصعب أن يوجد في هذه الإعلانات أي دليل على أن السلطات قد بدأت تواجه الأمر، فلم تكن الإجراءات صارمة، ويبدو أنهم قد ضحوا بالكثير في سبيل عدم إزعاج الرأي العام. والواقع أن الإعلان كان ينص على أنه قد ظهرت في مدينة وهران بعض حالات من حمى خبيثة لم يمكن بعد التأكد من أنها معدية، وهذه الحالات ليست واضحة المعالم إلى الحد الذي يجعلها مثيرة للقلق، ومما لا شك فيه أن السكان سوف يظلون محتفظين بشباتهم، ثم استمر الإعلان يقول.. ومع ذلك، فقد اتخذ المدير بعض الإجراءات الوقائية من باب الاحتياط، ذلك الأمر الذي يسهل على الجميع فهمه، وإذا فُهمت الإجراءات جيدًا، ونُفذت كما ينبغي، كانت كفيلة بأن تقضي على كل ما يهدد بخطر الوباء، ومعنى ذلك أن المدير لا يشك لحظة واحدة في أنه سيلقى كل معونة خالصة من كل من هم تحت إدارته.

ثم أضاف الإعلان أنه ستتخذ بعض الإجراءات الجماعية، ومن بينها إبادة الفئران بتمرير غاز سام في المجاري، وكذلك بمراقبة أنابيب المياه مراقبة دقيقة. وأوصى السكان بمراعاة النظافة التامة، ودعا من يحملون براغيث إلى التوجه إلى مستوصفات البلدية، ومن جهة أخرى نبه على الأسر بضرورة التبليغ عن الحالات التي يشخصها الأطباء، وبالموافقة على عزل مرضاها في قاعات العزل الخاصة في المستشفيات، وقد أعدت هذه القاعات بحيث تعالج المرضى في أقل وقت ممكن، مع توفيرها لهم أكبر سقط من فرص الشفاء. وقد اشتمل الإعلان على عدة مواد إضافية تنص على التطهير الإجمالي لغرف المرضى، ووسائل النقل التي استعملوها، وفيما عدا ذلك اكتفى الإعلان بتوصية أقارب المريض بأن يضعوا أنفسهم تحت الرقابة الصحية.

أشاح الدكتور ريو بوجهه فجأة عن الإعلان، وسار في طريق كليته، حيث كان جوزيف جران في انتظاره، وما إن رآه حتى رفع ذراعيه مرة أخرى، وقال ريو:

- نعم، الأرقام في صعود. هذا ما أعرفه.

فقد قضى المرض خلال الليلة الماضية على نحو عشرة في المدينة، ثم قال الطبيب لجران: إنه قد يراه هذا المساء؛ لأنه سيذهب لزيارة كوتار.

وأجاب جران:

- إنك على حق، ستكون زيارتك مفيدة له؛ لأنني أُلح عليه بعض التغيير.

- وكيف ذلك؟

- لقد أصبح مهذبًا.

- ألم يكن كذلك من قبل؟

وتردد جران في الإجابة، فلم يكن في وسعه أن يقول: إنه كان عديم التهذيب، فمثل هذا التعبير لن يكون صحيحًا؛ إذ إنه كان رجلًا منطويًا على نفسه، كتومًا، غير بعيد الشبه من الخنزير البري، كانت كل حياته لا تتعدى غرفته، ومطعمًا متواضعًا، وبعض المهمات الغامضة. كانت هذه هي كل حياة كوتار، أما من الناحية الرسمية، فقد كان ممثلًا لبعض شركات النبذ، والمشروبات الروحية، وكان يقوم من حين لآخر بزيارة شخصين أو ثلاثة أشخاص لا بد أنهم كانوا عملاءه، وفي المساء كان يذهب أحيانًا إلى السينما المواجهة للمنزل، وقد لاحظ موظف البلدية أن كوتار يفضل أفلام العصابات. وأيًا ما كان، فإن ممثل شركات النبذ هذا كان دائمًا مثلاً لحب العزلة والحذر.

ويرى جران الآن أن كل هذا قد تغير، وراح يقول:

- لست أدري كيف أعبر عن ذلك، ولكن يخيّل إليّ أنه يحاول استمالة الناس إليه، وأن يجذب الجميع إلى صفه، فهو كثيرًا ما يتحدث إليّ، ويعرض عليّ أن أخرج معه، وفي معظم الحالات لا أجدني أقوى على الرفض؛ على أي حال إن أمره يهمّني، ألم أنقذ له حياته؟

لم يتلق كوتار زيارة من أحد منذ محاولته الانتحار، وقد دأب على محاولة اجتذاب ود الناس في الطرقات وفي المحلات التجارية، فلم

يحدث أن تحدث أحد مع البدالين بكل هذه الرقة، ولا أبدى مثل هذا الاهتمام بالإنصات إلى بائعة السجائر.

ثم قال جران مبدئياً بعض الملاحظات:

- إن بائعة السجائر هذه أفعى حقيقية، وقد حذرت كوتار منها، ولكنه قال لي: إنني مخطئ، وإن لها نواحي طيبة، وكل ما في الأمر أنه يجب أن نعرف كيف نكتشف هذه النواحي.

وقد سحب كوتار جران مرتين أو ثلاث مرات إلى المطاعم والمقاهي الفاخرة بالمدينة، والتي كان قد بدأ يرتادها بالفعل، وكان يقول:

- إن المرء يكون على راحة في هذه الأماكن، ثم إنه يجد نفسه فيها في صحبة طيبة.

وقد لاحظ جران الاهتمام الخاص الذي يغدقه خدم هذه المحال على مندوب شركات النبيذ، وعرف أن سبب ذلك يرجع إلى العطاء السخي الذي يغدقه هو عليهم. وكان من الواضح أن كوتار شديد الحساسية لهذه المجاملات التي كانوا يردونها له، فذات يوم صاحبه رئيس الخدم حتى الباب، وساعده على ارتداء معطفه، فقال كوتار لجران:

- إنه شخص طيب، ويمكن أن يدلي بشهادته.

- يدلي بشهادته عن ماذا؟

وبدا على كوتار التردد، ثم قال:

- عن.. عن أنني لست رجلاً شريراً.

هذا إلى أنه كانت له بعض النزوات، ففي ذات يوم عامله البديل بلطف أقل من المعتاد، فعاد إلى منزله في حالة ثورة لا حد لها، وأخذ يردد قوله:

- لقد انحاز للآخرين هذا الوغد.

- من هم الآخرون؟

- جميع الآخرين.

بل لقد شهد جران مشهداً مثيراً من هذا القبيل عند بائعة السجائر، فبينما كان الجميع منهمكين في الحديث، تكلمت المرأة عن حادث اعتقال كان له دوي في مدينة الجزائر منذ قليل، وكان الأمر يتعلق بموظف تجاري صغير قتل عربياً على شاطئ البحر، وعقبت البائعة بقولها:

- لو أنهم وضعوا هؤلاء المجرمين جميعاً في السجن، لاستطاع الأشراف أن يتنفسوا الصعداء.

ولكنها اضطرت إلى قطع كلامها أمام اضطراب كوتار المفاجئ، فقد قذف بنفسه خارج الحانوت دون أن يفوه بكلمة استئذان، وظل جران والبائعة واقفين يحركان أذرعهما من الدهشة.

وبعد ذلك لفت جران نظر ريو إلى تغيرات أخرى طرأت على أخلاق كوتار؛ فقد كان من معتنقي الأفكار التحررية المتطرفة، وكانت كلمته المفضلة: «الكبار يأكلون الصغار دائماً»، مما يبرهن على ذلك، ولكنه منذ بعض الوقت لم يعد يشتري إلا جريدة وهران ذات الآراء

المتزنة، وقد لا يكون المرء مخطئاً إذا ادعى أنه كان يعتمد قراءتها في الأماكن العامة، بل لقد حدث ذات مرة، بعد بضعة أيام من تماثله للشفاء، أن طلب من جران -وقد كان في طريقه إلى مكتب البريد- أن يصدر له إذن بريد بمائة فرنك تعود أن يرسلها كل شهر إلى أخت له تسكن في مكان ناء، ولكن لم يكد جران يبتعد قليلاً، حتى قال له كوتار: - أرسل لها مائتي فرنك، ستكون هذه مفاجأة لطيفة لها، فهي تعتقد أنني لا أفكر فيها مطلقاً، ولكن الحقيقة أنني أحبها كثيراً.

وأخيراً اتفق أن حدثت بينه وبين جران محادثة غريبة، واضطر هذا الأخير إلى أن يجيب عن أسئلته المرتابة بأن لديه عملاً يشغله كل مساء. فقال كوتار:

- حسن، هل تؤلف كتاباً؟

- إذا شئت، ولكنه أمر أكثر تعقيداً من ذلك.

فصاح كوتار قائلاً:

- آه، كم أتمنى أن أحذو حذوك.

وبدت الدهشة على جران، فقال كوتار متلعثماً: إنه إذا كان المرء فنانياً، فإنه يجد في هذا علاجاً لكثير من المشاكل.

وسأله جران:

- لماذا؟

- لأن الفنان له من الحقوق أكثر مما لغيره، كل الناس يعرفون ذلك، فهم يتسامحون معه كثيراً.

وقال ريو لجران في صبيحة يوم الإعلانات:

- لا بد أن قصة الفئران قد أدارت له رأسه كما فعلت بكثيرين غيره،
هذا كل ما في الأمر، أو قد يكون خائفاً من الحمى.
وأجاب جران:

- لا أظن ذلك يا دكتور، ولو طلبت إليّ رأيي..

وفي هذه الأثناء مرت عربة إبادة الفئران تحت النافذة، وهي تحدث
ضجة شديدة في سيرها السريع، وصمت ريو حتى ذهبَت الضجة، وصار
من الممكن سماع ما يقول، فطلب -وهو شارد الذهن- من موظف
البلدية أن يدلي إليه برأيه، ونظر إليه الأخير نظرة كلها جد، ثم قال:
- إنه رجل يخفي أمراً شديداً الوطأة على ضميره.

ورفع الطبيب كتفيه باستخفاف، فقد كانت هناك مسائل أخرى أكثر
أهمية -على حد تعبير ضابط الشرطة-. وفي فترة ما بعد الظهر اجتمع
ريو بكاستل، ولم تكن الأمصال قد وصلت، فسأله ريو:
- ولكن هل ستكون هذه الأمصال ذات جدوى؟ إن الميكروب
غريب.

وأجاب كاستل:

- أوه! إنني أخالفك في هذا الرأي؛ فهذه الحيوانات تبدو غريبة،
ولكنها كلها ذات عنصر واحد في جوهر الأمر.
- هذا محض افتراض، ولكننا في الواقع لا نعرف عنها شيئاً.
- إنه بكل تأكيد محض افتراض، ولكن الناس جميعاً يفترضونه.

وظل الطبيب يشعر طيلة ذلك اليوم بأن الدوار الخفيف الذي ينتابه كلما فكر في الطاعون يزداد حدة، وأخيرًا أدرك أنه خائف، فدخل مرتين إحدى المقاهي التي تعج بالناس، فقد كان يشعر -مثل كوتار- بالحاجة إلى الاقتراب من الناس، والشعور بدفئهم البشري، وكان ريو يجد أن هذا نوع من الغباء، ولكنه كان يساعده على ألا ينسى أنه وعد المندوب بالزيارة.

وفي المساء وجد الطبيب كوتار أمام مائدة طعامه، ولاحظ عند دخوله وجود قصة بوليسية على المائدة، ولكن المساء كان يتقدم، وقد غدا من العسير متابعة القراءة وسط الظلام المتكاثف، فلا بد أنه كان قد بدأ منذ لحظة يستسلم لتأملاته في الضوء الخافت. وسأله ريو عن حاله، فأجاب بلسان يتلعثم -وهو يجلس- بأن حاله على ما يرام، ويمكن أن يستمر كذلك لو تأكد من أن أحدًا لم يعد يهتم به.

ورد عليه ريو: بأن المرء لا يمكنه أن يعيش دائمًا بمفرده، فقال كوتار:

- ليس هذا ما أعني، إنني أتحدث عن أولئك الذين يفكرون فيك ليسيتوا إليك.

ولم يجب ريو بشيء، فتابع كوتار كلامه قائلاً:

- تأكد جيدًا أن حالتي ليست من هذا النوع، فقد كنت أقرأ هذه القصة.. إنها تدور حول شخص بائس قبضوا عليه ذات صباح دون سابق إنذار، كان هناك من يهتم بأمره دون أن يدري، كانوا يتكلمون عنه في المكاتب، ويسجلون اسمه على الجوازات، أتظن أن هذا عدل؟

أتظن أن من حقهم أن يتصرفوا هذا التصرف مع إنسان؟

فقال ريو:

- الأمر يتوقف على أشياء كثيرة؛ فلو نظرنا له من إحدى نواحيه، لوجدنا أنه لا يملك أحد هذا الحق إطلاقاً، ولكن كل هذه أمور ثانوية، ولا ينبغي أن تسرف -هكذا- في حبس نفسك، بل يجب عليك أن تخرج.

فبدأ الامتناع على كوتار، وقال: إنه لا يفعل إلا هذا، ومن الممكن أن يشهد له الحي بأجمعه، بل إن المعارف لا تنقصه حتى خارج الحي، ثم تساءل:

- أتعرف السيد ريجو المهندس؟ إنه من أصدقائي.



وخيم الظلام على الغرفة أكثر من ذي قبل، وازدحم شارع الضاحية، ثم رنت صيحة ارتياح وتحية لحظة إضاءة المصابيح، وتوجه ريو إلى الشرفة، وتبعه كوتار. وكما يحدث كل مساء في مدينتنا، هبت من الأحياء المحيطة نسمة خفيفة تحمل أصواتاً هامسة، ورائحة اللحم المشوي، وذلك الطنين المرح الشدي، طنين الحرية الذي يعم الشارع -بالتدريج- بعد أن يغص بالشباب الصاحب المرح.

وكان الليل، وصيحات السفن البعيدة عن مدى البصر، والطنين الذي ينبعث من البحر ومن الجماهير المتلاطمة، كانت هذه الساعة -التي يعرفها ريو حق المعرفة، وكان يحبها فيما مضى- تبدو له الآن خانقة بسبب كل ما كان يعرفه.

وقال لكوتار:

- هل يمكن أن نضيء النور؟

وعندما أضيء النور، أخذ الرجل القصير ينظر إليه بأهدابه المهتزة،

وقال:

- قل لي يا دكتور... لو انتابني المرض، هل تقبلني في قسمك

بالمستشفى؟

- ولم لا؟

وهنا سأله كوتار عما إذا كان قد حدث من قبل أن قبض على أحد في عيادة أو في مستشفى، وأجاب ريو بأن ذلك قد حدث، ولكن كل شيء يتوقف على حالة المريض، فقال كوتار:

- إنني أثق فيك.

ثم سأله عما إذا كان يقبل أن يوصله إلى المدينة بسيارته. ولما صارا في قلب المدينة، كانت الشوارع أقل ازدحامًا، والأفراد أقل انتشارًا، وكان بعض الأطفال ما زالوا يلهون أمام أبواب بيوتهم. وأوقف الطبيب السيارة في المكان الذي طلبه كوتار أمام جمع من هؤلاء الأطفال الذين كانوا يلعبون «الحجلة»، ويتصايحون، ولكن كان من بينهم طفل ذو شعر أسود ملزج ومفرق مستقيم، ووجه قدر، أخذ يسلط نحو ريو بعض النظرات من عينيه الفاتحتين المخيفتين، وأشاح الطبيب بنظره عنه، وعندما نزل كوتار من السيارة، صافح الطبيب وهو واقف على الإفريز، وكان يتكلم بصوت أجش محتبس، وقد نظر خلفه مرتين أو ثلاث، وقال:

- إن الناس يتكلمون عن وجود وباء، هل هذا صحيح يا دكتور؟

فقال ريو:

- الناس يتكلمون دائمًا، هذا أمر طبيعي.

- عندك حق، ولكن إذا مات منا عشرة فستكون نهاية العالم، وليس هذا هو ما ينبغي لنا.

وكان محرك السيارة يواصل أزيزه، وقد وضع ريو يده على ضابط السرعة، ثم نظر من جديد إلى الطفل الذي لم يكن قد كف عن تفحصه بنظراته الهادئة، ثم حدث فجأة دون مقدمات أن ابتسم له الطفل ابتسامة عريضة.

وقال ريو لكوتار -وهو يتسم للطفل-:

- ماذا إذن ينبغي لنا؟

وتشبث كوتار بباب السيارة، وصاح بصوت مليء بالدموع والهلع قائلاً قبل أن ينصرف:

- زلزال، زلزال حقيقي.

ولم يحدث زلزال، ومر اليوم التالي على ريو، وهو يذرع أركان المدينة الأربعة، ويتفاوض مع أسر المرضى، بل يناقش المرضى أنفسهم، ولم يشعر يوماً بثقل مهنته كما شعر بها هذا اليوم، كان المرضى -حتى الآن- يسهلون له مهمته، كانوا يركنون إليه، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يجدهم فيها الطبيب مترددين منطوين على مرضهم بنوع من الدهشة المصحوبة بالريبة. ولم يكن الطبيب قد اعتاد بعد هذا النوع من الكفاح. وفي نحو الساعة العاشرة مساءً أوقف سيارته أمام باب العجوز المريض بالربو، والذي كان آخر من يزوره، وهنا لم يستطع ريو أن ينتزع نفسه من مقعده إلا بمشقة كبيرة، وقد تباطأ في الدخول متشاعلاً برؤية الشارع المظلم، والنجوم التي تظهر وتختفي على صفحة السماء المظلمة، وكان المريض الهرم جالساً في سريره، ويبدو عليه أنه يتنفس بأسهل من ذي قبل، وقد شغل نفسه بعد حبات البازلاء التي راح

ينقلها من قدر إلى آخر، واستقبل الطبيب هاشاً، ثم سأله:

- هل هي الكوليرا يا دكتور؟

- من قال لك هذا؟

- الجريدة، والراديو أيضاً أذاع هذا النبأ.

- لا، ليست الكوليرا!

فقال العجوز باضطراب متزايد:

- مهما يكن الأمر، فإن آلامهم هائلة، هؤلاء المرضى!

وأجاب الطبيب:

- لا تصدق ما يقال.

ولما انتهى ريو من فحص المريض جلس وسط قاعة الطعام البادية
الفقر. نعم، لقد كان خائفاً؛ فهو يعلم أنه يوجد في هذا الحي نفسه نحو
عشرة من المرضى الذين ينتظرون زيارته في صباح اليوم التالي، وقد
انحنوا على ما بهم من عقد وأورام؛ وقد أتى شق الأورام ببعض النتائج
الطبية في حالتين، أو ثلاث حالات فقط، ولكن لم يكن هناك حل آخر
في معظم الحالات غير المستشفى، وكان يعرف ماذا يعني المستشفى
بالنسبة للفقراء، فقد قالت له زوجة أحد المرضى: «لا أريد أن يكون
موضعاً لتجاربهم». نعم، لن يكون موضعاً لتجاربهم، ولكنه سيموت،
هذا هو كل ما هنالك، ذلك أن الإجراءات التي اتخذت لم تكن كافية،
وقد كان ذلك أمراً واضحاً كل الوضوح، أما عن القاعات التي قالوا
عنها: «إنها جهزت تجهيزاً خاصاً»، فقد كان يعرف كل شيء عنها؛ إنها

تنحصر في جناحين أخرج منهما المرضى السابقون بسرعة، وسدت نوافذهما، وأحيطا بنطاق وقائي، وإذا لم يتوقف الوباء من تلقاء نفسه، فإنه لن يكون لهذه الإجراءات التي تخيلتها الإدارة أي أثر في قهره.

وقد ظلت البلاغات الرسمية متفائلة حتى المساء، وفي صباح اليوم التالي أعلنت وكالة «رانسدوك» أن الإجراءات التي اتخذها المديرية قد تلقاها الناس بحسن فهم، وأن ثلاثين حالة جديدة من حالات المرض قد ظهرت، وتحدث كاستل إلى ريو في التليفون سائلاً:

- كم سريراً يوجد بجناحي المستشفى؟

- ثمانون.

- وهناك في المدينة أكثر من ثلاثين مريضاً بطبيعة الحال؟

- هناك أولئك الذين يملكهم الخوف، أما الباقون - وهم الأكثر عدداً - فلم يمهلهم المرض.

- وعمليات الدفن؟ أليست موضوعة تحت الرقابة؟

- كلا، وقد كلمت ريشار في التليفون، وأفهمته أنه لا بد من اتخاذ إجراءات كاملة، بدلاً من الجمل الفارغة، وأنه يجب أن نقيم سدّاً منيعاً ضد المرض، وإلا فلا فائدة من فعل أي شيء.

- وبعد؟

- أجنبي بأنه لا يملك السلطة، وفي رأيي أن العدد سيستمر في الصعود.

وفعلًا لم تمر ثلاثة أيام حتى امتلأ الجناحان، وكان ريشار يشيع أنه

سيخلي إحدى المدارس، وتحول إلى مستشفى مساعد، وظل ريو ينتظر وصول المصل، ويشق العقد والأورام، وعاد كاستل إلى كتبه القديمة، وظل يوالي زيارته الطويلة للمكتبة.

وأنهى كاستل محادثته الطويلة قائلاً:

- لقد ماتت الفئران بالطاعون - أو بشيء ما يشبهه كثير الشبه - وقد كانت السبب في انتشار عشرات الألوف من البراغيث التي ستنتشر العدوى بطريقة حساسية واضحة، إذا لم توقف في الوقت المناسب. وهنا لا ذريو بالصمت.

وفي هذه الفترة كان يبدو الوقت وكأنه قد استقر، وامتصت الشمس مياه البرك الصغيرة التي تركها وابل آخر الفصل، وكان كل ما في هذا الموسم يدعو إلى البهجة، من السماء الزرقاء الجميلة التي تفيض بالضياء الصفراء، وأزيز الطائرات، والدفء. ومع ذلك فقد قفزت الحمى في ظرف أربعة أيام أربع قفزات مثيرة للدهشة؛ ستة أموات، ثم أربعة وعشرون ميتاً، ثم ثمانية وعشرون، ثم اثنان وثلاثون. وفي اليوم الرابع أعلن عن افتتاح المستشفى المساعد في إحدى مدارس الحضانة، وبدأ مواطنونا في الشوارع أكثر انهياراً وأشد صمتاً، وقد كانوا - حتى هذه اللحظة - يخفون قلقهم تحت ستار من الدعابات.

وقرر ريو أن يتحدث إلى المدير بالتليفون، فقال له:

- إن الإجراءات ليست كافية.

- الأرقام تحت يدي، وهي حقاً مثيرة للقلق.

- إنها أكثر من مثيرة للقلق، إنها واضحة.

- سأطلب أوامر من الحكومة العامة.

ووضع ريو السماعه، وكان ذلك في حضرة كاستل الذي عقب
بقوله:

- أوامر! إن الأمر يحتاج لكثير من الخيال.

- والأمصال؟

- سوف تصل في خلال هذا الأسبوع.

وطلبت المديرية - عن طريق ريشار - من ريو أن يعد تقريرًا يرسل
إلى عاصمة المستعمرة لاستعجال الأوامر، وقد سجل فيه ريو وصفًا
إكلينيكيًا للمرض معزًا بالأرقام. وفي اليوم التالي بلغ عدد الوفيات
أربعين حالة، وأخذ المدير على عاتقه - كما قال - مسؤولية اتخاذ
الإجراءات المقررة ابتداء من اليوم التالي، وصدرت الأوامر بأن يبلغ
المرضى عن أنفسهم، وأن يُعزلوا، أما منازل المرضى فتُغلق، وتطهر.
ويفرض الحجر الصحي على أقاربهم للوقاية، وتقرر أن تتولى إدارة
المدينة مسائل الدفن بالشروط التي تراها، وبعد يوم واحد وصلت
الأمصال بالطائرة، وكانت هذه الأمصال تكفي للحالات التي كانت
تحت العلاج، ولكنها لم تكن لتكفي في حالة انتشار المرض.

وكان الرد الذي تلقاه ريو على برقيته: إن الكميات المخزونة قد
نفدت، وقد بُدئَ في إنتاج كميات أخرى.

وفي هذا الوقت عم الربيع - القادم من جميع الضواحي المحيطة -

كل أسواق المدينة، وكانت آلاف الورود تذبل في سلال الباعة على طول الأرصفة، فتنشر رائحتها السكرى في أرجاء المدينة. كانت المدينة تبدو -في ظاهر الأمر- وكأن شيئاً لم يتغير فيها، كانت عربات الترام تغص بالركاب في أول النهار كالمعتاد، أما خلال النهار، فكانت خاوية بادية القذارة، وظل تارو يراقب العجوز القصير، كما ظل هذا العجوز يبصق على القطط، واستمر جران يعود إلى بيته كل مساء، فينكب على عمله الغامض، كما ظل كوتاريلف ويدور في المدينة، والسيد أوتون -قاضي التحقيق- يواظب على إدارة شؤون بيته. أما العجوز المريض بالربو، فقد ظل هو الآخر ينقل البازلاء من قدر إلى آخر، كما كان الصحفي رامبير يشاهد من حين لآخر في هدوئه واهتمامه المعتادين.

وفي المساء كانت الجموع نفسها تملأ الشوارع، والصفوف تطول أمام دور السينما، وبدأ أن الوباء أخذ في التراجع، فقد مرت بضعة أيام لم تقع فيها سوى نحو عشر وفيات، ثم فجأة ارتفع الرقم كالسهم، وفي اليوم الذي عاد فيه عدد الوفيات إلى ثلاثين من جديد، كان ريو ينظر إلى البرقية الرسمية التي قدمها له المدير قائلاً:

«إنهم خائفون»، أما البرقية نفسها فكان نصها:

«أعلن عن وجود وباء الطاعون، وأغلق المدينة».



يمكننا أن نقول: إن الطاعون أصبح شغلنا الشاغل جميعاً منذ تلك اللحظة؛ فالذي حدث حتى الآن -رغم الدهشة والقلق اللذين نتجا عن هذه الأحداث الشاذة- أن كل واحد من مواطنينا قد استمر في مشاغله الخاصة، منهمكاً فيها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً دون أن يغادر مكانه، وكان هذا بلا شك هو ما ينبغي أن يكون، ولكن ما إن أغلقت الأبواب حتى لاحظ الناس -بما فيهم الراوي- أنهم قد أصبحوا جميعاً في الهم سواء، وأن عليهم أن يتدبروا أمرهم، وهكذا أصبح الشعور الغالب على شعب بأسره -منذ الأسابيع الأولى- هو شعور الفراق بين شخصين متحابين فضلاً عن شعور الخوف، ذلك العذاب الأساسي الذي قاسى منه الشعب أثناء هذا المنفى الطويل الأمد.

والواقع أن أخطر نتيجة ترتبت على إغلاق أبواب المدينة كانت ذلك الفراق المفاجئ الذي فُرض على أناس لم يكونوا قد أخذوا له أهبته، فافترقت أمهات عن أطفالهن، وزوجات عن أزواجهن، وعشاق كانوا قد ظنوا لدى فراقهم منذ أيام أنه فراق مؤقت، وراحوا يتبادلون العناق على أرصفة المحطة، وكل منهم يوجه التوصيات إلى صاحبه، وكلهم ثقة في أن شملهم سيجتمع بعد بضعة أيام، أو بضعة أسابيع على الأكثر. لقد غرق هؤلاء العشاق في تلك الثقة الإنسانية الغافلة التي لم

تكن مشاغلهم العادية تلهيهم عنها، حتى وجدوا أنفسهم وقد ضرب بينهم الفراق بسور منيع حرمهم حتى من إمكان التراسل؛ وقد كان ذلك لأن إغلاق المدينة قد حدث قبل أن يعلن قرار المديرية ببضع ساعات، وبطبيعة الحال لم يكن من الممكن أن تكون هذه الحالات الشخصية محل تقدير، ويمكننا أن نقول: إن أول أثر تلقاه المواطنون من هذا المرض الذي اجتاحت المدينة اجتياحاً عنيفاً ينحصر في أنه اضطرهم إلى تناسي عواطفهم الشخصية، وأن يتصرفوا كما لو كانوا خلواً من العواطف، وعندما وضع قرار المديرية موضع التنفيذ في الساعات الأولى من ذلك اليوم، انهال على المديرية وابل من الطلبات التليفونية والكتابية موجهة إلى الموظفين، يعرض فيها أصحابها حالات ومواقف تستحق الاهتمام، ولكنها أيضاً مستحيلة التنفيذ؛ ذلك أنه كان لا بد من مرور أيام عديدة حتى يدرك الناس أنهم في موقف لا سابقة له، وأن كلمات «الخروج عن القاعدة» و«المعاملة» و«الاستثناء» لم تعد ذات معنى.

لقد حُرِّمنا حتى من تلك المتعة البسيطة التي نجدها في الكتابة؛ فلم تعد المدينة ترتبط ببقية أجزاء البلد بوسائل المواصلات العامة، هذا إلى أنه كان قد صدر قرار جديد يحرم جميع أنواع المراسلات حتى لا تكون الخطابات وسيلة لنشر العدوى، وقد حدث في بادئ الأمر أن تمكن بعض أصحاب الحظوة من الاتفاق مع دوريات الحراسة المرابطة على أبواب المدينة على حمل رسائلهم إلى خارجها، حدث هذا في الأيام الأولى من إعلان الوباء عندما كان الحراس لا يزالون يعتبرون الرضوخ

لشعور الشفقة أمراً طبيعياً، ولكن ما إن مضى بعض الوقت، حتى اقتنع هؤلاء الحراس أنفسهم بخطورة الموقف، فأحجموا عن تحمل تبعات لا يستطيعون أن يتنبأوا بمداها.

أما الاتصالات التليفونية بالمدن الأخرى التي كان قد صرح بها في أول الأمر، فقد أحدثت تراحماً شديداً في المكاتب العامة على الخطوط، دفع القائمين بالأمر إلى إيقافها لبضعة أيام، ثم إلى حصرها حصراً شديداً فيما سموه بحالات الضرورة القصوى؛ كحالات الوفاة، والولادة، والزواج، ولم تبق لنا من وسيلة سوى البرقيات. وهكذا اضطر الناس الذين تربطهم بعضهم ببعض صلات العقل والقلب والدم أن يبحثوا عن دلائل هذه الصلات القديمة بين حروف برقية من بضع كلمات. ولما كان من شأن الصيغ التي نستعملها في البرقيات أنها محدودة وسريعاً ما تستنفد، فقد أصبحت ضروب الحياة الطويلة المشتركة، ولهيب العواطف الحارق تضغط بسرعة في قوالب جاهزة يتبادلها الناس بانتظام مثل: «إني بخير. فكري في نفسك. حناني».

وعلى الرغم من ذلك، فقد أصر بعضنا على الكتابة، وأعملوا فكرهم بلا هوادة؛ من أجل الاتصال بالخارج بوسائل كان يتضح في النهاية أنها وهمية، ومع ذلك فقد نجحت بعض هذه الوسائل التي تخيلناها دون أن ندري شيئاً عن نجاحها؛ لأننا لم نتلق عنها رداً، وظللنا أسابيع بطولها نضطر إلى نسخ الخطابات نفسها، وإعادة المعلومات نفسها، وإصدار النداءات نفسها، إلى حد أنه لم يمر بعض الوقت حتى أصبحت تلك الكلمات التي كانت تخرج من قلوبنا مخضبة بالدم خاوية

من كل معنى؛ فقد كنا نعيد كتابتها بطريقة آلية محاولين أن نجعل من هذه الجمل الميتة علامات لصعوبة حياتنا، وفي النهاية وجدنا أن نداء البرق التقليدي أفضل من هذه الأسطوانة القديمة الملحة، ومن ذلك الحديث الصلد مع الجدران.

ولم تمر إلا أيام حتى تأكد الناس أنه لن يخرج من المدينة أحد، فخطر للبعض أن يسأل عما إذا كان يمكن التصريح بعودة أولئك الذين خرجوا من المدينة قبل الوباء. وبعد بضعة أيام من التفكير، أجابت المديرية بالإيجاب، ولكنها أوضحت أنه لن يصرح بأي حال لمن يعودون إلى المدينة بالخروج منها مرة ثانية، وأنه إذا كان لهم حرية العودة إلى المدينة، فلن يكون لهم الحق في مبارحتها مرة ثانية. وهنا قام عدد من الأسر - وإن كان عددًا ضئيلاً - باتخاذ قرار متسرع لا روية فيه، وفضلت رغباتها في رؤية أقاربها، على تركهم في منجى من الخطر، ودعت هؤلاء الأقارب إلى الاستفادة من تلك الفرصة، ولكن سرعان ما أدرك سجينو الطاعون مدى الخطر الذي يعرضون له ذوي قرباهم، فتحملوا آلام الفراق صاغرين. ولكن حدث عندما وصل المرض إلى أعلى مراحل خطورته، أن تغلبت المشاعر الإنسانية في إحدى الحالات على الخوف من الموت، وما يصحبه من آلام، ولم تكن تلك - كما قد يتبادر إلى الذهن - حالة عاشقين دفعهما الحب أحدهما نحو الآخر عبر الآلام والأخطار، ولكنها كانت حالة الطبيب العجوز كاستل وزوجته اللذين كانا قد تزوجا منذ سنين عديدة؛ وذلك أن مدام كاستل كانت قد توجهت إلى مدينة مجاورة قبل الوباء بأيام قلائل، والواقع أن هذين

الزوجين لم يكونا من الأزواج الذين يضرب بهم المثل في السعادة، بل وفي وسع الراوي أن يؤكد -استنادًا على ما توحى به جميع الظواهر- أن هذين الزوجين لم يكونا -حتى هذه اللحظة- متأكدين من رضائهما عن زواجهما، غير أن الفراق المفاجئ العنيف الطويل الأمد برهن لهما على أنهما لا يطيقان العيش أحدهما بعيدًا عن الآخر، وإزاء هذه الحقيقة -التي انكشفت لهما فجأة بكل وضوح وجلاء- أصبح الطاعون في نظرهما أمرًا غير ذي بال.

كانت هذه حالة استثنائية، أما في غيرها من الحالات، فقد كان مما لا شك فيه أن الفراق لن ينتهي إلا بنهاية الوباء، وهكذا رأينا المشاعر التي كانت تملأ حياتنا، والتي كنا مع ذلك نعتقد أننا نعرفها جيدًا (فقد ذكرنا أن عواطف سكان وهران تتسم بالبساطة)، نقول: رأينا هذه المشاعر تلبس لباسًا جديدًا، فاكشف الكثير من الأزواج والعشاق -الذين كانوا يضعون في صوابهم كل ثقتهم- أنهم غيورون، ومن الناس من كانوا ينظرون إلى حبهيم بعين الريبة، فاكشفوا أنه ثابت كالطود، وهناك أبناء كانوا يعيشون إلى جوار أمهاتهم دون أن يمنحوهن نظرة واحدة من نظراتهم، فأصبحوا ينوءون بالقلق والأسف، كلما لحت لحناهم تجعيدة واحدة من تجاعيد وجوههم، وهكذا رأينا أن هذا الفراق المفاجئ القاسي -الذي انقطع عن الماضي، ولم يكن له مستقبل يمكن التكهّن به- قد تركنا حائرين عاجزين عن مقاومة الذكرى... تلك الذكرى القرية البعيدة في آن واحد، والتي أصبحت الآن كل ما يملأ أيا منا، فكنا في حقيقة الأمر نتألم مرتين: مرة من آلامنا

نحن، ومرة أخرى للآلام التي نتوهمها للأعزاء الغائبين، سواء أكانوا أبناء، أم زوجات، أم عشيقات.

والحقيقة أنه لو كان مواطنونا في ظروف أخرى، لوجدوا لأنفسهم مخرجًا في حياة أقل انطواء، وأكثر نشاطًا، ولكن الطاعون تركهم بلا عمل، واضطربهم لقضاء وقتهم في التجوال حول المدينة الحزينة، بينما راح استسلامهم لحنين الذكريات يزداد يومًا بعد يوم؛ ذلك أنهم كانوا في جولاتهم -التي لا غاية لها- يمرون دائمًا بنفس الطرقات، وهي في مدينة صغيرة كهذه لا يمكن أن تكون إلا تلك الطرقات ذاتها التي كانوا يذرعونها مع أعزائهم الغائبين.

وهكذا كان النفي أول شيء جاء به الطاعون لمواطنينا، ويعتقد الراوي أنه يستطيع هنا أن يعبر -باسم الجميع- عما عاناه في ذلك الحين؛ إذ إن الكثيرين من مواطنينا قد عانوه معنا في نفس الوقت، إنه لم يكن إلا الشعور بالنفي، ذلك الشعور بالفراغ الذي كنا نحمله دائمًا في نفوسنا، ذلك التأثير المحدد، تلك الرغبة الجامحة في الرجوع إلى الوراء، أو -على العكس من ذلك- في حث خطى الزمن، تلك السهام المحرقة، سهام الذكرى، وإذا كان يتأتى لنا في بعض الأحيان أن ننساق وراء الأوهام، ونعلل أنفسنا بانتظار دقة جرس عودة الغائب، أو وقع خطى مألوفة لنا على السلم، وإذا كان يتأتى لنا في هذه الأحيان أن ننسى أن القطارات متوقفة عن المسير، وإذا كان يتأتى لنا أن نرتب أمورنا على أن نتنظر في بيتنا في الساعة التي يعود فيها المسافر الذي وصل بالقطار السريع إلى حيننا في الأحوال العادية، فإن هذا العبث لم يكن

ليدوم بطبيعة الحال؛ فلم يكن هناك بد من حلول اللحظة التي نلمس فيها جيداً أن القطارات لا تأتي، وحينئذ كنا ندرك تمام الإدراك أن فراقنا قد قُدر له الدوام، وأنه يتحتم علينا أن نحاول اعتياد هذا الأمر مع مرور الوقت، وحينئذ كنا نعود إلى حالة السجناء التي قُدرت علينا، فلم يكن لنا مناص من أن نعيش في ماضينا، ولو تأتّى لأحدنا أن يحاول العيش في المستقبل، لعدل عن ذلك إذا استطاع؛ إذ إنه يشعر حينئذ بالآلام الجراح التي يرمي بها الخيال -في نهاية المطاف- أولئك الذين يثقون فيه.

وسرعان ما حرّم المواطنون على أنفسهم -بصفة خاصة، وحتى في مجالسهم العامة- تلك العادة التي كانوا قد اكتسبوها، وهي تحديد مدة الفراق، لماذا؟ ذلك لأنه إذا كان أكثر الناس تشاؤماً قد حددها بستة أشهر، وتجرعوا سلفاً كل ما في هذه الأشهر القادمة من مرارة، وعملوا كل جهدهم في رفع قوتهم المعنوية إلى مستوى هذه التجربة، وبذلوا قصاراهم لكي يحفظوا بقايا قواهم من أن يدركها الوهن قبل نهاية فترة العذاب الممتدة على مدى واسع من الأيام المتتالية، فقد كان يحدث أن يوحى إليهم صديق عابر، أو إعلان في جريدة، أو مجرد ظن طارئ، أو حيلة مفاجئة، بأنه ليس هناك ما يؤكد أن المرض لن يستمر أكثر من ستة أشهر، بل قد يمتد إلى سنة، أو ربما إلى أكثر من سنة.

وحينئذ كانت تنهار شجاعتهم، وتخمد إرادتهم، ويعيل صبرهم -بشكل مفاجئ- إلى حد يصور لهم أنه لا مخرج لهم من هذه الهوة؛ ولهذا فرضوا على أنفسهم ألا يفكروا أبداً في وقت الخلاص، ألا يلتفتوا أبداً إلى المستقبل، أي أن يفضوا دائماً من أبصارهم. ولكن

هذا الحذر، وهذه الطريقة للتحايل على الألم، طريقة إغلاق الأبواب هرباً من المعركة، كان تلقى شر الجزاء بطبيعة الحال؛ ففي نفس الوقت الذي كانوا يتجنبون فيه الوقوع في هذا الانهيار بأي ثمن، كانوا يحرمون أنفسهم حقاً من تلك اللحظات الكثيرة التي كانوا يستطيعون فيها أن ينسوا الطاعون في غمرة الصور الخيالية التي يرسمونها للقائهم في المستقبل.

وهكذا أصبحوا معلقين وسط المسافة بين هذه الهوات وتلك القمم، أصبحوا يتلاطمون أكثر مما يعيشون، ولا ملجأ لهم إلا أيام لا وجهة لها، وذكريات قاحلة، وظلال هائمة، لم تكن لتقوى على البقاء لو لم تنشب جذورها في أرض الآلامهم.

وهكذا كانوا يشعرون بما يشعر به جميع المسجونين وجميع المنفيين من عذاب، عذاب من لهم ذاكرة لا فائدة منها، بل إن هذا الماضي نفسه -الذي ما فتئوا يذكرونه- لم يكن لمذاقه من طعم سوى المرارة، وكم ودوا لو استطاعوا أن يضيفوا إليه كل ما يأسفون لعدم حدوثه بينهم وبين من ينتظرون عندما كان من الممكن أن يحدث، كما أنهم كانوا يربطون الغائب بجميع الظروف التي تمر بهم في حياة السجن التي كانوا يحيونها، حتى بما كان منها يتسم بسعادة نسبية، ولم تكن حالتهم حيثئذ بالتي يمكنهم أن يرضوا عنها، فقد كانوا متبرمين بحاضرهم، أعداء لماضيهم، محرومين من مستقبلهم.

وهكذا كنا نشبه أولئك الذين وضعتهم العدالة أو الأحقاد البشرية وراء القضبان، ولم يكن هناك مهرب من هذا الفراغ غير المحتمل إلا

في إعادة سير القطارات في خيالنا، وملء أوقاتنا برنين متتابع لأجراس أبوابنا، تلك الأجراس التي كانت تصر على الصمت، ولكن إذا كان الناس يشعرون بالمنفى، فإن منافعهم كان في بلدهم في أغلب الأحيان، ورغم أن الراوي لم يعرف إلا هذا النوع من المنفى، فإنه لا يصح له أن ينسى أولئك الذين اتسع نطاق آلام الفراق بالنسبة لهم؛ لأنهم كانوا على سفر، وفاجأهم الطاعون في المدينة واحتجزهم فيها، فحرموا في آن واحد ممن يحبون، ومن بلدهم الذي استحال عليهم أن يعودوا إليه، وذلك كما حدث للصحفي رامبير وغيره، وهكذا كان هؤلاء في وسط ذلك المنفى العام أكثر من غيرهم إغلاً في النفي؛ لأنه إذا كان الوقت يجعلهم كغيرهم نهباً للقلق الذي هو من خصائصه، فإنهم فوق ذلك مرتبطون بفكرة المكان، وكانوا يصطدمون -دون توقف- بذلك الجدار الذي يفصل بين المقر الموبوء الذي فرض عليهم، وبين وطنهم الذي ضاع منهم، فأغلب الظن أنهم هم الذين كانوا يرون هائمين على وجوههم في كل ساعات النهار في المدينة المغبرة، يدعون -في صمت- ذكرى الأمسيات التي عرفوها وحدهم، وينادون أصبحت بلادهم المنعشة، لقد كانوا حينئذ يغذون نار ألمهم بتأويل علامات غير محسوسة، وإرهاصات محيرة؛ كمرور الطير في سماء المدينة، أو ندى الغروب، أو تلك الأشعة الغريبة التي تنساها الشمس أحياناً في الشوارع المقفرة. أما هذا العالم الخارجي الذي في مقدوره دائماً أن ينقذ الناس من كل شيء، فإنهم يغمضون أعينهم دونه، مصرين على مداعبة أوهام أكثر من حقيقية، وعلى أن يظلوا يتابعون -بكل قوتهم- صور أرض

يتكون جوها من نوع معين من الضوء، أو اثنين أو ثلاثة، وشجرة محببة إليهم، وبعض وجوه نسائية معينة، ومثل هذا الجو لم يكونوا ليرضوا عنه بديلاً.

وإذا كان لنا أن نخص العشاق بحديثنا - وهم أكثر الناس إثارة لاهتمامنا كما أن الراوي أقدر على الحديث عنهم أكثر من غيرهم - فإنهم كانوا نهباً لأنواع أخرى من العذاب، ومن بينها تأنيب الضمير، فقد سمح لهم هذا الموقف الجديد بأن ينظروا إلى عاطفتهم بنوع من الموضوعية المحمومة، وقد كان من النادر في هذه المناسبات ألا يظهر لهم ضعفهم الشخصي بوضوح، وأولى المناسبات التي ظهر لهم فيها هذا الضعف هي الصعوبة التي كانوا يجدونها في أن يستعيدوا في خيالهم حركات الغائب وتصرفاته، فيلومون أنفسهم على جهلهم بالطريقة التي ينظم بها هذا المحبوب وقته، ويتهمون أنفسهم بالاستهتار؛ لأنهم قصروا في معرفة تلك الطريقة، وزعموا - نفاقاً - أنها ليست المنبع الذي يجد فيه المحب سعادته، وحينئذ كانوا لا يلبثون أن يستعيدوا في أذهانهم قصة حبهم بكل سهولة، ويتفحصوا نقائصهم، ومما لا شك فيه أننا كنا كلنا - في الظروف العادية - نعرف، عن شعور أو عن غير شعور، أنه لا يوجد حب لا يمكن له أن يتفوق على نفسه، ومع ذلك، فقد كنا نقبل مطمئنين أن يظل حبنا حباً صغيراً، ولكن الذكرى أكثر إلحاحاً من الواقع، فأصبحنا ندرك - بصورة منطقية - أن تلك المصيبة التي نزلت علينا من الخارج، والتي رزئت بها مدينة بأسرها، لم تقتصر على إشعارنا بأنها لم تحمل إلينا إلا آلاماً غير عادلة، فتشير في نفوسنا

السخط عليها، بل لقد دفعتنا أيضًا إلى أن نتألم من أنفسنا، ومن ثم اضطررنا إلى قبول آلامنا، وكانت هذه إحدى طرق المرض لكي يحول عنه أنظارنا، ويجعل الأمور تختلط في أذهاننا.

وهكذا اضطر كل منا إلى أن يعيش ليومه، وفي وحدة تامة تجاه السماء. وكان من شأن هذا الاستسلام العام الذي لم يكن منه بد، أن يؤثر على أخلاق الناس مع طول الوقت، وكانت أول مظاهر هذا التأثير اتجاه الأخلاق نحو التفاهة، ففرض بعض مواطنينا مثلاً على أنفسهم نوعاً آخر من العبودية، سخرهم في خدمة الشمس والمطر، فكان يبدو لمن يراهم أنهم يتلقون تأثيرات الطقس لأول مرة، وبطريقة مباشرة، فكانت وجوههم تبدو مستنيرة لدى أول شعاع ذهبي يقع عليهم، بينما كانت تكفهر وجوههم -وكذلك أفكارهم- في أيام المطر.

لقد كانوا منذ بضعة أسابيع لا يعرفون هذا النوع من الضعف، ولا تلك العبودية الهوجاء؛ لأنهم لم يكونوا وحيداً في مواجهة العالم، ولأن الكائن الذي كان يعيش معهم كان يحول -بطريقة ما- بينهم وبين الكون، ولكن الأمور انعكست بالنسبة لهم ابتداء من تلك اللحظة، فتفرغوا لدراسة نزوات السماء، ومعنى ذلك أنهم كانوا يألمون ويأملون دون سبب.

وهكذا بلغ شعورهم بالوحدة أقصى حدوده، فلم يكن لأحد أن يرجو العون من جاره، وعاش كل منا وحيداً مع مشاغله الخاصة، ولو حاول أحدهم مرة أن يسر بما في نفسه، أو أن يقول شيئاً عن شعوره، لما تلقى إلا جواباً جارحاً، فكان سرعان ما يدرك أنه هو ومخاطبه لا

يتكلمان في موضوع واحد؛ أما هو فيعبر عما اختمر في أعماق الليالي الطوال من آلام، فكانت الصورة التي أراد أن يطلع محدثه عليها قد نضجت، وتم نضجها في نار الانتظار والحب، وأما الآخر فكان على العكس من ذلك، يتصور أنه أمام عاطفة من العواطف المتواضع عليها، وألم من تلك الآلام التي تباع في الأسواق، واكتئاب من ذلك الذي يُصنع بالجملة، ولذلك كان الجواب دائماً زائفاً، ومما يحسن العدول عنه، سواء أكان ودياً أم عدائياً. وأما أولئك الذين لا يطبقون الصمت فكانوا حين يرون أن الآخرين لا يعرفون لغة القلب الحقيقية، يضطرون إلى أن يستعملوا أيضاً لغة السوق، ويتكلموا بالطريقة التي جرى عليها العرف عن العلاقات البسيطة، والأحداث التافهة، وبالاختصار عن أحداث الحياة اليومية الرتيبة، وهنا أيضاً كان لا بد لأكثر الآلام صدقاً أن تترجم عن نفسها، في تلك القوالب المصنوعة، قوالب المحادثات المبتذلة. كان هذا هو الثمن الذي يدفعه سجينو الطاعون؛ لكي يكسبوا عطف بوابيهم، أو إصغاء من يستمعون إليهم.

ولكن ما هو أهم من كل ذلك، أن سجناء الطاعون هؤلاء كانوا يعتبرون من المجدودين في الفترة الأولى من سجنهم، مهما كانت شدة الآلام التي يعانونها من قلقهم، ومهما كان من ثقل الحمل الذي تروح به قلوبهم رغم فراغها، ففي نفس اللحظة التي بدأ فيها السكان يفقدون رباطة جأشهم، كان فكرهم يتجه بكليته نحو الشخص الذي ينتظرونه، وفي وسط الحزن العام ساعدت أثرة الحب على حمايتهم. وإذا كان الطاعون قد شغل فكرهم، فما ذلك إلا لأنه كان يخشى أن يعرضهم

لفراق يكون دائماً.

وهكذا كان من شأن ذلك أن يمدّهم -إبّان اشتداد الوباء- بنوع من انشغال البال ذي تأثير طيب، لعله كان يؤول بأنه نوع من رباطة الجأش؛ فاليأس قد أنقذهم من الهلع، وكان لنكبتهم آثارها الطيبة، ولذلك كان إذا حدث لأحدهم، مثلاً، أن اجتاحه المرض، لم يكن ليجد لديه من الوقت ما يعينه على التفكير فيه، فكان إذا انتهى من هذه النجوى الداخلية الطويلة مع أحد الأطياف، رأى نفسه وقد أُلقيَ به -دون انتظار- إلى سكون الأرض الكثيف.



وبينما كان مواطنونا يحاولون أن يدبروا أمرهم مع هذا المنفى المفاجئ، كان الطاعون يضع حراساً على الأبواب، ويحول اتجاه السفن التي كانت تتجه نحو وهران، ومنذ إغلاق المدينة لم تدخلها عربة واحدة، وقد خُيِّل للناس -منذ ذلك اليوم- أن السيارات قد أخذت تدور حول نفسها. أما الميناء، فقد كان منظره هو الآخر غريباً لمن ينظر إليه من أعلى الطرقات؛ فالزحام المعتاد والذي كان يخلق منه ميناء من أكبر موانئ الشاطئ قد انطفأ بغتة، وإن كانت بعض السفن المحجوزة للحجر الصحي ما زالت تُشاهد فيه، ولكن بعض الروافع المهجورة، وعربات القطارات المقلوبة على جانبها، كانت تُرى على الأرصفة إلى جانب أكوام من الدنان أو الأكياس، كانت تشهد بأن التجارة هي الأخرى قد قتلها الطاعون.

ورغم هذه المشاهد التي لم يعتدها الناس من قبل، فقد كان من الصعب على مواطنينا أن يفهموا ما حدث لهم حق الفهم على ما يبدو، فقد كانوا رغم هذه المشاعر التي عمت -كألم الفراق والخوف- يستمرون في جعل مشاغلهم الشخصية في المكان الأول من اهتمامهم؛ وذلك أنه

لم يتأت لأحد منهم بعد أن يقدر المرض حق قدره؛ فما برحت غالبية الناس شديدة الحساسية لكل ما يعرقل عاداتهم، أو يمس مصالحهم بوجه خاص. كان ذلك هو الذي يثيرهم، ويضيقون به ذرعًا، وكان أول رد فعل يصدر عنهم مثلًا ينحصر في توجيه الاتهام إلى إدارة المدينة، وكان جواب المدير على الانتقادات التي ظهر صداها في الصحف -من مثل: «ألا يمكن جعل الإجراءات المتخذة أكثر مرونة؟»- جوابًا غير متوقع؛ فحتى تلك اللحظة لم تكن الصحف، ولا وكالة رانسدوك قد تلقت بلاغًا رسميًا عن إحصائيات المرض، فأخذ المدير يبلغها يوميًا بيوم إلى الوكالة راجيًا إياها أن تنشرها مرة في الأسبوع.

وهنا أيضًا لم يكن تأثير الإعلان على الناس فوريًا، فقد حصر الإعلان الصادر في الأسبوع الثالث للمرض عدد الوفيات في ثلاثمائة واثنتين، ولكنه في الواقع لم يتحدث إلى خيال الناس، فمن جهة ربما لم يكونوا جميعًا ماتوا بالطاعون، ومن جهة أخرى لم يكن أحد في المدينة يدري شيئًا عن عدد الذين يموتون كل أسبوع في الأوقات العادية، ذلك أن سكان المدينة كانوا يبلغون مائتي ألف نسمة، ولم يكن الناس يعرفون ما إذا كانت نسب الوفيات هذه نسبة عادية أم لا، والواقع أن هذا النوع من الإيضاحات لا يحظى في العادة بما يستحق من عناية، رغم أهميته المؤكدة، فكان الجمهور ينقصه المعلومات التي تمكنه من عقد المقارنات. ولكن، مع مرور الوقت، واستمرار ازدياد عدد الوفيات، أدرك الناس الحقيقة؛ فقد أعلن في الأسبوع الخامس عن وفاة ثلاثمائة وواحد وعشرين شخصًا، أصبحوا في الأسبوع السادس

ثلاثمائة وخمسة وأربعين شخصًا، وكان أقل ما يُقال في هذه الزيادات إنها كانت بليغة في معناها، ولكنها لم تكن من القوة بحيث لا تجعل مواطنينا يغيرون رأيهم في الموقف، وهو أمر خطير مقلق بما لا يدع مجالًا للشك، ولكنه مؤقت أولًا وقبل كل شيء.

وهكذا استمر القوم يجوبون الطرقات، ويجلسون على موائد المقاهي، إنهم لم يكونوا في مجموعهم من الجبناء، بل كانوا يتبادلون الدعابات أكثر مما يتبادلون الشكايات، ويبدون كما لو كانوا يقبلون بصدر رحب تلك المضايقات المؤقتة، وهكذا ظلت المظاهر كما هي دون افتضاح، ولكن حدث في نهاية الشهر، على وجه التقريب -وخلال أسبوع الصلوات الذي ستحدث عنه فيما بعد- أن وقعت تغييرات أشد خطرًا من تلك، فقلبت مظهر المدينة رأسًا على عقب، وكان أول هذه التغيرات أن المدير قد اتخذ إجراءات خاصة بالمرور وبالتموين، فحدد التموين بالمدينة، وتقرر أن يكون بيع البنزين بالبطاقات، بل وأخضع استهلاك الكهرباء نفسه لضروب الاقتصاد والتقشف، ولم تعد تصل إلى وهران سوى المنتجات التي لا غنى عنها، وكانت هذه تصل إليها عن طريق البر والجو، وهكذا أخذت حركة المرور تضعف بالتدريج حتى صارت في حكم المعدومة، واضطرت بعض المحال الفاخرة إلى إغلاق أبوابها بين عشية وضحاها، واضطرت محال أخرى إلى أن تضع على واجهتها لافتات تنفي وجود البضائع فيها، بينما اصطفت أمام أبوابها صفوف المشتريين.

وهكذا صار منظر وهران غريبًا، فقد ازداد فيها عدد المشاة،

وأصبحت شوارعها تغص بالمشاة حتى في الساعات التي يخف فيها العمل، وذلك بعد أن اضطرهم إغلاق المحلات، وبعض المكاتب إلى التعتل، ولكنهم حتى في هذه اللحظة لم يكونوا في حالة بطالة، ولكن في حالة عطلة. وهكذا أصبحت وهران في الساعة الثالثة بعد الظهر، وفي جو صفت سماؤه، وازدانت بزرقه جميلة، تبدو كما لو كانت في عيد، فأوقف فيها المرور، وأغلقت المحلات لكي يسمح بمرور موكب عام، وكما لو كان السكان قد ملأوا الشوارع ليشتركوا في الأفراح العامة، وكم كان ذلك المنظر خداعًا.

ومن الطبيعي أن تستفيد دور السينما من هذه العطلة العامة، وأن تحقق ربحًا طائلًا. ولكن ما لبث تداول الأفلام أن توقف، ولم يمر أسبوعان حتى اضطرت دور العرض إلى تبادل برامجها، ثم انتهت الدور -بعد وقت قليل- إلى عرض فيلم واحد بصفة مستمرة، ومع ذلك لم ينقص إيرادها.

أما المقاهي فقد ظلت تلبي طلبات روادها بفضل ما كان لديها من مواد مخزونة، وهذا طبيعي في مدينة تحتل تجارة النبيذ والمشروبات المكان الأول فيها، والحقيقة أن الناس كانوا يسرفون في الشراب، ولما كان أحد المقاهي قد أعلن أن «النبيذ الجيد يقتل الميكروب»، فقد زاد الناس اقتناعًا بأن الكحول يحمي من الأمراض المعدية، فكنت ترى الشوارع حوالي الساعة الثانية من كل صباح، وقد عجت بعدد غير قليل من السكارى الذين طردتهم المقاهي، وأخذوا يذرعون أرض المدينة وهم يتبادلون أشد الآراء تفاؤلاً.

ولكننا لو نظرنا للأمر من زاوية معينة، لوجدنا أن كل هذه التغيرات كانت غير عادية، وأنها تمت بسرعة لا تجعل من السهل اعتبارها عادية ودائمة، ومن ثم فقد ظللنا نضع مواطننا الشخصية في المكان الأول من اعتبارنا. وقد حدث بعد إغلاق أبواب المدينة بيومين أن قابل الدكتور ريو - وهو خارج من المستشفى - كوتار، ورفع هذا الأخير نحوه وجهًا يطفح بالرضى، وهنأه ريو على ذلك، فقال هذا الرجل القصير:

- نعم، إن الحال على ما يرام، ولكن قل لي يا دكتور: ما هذا الطاعون المشؤوم؟ لقد بدأ يتخذ شكلاً خطيرًا. وأجابه الطبيب بالإيجاب، فعلق أخونا على جوابه بشيء من الابتهاج قائلاً:

- ليس هناك ما يدعوه الآن إلى التوقف، لا بد أن كل شيء سوف ينقلب رأسًا على عقب.

وسارا لحظة معًا، وحكى كوتار كيف أن بدلاً مسكينًا في حيه كان قد اخترن بعض المواد الغذائية لبيعها بسعر مرتفع، وكيف اكتُشفت العلب المحفوظة التي كان قد أخفاها تحت سريره، عندما حضر القوم لأخذه إلى المستشفى حيث مات، ثم عقب بقوله: «إن الطاعون ليست وراءه فائدة».

وهكذا كانت جعبة كوتار مليئة بقصص الوباء، الحقيقي منها والكاذب، وكان مما ذكره: أنه حدث ذات صباح في وسط المدينة أن رأى الناس رجالاً تبدو عليه علامات الطاعون يندفع وسط هذيان المرضى إلى خارج منزله، ويلقي بنفسه على أول امرأة يصادفها، ويضمها بقوة، وهو يصيح: إني مصاب بالطاعون، ثم علق كوتار - بلهجة مبتهجة لا

تتمشى مع ما يؤكده:-

- حسن! من المؤكد أننا سنصبح جميعاً من المجانين.

وكذلك جاء جوزيف جران في عصر اليوم نفسه، وانتهى بأن أفضى إلى الدكتور ريو ببعض أسرارهِ الشخصية، وكان قد لمح صورة لمدام ريو على المكتب، ثم نظر إلى الطبيب نظرة متسائلة، فأجاب ريو بأن زوجته تعالج خارج المدينة.

فقال جران:

- من ناحية ما، يعتبر هذا من حسن الحظ.

وأجاب الدكتور بأن ذلك فعلاً من حسن الحظ، ولكن بقي أن نأمل في أن يتم شفاؤها.

وقال جران:

- آه، إنني أفهم ذلك جيداً.

وللمرة الأولى - منذ عرفه ريو - أخذ يتكلم بغزارة، ورغم أنه كان كالمعتاد يبحث عن كلماته، فقد كان ينجح دائماً في العثور عليها كما لو كان قد فكر طويلاً من قبل فيما يقوله الآن.

لقد تزوج في سن مبكرة جداً من فتاة فقيرة صغيرة جداً من جبرته، وكان قد توقف عن إتمام دراسته، وحصل على عمل لكي يتمكن من الزواج. ولم تخرج جان ولا هو نفسه من حيهما، كان يذهب ليراها في بيتها، فيسخر أهلها قليلاً من هذا الخاطب الصامت المرتبك. وكان أبوها عاملاً في السكة الحديد، وكان في وقت راحته يُرى دائماً منعزلاً

قرب النافذة، مستغرقاً في التفكير، ناظرًا إلى حركة الشوارع، وقد وضع راحتيه الكبيرتين على فخذه. أما الأم، فكانت مشغولة دائماً بأعمال المنزل، وكانت جان تساعدُها. وجان هذه ضئيلة الجسم حتى إن جران لم يرها مرة تعبر الشارع إلا اعتراه القلق. لقد كانت العربات تبدو له حينئذ ذات حجم هائل. وذات يوم -أمام أحد محلات عيد الميلاد- كانت جان تنظر إلى الواجهة الزجاجية، وقد استحوذ عليها الإعجاب، ثم ارتمت ناحية جران وهي تقول: ما أجمل هذا! وكان هو قد ضغط على معصمها، وهكذا تقرر زواجهما.

أما بقية القصة، فكانت بسيطة حسبما يقول جران، والواقع أنها كذلك بالنسبة للناس جميعاً، فالناس يتزوجون ويستمرون يحب بعضهم بعضاً -شيئاً ما- وينهمكون في عملهم. إنهم ينهمكون في عملهم إلى حد أن ينسوا الحب، وكانت جان أيضاً تعمل؛ لأن رئيس المكتب لم يف بوعده، وهنا لا بد من شيء من الخيال؛ لكي نفهم ما أراد جران أن يقوله، فقد سار وراء عاداته، وزاد صمتاً على صمت، وقد ساعده التعب على ذلك، فلم يحاول أن يجعل زوجته الشابة تستمر في الاعتقاد أنها محبوبة، ذلك أن انكباب الرجل على عمله، والفقر، والمستقبل الذي يغلق أبوابه ببطء، وقضاء الأمسيات حول المائدة في صمت، كل ذلك من شأنه أن يخلق جوًّا لا مجال فيه للعاطفة الملتهبة، ومن المحتمل أن تكون جان قد قاست من ذلك ولكنها بقيت، وقد يحدث أن يتعذب المرء طويلاً دون أن يدري. ومُرت الأعوام، وبعد ذلك ذهبت، ولم تذهب وحدها بطبيعة الحال: «لقد أحبيتك فيما مضى،

أما الآن، فقد تعبت... لست سعيدة لأنني أذهب، ولكن ليس المرء في حاجة لأن يكون سعيداً لكي يبدأ من جديد» هذا هو مجمل ما كتبه له. وقد تعذب جوزيف جران بدوره. نعم، كان في مقدوره أن يبدأ من جديد - كما لاحظ ريو - ولكن الذي حدث هو أنه لم يعد يعتقد في إمكان ذلك.

وكل ما في الأمر أنه ظل يفكر فيها، كان يود أن يكتب لها خطاباً ليبرر موقفه، ولكن «كان هذا أمراً صعباً» على حد تعبيره؛ إذ يقول: «إنني أفكر في ذلك منذ وقت طويل، فقد كنا - ونحن متحابان - يفهم بعضنا بعضاً دون حاجة إلى كلام، ولكن الإنسان لا يظل على حبه دائماً، وقد جاءت لحظة معينة كان عليّ فيها أن أعثر على الكلمات التي كان يمكن أن تبقّيها، ولكنني لم أستطع». ومخط جران أنفه في منشفة ذات مربعات، ثم جفف شاربه، وريو لا ينفك عن النظر إليه، ثم قال العجوز: - أرجو المَعذرة يا دكتور، ولكن كيف أعبر عن ذلك؟ إنني أضع فيك ثقتي، ومعك أستطيع أن أتكلّم، وحينئذ يطغي عليّ التأثير.

وكان واضحاً أن جران يقف على بعد ألف فرسخ من الطاعون. وفي المساء أ برق ريو إلى زوجته بأن المدينة مغلقة، وأنه بخير، وأنه يجب عليها أن تستمر في العناية بنفسها، وأنه يفكر فيها. وبعد ثلاثة أسابيع من إغلاق أبواب المدينة، وجد ريو شاباً ينتظره عند خروجه من المستشفى، وقد بادره هذا الشاب بقوله:

- إنني أفترض أنك تعرفني.

وُخِّلَ إلى ريو أنه يعرفه حقًا، ولكنه ظل مترددًا، فقال الآخر:

- لقد جئتك قبل هذه الحوادث أطلب منك معلومات عن ظروف العرب، إن اسمي ريمون رامبير.

وقال ريو:

- هذا صحيح، وهأنت ذا الآن تجد أمامك موضوعًا لتحقيق صحفي جميل.

وكان الشاب يبدو متوتر الأعصاب، فقال: إنه لم يأت لهذا الغرض، بل ليطلب العون من الدكتور ريو، وأضاف:

- أرجو المَعذرة، فأنا لا أعرف أحدًا في هذه المدينة، ومن سوء الحظ أن مندوب جريدتي فيها رجل معتوه.

وعرض عليه ريو أن يسيرا معًا إلى أحد المستوصفات في وسط المدينة؛ لأن لديه أوامر يريد أن يصدرها، وهبطا أزقة حي الزوج. وكان المساء قد اقترب، ولكن المدينة - التي كانت دائمًا صاحبة في مثل هذه الساعة - كانت تبدو وحيدة بشكل يلفت النظر، وكانت الأصوات القليلة المنبعثة من أحد الأبواب العسكرية في أرجاء هذه السماء الذهبية تشهد بأن العسكريين يتظاهرون بممارسة مهنتهم، وفي تلك الأثناء كان رامبير يتكلم والاضطراب لا يفارقه طيلة سيره مع ريو في هذه الشوارع الوعرة تحيط به جدران المنازل المغربية، الزرقاء، والصدفية، والبنفسجية، ذلك أنه كان قد ترك زوجته في باريس، وفي الحقيقة أنها ليست زوجته، ولكن كلا الأمرين سواء؛ لقد أبرق إليها منذ إغلاق المدينة، ولكنه لما

كان قد ظن أن الأمر ما هو إلا حادث مؤقت، فقد فكر في بادئ الأمر في مجرد الكتابة إليها، ولكن زملاءه في وهران أفهموه أنهم لا يستطيعون عمل شيء من أجله، وأن مكتب البريد قد رد خطابه، وقد ضحكت منه إحدى موظفات المديرية في شيء من السخرية، وكان كل ما وصل إليه، بعد وقوفه ساعتين في الصف، أنهم قبلوا منه برقية قال فيها:

«كل شيء على ما يرام. إلى اللقاء القريب».

ولكنه لم يكد يستيقظ في الصباح، حتى طرأت في رأسه فجأة فكرة، أنه لا يعرف كم من الوقت ستستمر هذه الحال، ولذا قرر أن يرحل. ولما كان يحمل بعض التوصيات - فمهمته تمنحه الكثير من التسهيلات - فقد تمكن من الوصول إلى مدير مكتب المدير، وقال له: إنه لا علاقة له بوهران، وليس مما يعنيه أن يبقى فيها، وأنه كان قد وجد هنا بطريق المصادفة، ومن العدل أن يسمحوا له بالرحيل، ولو اضطر إلى أن يُحجز في الحجز الصحي بعد أن يصبح خارج المدينة، فقال له مدير المكتب: إنه يفهمه جيداً، ولكنهم لا يستطيعون أن يستثنوه، وأنه سوف ينظر في الأمر، ولكن الموقف جد خطير على وجه العموم، ولا يمكن اتخاذ أي قرار. وقال رامبير:

- ولكنني غريب عن هذه المدينة.

- هذا لا شك فيه، ولكن كل ما نستطيع هو أن نأمل ألا تطول مدة الوباء.

ولكي ينهي المدير حديثه معه، حاول أن يواسيه بأن لفت نظره إلى أنه يستطيع أن يجد في وهران مادة تحقيق صحفي طريف، وأنه ما من

حادث إلا وله ناحيته الطيبة، وهز رامبير كتفيه باستخفاف.

وهنا كانا قد وصلا إلى وسط المدينة، وواصل رامبير كلامه قائلاً:

- هذه سخافة يا دكتور، أنت تفهم ذلك جيداً، فأنا لم أولد لكي أقوم بالتحقيقات الصحفية، ولكن ربما كنت قد ولدت لكي أعيش مع امرأة، فهل لم يكن هذا في الحسبان؟

وقال ريو: إن هذا على كل حال كلام معقول. ولم تكن شوارع وسط المدينة مزدحمة كما كانت من قبل، كان هناك بعض المارة يحثون الخطي نحو مساكنهم النائية، ولم يكن أحد يبتسم، وقد ظن ريو أن ذلك لم يكن إلا نتيجة لإعلان «رانسدوك» الذي كان موعده هذا اليوم، وقال في نفسه: «بعد مرور ثمان وأربعين ساعة سوف يبدأ مواطنونا في الأمل من جديد، أما اليوم، فالأرقام لا تزال طازجة في ذاكرتهم».

وبدأ رامبير يقول دون مناسبة:

- المسألة أننا - هي وأنا - قد تقابلنا منذ فترة غير بعيدة، ونحن جد متفاهمين.

ولم يقل ريو شيئاً، وأردف رامبير يقول:

- يبدو أنني أضايقك، ولكنني لم أرد أن أسألك إذا كنت تستطيع أن تعطيني شهادة تؤكد أنني لست مصاباً بهذا المرض المشؤوم، أعتقد أن هذا قد يفيدني.

وأوما ريو برأسه موافقاً. وفي هذه اللحظة كان غلام صغير قد ألقى بنفسه بين ساقيه، فأوقفه بلطف على قدميه، ثم استأنفا السير حتى وصلا

إلى ميدان السلاح. وكانت أغصان الأشجار وسعف النخيل تتدلى بلا حراك- في لونها الأشهب من تراكم الغبار- حول تمثال للجمهورية علته الأتربة والأقذار. وتوقفا عند قاعدة التمثال، وهنا ضرب ريو الأرض بقدميه الواحدة تلو الأخرى؛ ليزيل عنهما الأتربة البيضاء العالقة بهما، ثم نظر إلى رامبير الذي كانت قبعته مائلة إلى الخلف، وياقة قميصه مفكوكة الأزرار تحت رباط عنقه، ولحيته غير حليقة، إن كل هيئته تدل على الغضب والغيط، وقال:

- تأكد أنني أفهمك جيدًا، ولكن طريقتك في التفكير ليست سليمة، فأنا لا أستطيع أن أكتب لك هذه الشهادة؛ لأنني -في الواقع- لا أدري إذا كنت مصابًا بهذا المرض أم لا، وحتى لو لم تكن مصابًا به، فأنا لا أستطيع أن أجزم بأنك لن تلتقط العدوى في اللحظة التي تنحصر بين خروجك من مكثبي ودخولك المديرية.. وحتى لو..

وقال رامبير:

- حتى لو ماذا؟

- حتى لو أعطيتك هذه الشهادة، فلن تجديك شيئًا.

- لماذا؟

- لأنه يوجد في المدينة آلاف من الأشخاص الذين في مثل حالتك، ومع ذلك لا يمكن تركهم يخرجون.

- ولكن إذا لم يكونوا هم الآخرون مصابين بالطاعون؟

- ليس هذا سببًا كافيًا. نعم، إنني أعرف أنها قصة سخيفة، ولكنها

تتعلق بنا جميعًا، ويجب قبولها على علاتها.

- ولكنني لست من هذه المدينة.

- منذ الآن سوف تصبح - بكل أسف - من هذه المدينة كجميع من فيها.

وازداد انفعال أخينا، وقال:

- إنها مسألة إنسانية، أقسم لك على ذلك، قد تكون لا تعرف معنى الفراق بالنسبة لشخصين متفاهمين.

ولم يجب ريو على الفور، ثم قال: إنه يعتقد أنه يعرف معنى ذلك، وأنه يود من كل قلبه أن يعود رامبير إلى امرأته، وأن يجتمع شمل كل المحبين، ولكن هناك عوائق وقوانين، وهناك الطاعون، وأنه ليس في مقدوره إلا أن يعمل ما ينبغي عمله.

وقال رامبير:

- كلا، لا يمكنك أن تفهم ذلك؛ فأنت لا تتكلم إلا بلغة العقل، إنك تعيش في عالم المجردات.

ورفع الدكتور عينيه إلى تمثال الجمهورية، ثم قال: إنه لا يدري إذا كان يتكلم لغة العقل، ولكنه يتكلم لغة الواقع المؤكد، وكل من اللغتين تختلف عن الأخرى، وأعاد الصحفي عقد رباط عنقه، ثم قال:

- هل معنى ذلك أنه يجب عليّ أن أتصرف بطريقة أخرى؟

ثم أردف قائلاً - بشيء من التحدي -:

- ولكنني سأغادر هذه المدينة.

وأجاب الطبيب مرة أخرى بأنه يفهمه جيداً، ولكنه لا شأن له بذلك،
وهنا قال رامبير، وقد انفجر بغتة:

- بل لك شأن به، لقد أتيت إليك؛ لأنهم قالوا لي إنك ساهمت
بنصيب كبير في الإجراءات التي اتخذت، وظننت أنه في مقدورك
أن تحل - بالنسبة لحالة واحدة - ما ساهمت في ربطه، ولكن الأمر لا
يهمك؛ فأنت لا تفكر في أحد، ولم تعمل أي حساب لأولئك الذين
عذبهم الفراق.

وأقر ريو أن هذا صحيح من إحدى نواحيه، وأنه لم يشأ أن يدخل
ذلك في اعتباره، وقال رامبير:

- آه، أرى أنك تريد أن تتحدث عن المصلحة العامة، ولكن الصالح
العام يتكون من سعادة كل شخص على انفراد.

وقال الدكتور، وكأنه أفاق من بعض الشرود:

- على رسلك، فإلى جانب هذا، توجد أشياء أخرى، ولا ينبغي
للمرء أن يسرف في إصدار الأحكام، وأنت غير محق في غضبك، وإذا
استطعت أن تنجح في حل هذه المشكلة، كان ذلك مما يسعدني، وكل
ما في الأمر أن هناك أشياء يحرم عليّ فعلها بحكم مهنتي.

وهز الآخر متململاً، وقال:

- نعم ليس لي حق في أن أغضب، وهذا يكفي لأنني أضعت عليك
الكثير من الوقت.

وطلب منه ريو أن يطلعه على نتائج محاولاته أولاً فأول، وألا

يحمل له أي مودة؛ إذ لا بد أن تكون هناك نقطة يستطيعان أن يلتقيا فيها، وهنا بدأ القلق فجأة على رامبير، وقال بعد فترة صمت:
- أعتقد ذلك. نعم! أعتقد ذلك على الرغم مني، ومن كل ما قلت لي.

ثم بدا عليه التردد وهو يقول:

- ولكني لا أستطيع أن أفرك على رأيك.

وأنزل طرف قبعته على جبينه، وانصرف بخطى سريعة.

ورآه ريو يدخل الفندق الذي يسكنه جان تارو.

وبعد لحظة هز الطبيب رأسه... نعم، لعل الصحفي على حق في تعجله في العودة إلى السعادة، ولكن هل كان على حق في اتهامه، ولا سيما حين قال له: «أنت تعيش في عالم المجردات؟» هل تعتبر حقاً من قبيل المجردات تلك الليالي التي أمضاها في مستشفى حيث تضاعف شره الطاعون، ورفع عدد الضحايا إلى خمسمائة في الأسبوع؟ نعم، لقد كان هناك نصيب من المجردات، والبعد عن الواقع في تلك النكبة. ولكن إذا كانت المجردات قد أقبلت على قتلك، فلن يكون لك مناص من أن تحسب لها حساباً. وكان ريو يعلم جيداً أن ذلك لم يكن أيسر ما في الموضوع، لم تكن حتى الأمور اليسيرة -مثلاً- إدارة هذا المستشفى الإضافي الذي كلفوه بإدارته (ويوجد الآن ثلاثة مستشفيات إضافية)؛ فقد أمر بإعداد غرفة استقبال في قاعة تطل على قاعة الكشف، وكان في أرض هذه الغرفة تجويف امتلأ بالماء، فتكونت فيه بحيرة صغيرة، أعد

في وسطها جزيرة صغيرة من الآجر. وكان المريض ينقل إلى الجزيرة، ويجرد من ملابسه بسرعة، وتلقى ملابسه في الماء، وهنا يغسل وينشف ويغطي بقميص المستشفى الخشن، ثم يعرض على ريو. وكان بعد ذلك ينقل إلى إحدى القاعات. وقد اضطروا إلى استخدام الفناء المسقوف في إحدى المدارس، وهو الآن يحوي خمسمائة سرير تكاد كلها تكون مشغولة. وبعد استقبال الصباح -الذي يشرف عليه ريو بنفسه، وبعد القيام بتطعيم المرضى وشق الأورام- كان يتحتم عليه أن يراجع الإحصائيات، ثم يعود إلى استشارات ما بعد الظهر. أما في المساء، فكان يقوم بزياراته، ثم يعود إلى منزله في وقت متأخر من الليل، وقد لاحظت أمه في الليلة السابقة، وهي تقدم له برقية من زوجته، أن يديه ترتعدان، فقال لها:

- نعم، ولكني -بشيء من قوة الإرادة- سوف أتمكن من ضبط أعصابي أكثر من ذلك.

كان ريو قوي البنية شديد المقاومة، ولم يكن في الواقع قد أدركه التعب بعد، ولكنه ضاق ذرعًا بهذه الزيارات التي كان يقوم بها، فتشخيص الحمى البوائية معناه حجز المريض بسرعة، وهنا تبدأ المجردات والصعوبات الحقيقية؛ لأن أسرة المريض تعلم أنها لن تراه إلا معافى أو ميتًا. وفي ذات مرة قالت السيدة لوريه -أمام الخادمة التي كانت تعمل في فندق تارو-: «الشفقة يا دكتور!» ما معنى ذلك؟ لا شك في أنه يشعر بالشفقة، ولكن هذا لم يكن ليفيد أحدًا؛ ذلك أنه يجب عليه أن يخطر تليفونيًا عن وجود الحالة، فيسمع بعد قليل رنين عربة الإسعاف. وفي

أول الأمر كان الجيران يفتحون نوافذهم وينظرون. أما بعد ذلك، فكانوا يحكمون إغلاقها، وحينئذ تبدأ المقاومة والدموع ومحاولة الإقناع، وباختصار تبدأ المجردات. وكانت تقع في هذه البيوت -التي أنهكتها حرارة الحمى والقلق- بعض المشاهد الجنونية، وكان المريض ينتهي رغم ذلك بأن ينقل، وبعد ذلك يستطيع ريو أن ينصرف.

وفي أول الأمر كان يكتفي بالإخطار التليفوني، ثم يسرع بالذهاب لعيادة مرضى آخرين دون أن ينتظر سيارة الإسعاف. ولكن كان يحدث أن يغلق أهل المريض الأبواب، ويفضلوا الحياة على انفراد مع الطاعون، على فراق أصبحوا يعرفون الآن جيدًا نهايته، وعندئذ كان يقوم الصراخ والأوامر وتدخل الشرطة، وفيما بعد كان يؤدي الأمر إلى استخدام القوات المسلحة، ثم في نهاية الأمر يؤخذ المريض عنوة؛ ولذلك كان يضطر ريو في الأسابيع الأولى إلى المكوث حتى حضور سيارة الإسعاف، وبعد ذلك أصبح من الضروري أن يصحب كل طبيب مفتش متطوع، ومن ثم يتمكن ريو من أن يسرع من مريض إلى آخر، ولكن في البداية كانت كل الأمسيات تنقضي على نحو ذلك المساء الذي دخل فيه عند السيدة لوريه في جناحها الصغير المزدان بالمراوح والزهور الصناعية، فقد استقبلته الأم، وهي تقول بابتسامة لم تحسن تكلفها:

- أتعشم ألا تكون تلك الحمى التي يتحدث عنها الجميع. أما هو فقد رفع الغطاء والقميص، وراح يتأمل البقع الحمراء على البطن والفخذين، والتهاب العُقد، وكانت الأم تنظر بين ساقَي ابنتها، وهي تصرخ، دون أن تتمكن من السيطرة على نفسها. نعم في كل مساء

كانت هناك أمهات يصرخن هكذا، وعليهن سيما الذهول أمام بطون
ظهرت أمامهن بكل ما تحمل من أعراض مميتة. في كل مساء كانت
هناك أذرع تتعلق بذراعي ريو، وكلام كثير لا فائدة منه، ووعود، ودموع
غزيرة تُذرف، وفي كل مساء كان يتسبب رنين جرس سيارة الإسعاف
في أزمات لا طائل من ورائها، ولكنها لا تكف عن الاشتعال، وفي نهاية
هذه السلسلة الطويلة من الأمسيات المتشابهة، لم يكن لريو أن يتوقع
غير سلسلة طويلة من المشاهد المتشابهة تتجدد بلا نهاية. نعم، فقد كان
الطاعون - كالمجردات - رتيب النغم، وربما لم يكن هناك سوى شيء
واحد يتغير، وهو ريو نفسه. لقد أحس بذلك هذا المساء، وهو عند
قاعدة تمثال الجمهورية غير شاعر بشيء سوى عدم الاكتراث العسير
الذي بدأ يملأه، وقد راح ينظر باستمرار إلى باب الفندق الذي اختفى
فيه رامبير.

وفي نهاية تلك الأسابيع المزعجة، بعد كل هذه الأماسي - التي
كانت تفرغ فيها المدينة سكانها لكي يلفوا ويدوروا في الشوارع - فهم
ريو أنه ليس له أن يدافع عن نفسه في اتهامه بعدم الشفقة، فالمرء يتعب
من الشفقة عندما تصبح غير ذات جدوى.

وعندما شعر الدكتور بقلبه يغلق من دونه أبوابه شيئاً فشيئاً، وجد
في ذلك الشفاء الوحيد من ثقل تلك الأيام المضنية، فقد أدرك أن مهمته
أسهل من ذي قبل، ولذلك شعر بالارتياح، وكانت أمه عندما تستقبله
في الثانية صباحاً، تفرغ لتلك النظرة الخاوية التي يلقيها عليها، ومعنى
ذلك أنه قد ساءتها تلك الراحة الوحيدة التي كان من الممكن أن يحصل

عليها؛ ذلك أننا لكي نقاوم المجردات، يجب علينا أن نتشبه بها بعض الشيء. ولكن أنى لرامبير أن يحس ذلك؟ فالمجرد لم يكن بالنسبة له إلا كل ما يقف حجر عثرة في سبيل سعادته. وفي الحقيقة كان ريو يعلم أن الصحفي على حق - إذا نظرنا للأمر على نحو ما - ولكنه كان يعرف أيضًا أن المعاني المجردة قد تبدو أحيانًا في صورة أقوى من السعادة، وحينئذ - حينئذ فقط - يجب أن يعمل له حسابه، وهذا ما كان لا بد أن يحدث لرامبير. وقد عرف ريو ذلك بالتفصيل، عندما قص عليه رامبير ما في نفسه فيما بعد؛ وهكذا تمكن الدكتور من أن يتابع - بطريقة جديدة - هذا النوع من الكفاح الواجم بين سعادة كل شخص ومجردات الطاعون، هذا الكفاح الذي انحصرت فيه حياة المدينة بأسرها خلال تلك الفترة الطويلة.



ولكن ما قد يراه البعض معنى مجردًا، قد يراه بعضًا آخر أمرًا حقيقيًا؛ فقد كانت نهاية الشهر الأول للوباء نهاية مظلمة؛ بسبب ازدياد حدة الوباء زيادة ملحوظة، وبسبب المواعظ العنيفة التي دأب على إلقائها الأب پانلو اليسوعي الذي كان قد أخذ بيد ميشيل العجوز في بداية مرضه. وكان الأب پانلو ذائع الصيت بسبب اشتراكه في مجلة الجمعية الجغرافية بوهران؛ إذ إنه كان حجة في فك طلاسم النقوش، ولكن سلسلة المحاضرات التي ألقاها عن «الفردية الحديثة» جلبت له جمهورًا أكبر مما كان يجلب له موضوع تخصصه، وقد دافع پانلو في هذه المحاضرات بحرارة عن المسيحية من وجهة نظر منطقية من شأنها أن تنأى عن الإباحية الحديثة بقدر ما تنأى عن معميات القرون الماضية، وفي هذه المناسبة لم يأل جهدًا في إطلاع مستمعيه على الحقائق المرة، ومن هنا كانت شهرته.

وعندما قارب هذا الشهر نهايته، قررت السلطات الدينية في المدينة مقاومة الطاعون بوسائلها الخاصة، وذلك بتخصيص أسبوع للصلوات الجماعية، وقد اختتمت هذه المهرجانات الدينية العامة في يوم أحد بقداس مهيب تحت رعاية القديس سان روش الذي مات بالطاعون. وبهذه المناسبة طُلب من الأب پانلو أن يلقي كلمة، وكان هذا الأخير

قد اضطر مرغمًا -طيلة الأيام الخمسة عشر السابقة- إلى ترك دراساته عن القديس أوغسطين والكنيسة الأفريقية التي جعلت له مكانًا مرموقًا في نظامها. ولما كان يأنلوا ذا طبيعة مندفعة حامية، فقد قبل تلك الرسالة التي كلف بها بكثير من العزم والتصميم، وقد ظل الناس يتحدثون عن هذه الخطبة الوعظية وقتًا طويلاً قبل موعدها. والواقع أنها تسجل، على طريققتها، تاريخًا خاصًا في هذه الفترة من قصة الوباء.

وقد كان إقبال الناس على أسبوع الصلاة هذا كبيرًا، ولم يكن هذا لأن سكان وهران كانوا يتميزون في أوقاتهم العادية بالتقوى والورع، فإن حمامات البحر كانت تنافس القديس في صبيحة الأحد منافسة قوية، ولم يكن هذا أيضًا لأن الناس قد رجعوا فجأة إلى دينهم، ولكنه كان يرجع من جهة إلى إغلاق المدينة، وحظر دخول الميناء، مما منع حمامات البحر، ومن جهة أخرى إلى أن الناس كانوا في حالة ذهنية خاصة شعروا فيها جيدًا بأن شيئًا مهمًا قد تغير تغيرًا لا شك فيه، وإن لم يكونوا قد قبلوا تلك الأحداث المذهلة التي حلت بهم قبولًا حسنًا ومن أعماق نفوسهم. ومع ذلك فقد ظل الكثيرون يأملون في أن يتوقف الوباء وأن ينجوا منه هم وذووهم. ومن ثم فإنهم لم يكونوا قد شعروا بعد بأنهم مدينون بشيء. لم يكن الطاعون بالنسبة لهم سوى زائر ثقيل لا بد أن يرحل يومًا من الأيام كما جاء. نعم، إنهم كانوا خائفين، ولكنهم لم يكونوا يائسين، ولم تكن قد حلت بعد اللحظة التي سيبدو لهم فيها الطاعون كما لو كان هيكلاً حياتهم نفسها، فينسيهم طريقة حياتهم التي ساروا عليها حتى الآن. وقصارى القول إنهم كانوا في حالة انتظار. أما

بالنسبة للدين كما بالنسبة لكثير من المشاكل الأخرى، فإن الطاعون كان قد كيف عقولهم تكييفًا غريبًا، فباعد بينهم وبين عدم الاكتراث بقدر ما باعد بينهم وبين التحمس، تكييفًا يمكن تحديده تحديدًا لا بأس به بكلمة «الموضوعية» وكان في وسع أغلبية الذين تتبعوا أسبوع الصلوات أن يتبنوا الدعوى التي عرضها أحد المتدينين أمام الدكتور ريو، والتي تنبني على الفكرة القائلة: «مهما يكن من شيء، فإنه لا يمكن أن ينتج عن ذلك أي ضرر». وإن تارو نفسه الذي كان قد دَوّن في مفكرته أن من عادة الصينيين في مثل هذه الحالة أن يدقوا الطبول أمام عفريته الطاعون، عاد فلاحظ أنه من المستحيل أن نعرف، في الحقيقة، أيهما أجدى وأنفع: دقات الطبول أم الإجراءات الوقائية. وأضاف أنه يجب، لكي نقطع في الموضوع برأي، أن تكون لدينا معلومات عما إذا كانت عفريته الطاعون موجودة حقًا أم لا، وإن جهلنا بهذه النقطة يُضرب على كل آرائنا في هذا الموضوع بالعقم.

ومهما يكن من شيء، فقد غصت كاتدرائية مدينتنا بالمؤمنين طوال هذا الأسبوع؛ ففي الأيام الأولى كان الكثيرون من السكان يفضلون البقاء في حدائق النخيل والرمال التي تمتد أمام المدخل؛ ليستمعوا إلى تلك الأمواج الدافقة من الابتهالات والأدعية التي كانت تصل إلى الشوارع، ثم اقتفوا أثر الآخرين شيئًا فشيئًا، وقرروا الدخول، وأخذوا يخلطون أصواتهم في خجل بأصوات الحاضرين لترديد الأدعية. وفي يوم الأحد احتل جمهور كبير قاعة الكنيسة، وامتد حتى الميدان الخارجي والدرجات الأخيرة من السلم، وكانت السماء قد اكفهرت منذ الليلة

الماضية، وهطل المطر مدرارًا، فنشر الذين بقوا في الخارج مظلاتهم، وانتشرت رائحة البخور، مختلطة برائحة الأثواب المبتلة في الكاتدرائية التي اعتلى الأب پانلو منبرها.

كان متوسط الطول ولكنه كان بدينًا، وعندما استند على حافة المنبر، وقبض بيديه الكبيرتين على خشبها، لم يكن يُرى منه سوى هيكل أسود سميك تعلوه بقعتان هما خداه المحمران تحت نظارته المصنوعة من الصلب. كان صوته جهوريًا يشتعل بالحماس، ويصل إلى مدى بعيد. وعندما انهال على مستمعيه بتلك الجملة الوحيدة العنيفة المتقطعة النبرات «إخوتي، ها أنتم أولاء ترزحون في التعاسة، إخوتي إنكم تستحقونها»، سرت في الحضور مهمة امتد سريانها حتى الباب الكبير.

أما ما تلا ذلك من الخطبة، فلم يكن من الناحية المنطقية يتصل بهذه المقدمة المؤثرة، ولكن نهاية الخطاب هي وحدها التي أفهمت مواطنينا أن الأب پانلو لجأ إلى وجه لبق من أوجه الخطابة، فأوضح موضوع وعظه بأجمعه في كلمة واحدة، كما لو كان يصوب إحدى الضربات، وبعد تلك الجملة مباشرة استشهد پانلو بنص التوراة الخاص بالطاعون في مصر فقال: «كانت أول مرة ظهر فيها هذا الوباء في التاريخ لمحاربة أعداء الله، فقد وقف فرعون في وجه الإرادة الخالدة، فاضطره الطاعون إلى أن يجثو على ركبتيه، ومنذ بداية كل تاريخ كان الوباء يضطر المختالين والمتعامين إلى أن يركعوا على ركبتهم، فكروا في ذلك جيدًا، وخروا ساجدين».

وكان المطر يزداد انهماكاً في الخارج عندما نطق القس بهذه الجملة وسط السكون المطلق، فكان وقعها أشد وأقوى وسط دقات المطر على لوحات الفسيفساء، لقد كان لها رنين جعل بعض المستمعين ينزلقون -بعد قليل من التردد- من مقاعدهم إلى كراسي الركوع، وظن الآخرون أن من واجبهم أن يحذوا حذوهم، ومن دون أن تحدث أي ضجة -سوى صوت بعض المقاعد وهي تتخبط- وجد جميع الحضور أنفسهم وقد جثوا على ركبهم، وهنا رفع پانلو هامته، وأخذ نفساً عميقاً، ثم استأنف خطابه بلهجة تزداد نبراتهما وضوحاً، فقال: «إذا كان الطاعون يوجه إليكم أنظاره اليوم، فما ذلك إلا لأن وقت التفكير قد حان، والصالحون لا يخشون ذلك، أما الشريرون فلهم أن يرتعدوا فرقاً، فالعالم الآن بمثابة خزانة هائلة للغلال، ولسوف يضرب الطاعون القمح البشري حتى يفصل منه القش عن الحب، وسيكون القش أكثر من الحب، وعدد الذين يدعوهم إليه أكثر من عدد الناجين. إن الله لم يرد هذا الشر بالناس؛ فإن هذا العالم طالما أوضع في الشر معتمداً على رحمة الله، كان الناس يسمحون لأنفسهم بارتكاب كل شيء، ثم يكتفون بالندم وطلب المغفرة، وكان الجميع يشعرون بالقدرة على الندم وطلب الغفران، وكانوا لا يتكلمون عنه إلا إذا جاء أوانه، أما قبل هذا الأوان، فقد كان من اليسير عليهم أن ينساقوا وراء شهواتهم، تاركين لرحمة الله تدبير ما بعد ذلك، ولكن لم يكن من الممكن أن تستمر هذه الحال، فالله الذي أطل على الناس في هذه المدينة بوجه هو الشفقة بعينها قد مل الانتظار، وصدم في أمله الخالد، وأشاح عنهم بوجهه، وها

نحن أولاء، بعد أن حُرمننا من النور الإلهي، نتخبط -ولوقت طويل- في دياجير الطاعون».

وهنا أخذ الحاضرين يسهل من الهلع كحصان نفد صبره، وبعد لحظة صمت قصيرة استأنف الأب كلامه بصوت أكثر انخفاضاً، فقال: «نقرأ في الأسطورة الذهبية، أنه حدث في زمن الملك همبرت في لمارديا أن اجتاحت إيطاليا طاعون عنيف إلى حد جعل الأحياء لا يكادون يكفون لدفن الموتى، وقد استقر هذا الطاعون بصفة خاصة في روما وبافي، وقد رأى الناس رأي العين ملكاً خيراً يصدر الأوامر للملاك الشرير -الذي كان ممسكاً بصولجان صيد- ويأمره بأن يدق على المنازل، وكان عدد الموتى الذين خرجوا من كل منزل يعادل عدد الدقات التي أصابته».

وكان يأنلو في هذا الوقت يمد ذراعيه في اتجاه الباب الكبير، كما لو كان يريد أن يرى الناس شيئاً من خلف الستار المهتز من وقع المطر، ثم قال بصوت قوي: «إخوتي، إنه نفس الصيد القاتل الذي يحدث الآن في شوارعنا، انظروا إلى ملك الطاعون هذا، إنه جميل جمال الشيطان، وله بريق كبريق الشر نفسه، وقد وقف فوق أسطح منازلكم، وأمسك بيده اليمنى العصا الحمراء، ورفعها حتى مستوى الرأس، في حين أن يده اليسرى تشير إلى أحد منازلكم، وقد تكون أصبعه في هذه اللحظة تشير إلى بابكم، وعصاه تدق على خشب الباب، في هذه اللحظة أيضاً يدخل الطاعون بيتكم، ويجلس في غرفتكم منتظراً أوبتكم. إنه هناك، ينتظر في صبر وأناة، وهو واثق من نفسه وثوق هذا العالم من نظامه،

وهذه اليد التي يمدّها إليكم، اعلموا جيّدًا أنّه لا توجد في الأرض ولا في العلوم البشرية التافهة قوة تستطيع أن تجعلكم بمنجاة منها، وهكذا سوف يضربكم الطاعون كما يُضرب القمح على جرن الألم الملطخ بالدماء، ثم يُلقى بكم مع القش».

ثم تابع الأب -بمزيد من الإيضاح والتفصيل- وصف تلك الصورة المؤثرة للوباء، فصور قطعة الخشب الهائلة التي تلف وتدور فوق المدينة تخطط خبط عشواء، ثم ترتفع ثانية وقد لطختها الدماء، وتستمر تبعر الدم والألم البشري من أجل «بذر ينتهي بحصاد الحقيقة».

وفي نهاية جملة الطويلة توقف -الأب پانلو- وقد تدلى شعره فوق جبينه، وسرت في جسمه رعدة نقلتها يده إلى المنضدة التي أمامه، ثم استأنف بصوت أكثر احتباسًا، ولكن بلهجة الاتهام، فقال: «نعم، لقد حانت ساعة التفكير، لقد ظننتم أنه يكفي أن تزور الله يوم الأحد، ثم بعد ذلك تصبحون أحرار التصرف في كل أيامكم، لقد ظننتم أنه يكفي منكم ببعض ثنيات من ركبكم ثمنًا لإثم عدم المبالاة، ولكن الله لا يتهاون، فهذه الاتصالات المتباعدة لا يمكن أن تشبع حنانه النهم. لقد كان يريد أن يراكم وقتًا أطول، تلك هي طريقته في حبكم، وتلك -في حقيقة الأمر- هي الطريقة الوحيدة للحب، ومن ثم فقد مل انتظار أوبتكم، وترك الوباء يزوركم كما زار كل المدن الآثمة منذ كان للناس تاريخ، وها أنتم الآن قد عرفتم معنى الخطيئة كما عرفها قابيل وأبناؤه، وكما عرفها من كانوا من قبل الطوفان، وكما عرفها قوم لوط، وكما عرفها فرعون وأيوب، وكل من وجبت عليهم اللعنة.

وسيحادث لكم ما حدث لهؤلاء جميعًا، ستنظرون إلى المخلوقات والأشياء نظرة جديدة ابتداء من ذلك اليوم الذي أغلقت فيه هذه المدينة أبوابها عليكم وعلى الوباء، إنكم تعرفون الآن -وفي نهاية الأمر- أنه يجب الرجوع إلى ما هو جوهرى.

وفي تلك اللحظة هبت ريحة رطبة على صحن الكنيسة، وأخذت نيران الشموع تتمايل وتحدث أزيزًا، ووصلت رائحة الشمع القوية، وأصوات السعال والعطش إلى الأب بانلو الذي عاد إلى عرضه بلباقة استحوذت على إعجاب الناس، فقال بصوت هادئ: «أعرف أن الكثيرين منكم يتساءلون بحق إلى أين أريد أن أصل بكم؟ أريد أن أصل بكم إلى الحقيقة، وأعلمكم أن تبتهجوا رغم كل ما قلت، فقد مضى الوقت الذي كانت فيه النصائح والعون الأخوي هما الوسيلة لدفعكم إلى الخير. أما اليوم، فالحقيقة أمر يصدر إليكم، وطريق الخلاص هو العصا الحمراء التي ترشدكم إليها وتدفعكم إليها. وهنا، أيها الإخوة، تتجلى رحمة الله التي وضعت في كل شيء الخير والشر، الغضب والشفقة، الطاعون والخلاص، فهذا الوباء نفسه الذي يدمي قلوبكم الآن هو الذي سيسمو بكم، ويرىكم الطريق».

«منذ زمن طويل كان مسيحيو الحبشة يرون في الطاعون وسيلة فعالة مرسله من الله للوصول إلى الخلود، فكان من لم يصب منهم يلف نفسه بأغطية المصابين؛ لكي ينتهي بالموت على وجه التحقيق، ولا شك في أنه لا يوصي أحد بهذا الغلو في سبيل الخلاص، فهو يدل على اندفاع مؤسف يقرب إلى حد كبير من الغرور. فلا ينبغي أن نكون أكثر تعجلًا

من الله، وكل ما يشتم منه استعجال النظام الثابت الذي وضعه سبحانه منذ الأزل ليظل إلى الأبد لا يؤدي إلا إلى الكفر. ولكن هذا المثل يقدم لنا درسًا نافعًا، فهو يجسم أمام عقولنا المستتيرة نور الخلد الهنيء الذي يكمن في كل ألم، فهذا النور هو الذي يضيء الطريق الغاسقة التي تقود إلى الخلاص، وهو الذي يظهر إرادة السماء واضحة جليلة، تلك الإرادة التي تحول الشر إلى خير في غير ما ضعف أو وهن، وهو أيضًا الذي يقودنا اليوم خلال طريق الموت والقلق وصيحات الهلع نحو السكون الضروري ونحو جوهر كل حياة. هذا أيها الإخوة هو العزاء الأكبر الذي أردت أن أوجه إليكم حتى لا يكون حديث العقاب هو كل ما تحملون معكم من هنا، وحتى يتأتى لكم أيضًا بعض الحديث المطمئن».

وهنا أحس الناس أن حديث پانلو قد انتهى، وكان المطر في الخارج قد كفَّ عن الهطول، وأخذت السماء التي اختلط فيها المطر بالشمس ترسل إلى المكان نورًا أكثر شبابًا وقوة، وتساعد من الشارع ضجيج الأصوات، وانزلاق العربات، وكل ما تحويه لغة مدينة تستيقظ. وأخذ المستمعون يجمعون أشياءهم في رفق محدثين شيئًا من الضوضاء المكتومة، ولكن الأب پانلو استأنف كلامه، وقال: إنه ينهي خطابه بعد أن بين المصدر الإلهي للطاعون، وما له من صفة العقاب، وأنه لن يلجأ في ختام كلامه إلى بلاغة قد لا تكون في موضعها؛ إذ إنها تتعلق بأمر محزن، وقد بدا له أن الأمر أصبح واضحًا للجميع، ولكنه أراد -فقط- أن يذكرهم بأن المؤرخ متى ماريه قد اشتكى -بمناسبة طاعون مارسيليا الكبير- من أنه قد انغمس في الجحيم، وعاش هكذا دون معونة ولا

أمل. حسن! لقد كان متى ماريه أعمى! أما الأب پانلو، فعلى العكس من ذلك، لم يشعر بمعونة السماء، ولا بالأمل المسيحي اللذين منحهما الله للجميع كما شعر بهما اليوم، وراح يرجو المواطنين -فوق كل رجاء، ورغم بشاعة هذه الأيام، وما امتلأت به من صيحات المحتضرين- أن يوجهوا إلى السماء الكلمة المسيحية الوحيدة، كلمة الحب، أما ما تبقى، فالله وحده كفيل به.



هل كان لهذا الواعظ تأثير على مواطنينا؟ من الصعب تحديد ذلك، أما السيد أوتون -قاضي التحقيق- فقد قال للدكتور ريو: إن الحجج التي قدمها الأب پانلو في خطابه لا يمكن تنفيذها، ولكن غيره من الناس لم يكن لهم رأي واضح هذه الدرجة من الوضوح؛ فكل ما في الأمر أن الخطبة قد قربت إلى قلوب البعض تلك الفكرة التي كانت لا تزال غامضة، وهي أنهم مقضي عليهم بسجن لا يمكن تصور مداه من أجل جريمة غير معروفة، وإذا كان البعض قد استمروا في حياتهم البسيطة، وتكيفوا بحياة المعزل، فقد ظل البعض الآخر -على العكس من ذلك- لا يفكر إلا في الهرب من هذا السجن.

فقد كان الناس قد قبلوا -في أول الأمر- أن تنقطع صلتهم بالخارج، كما يقبلون أي مضايقة مؤقتة لا تعرقل إلا بعضاً من عاداتهم، ولكنهم -فجأة- تنبهوا إلى هذا النوع من الحجر تحت سماء بدأ صيفها يلفحهم بحرّه، وحيث تولد عندهم شعور غامض بأن هذا السجن الضيق يهدد حياتهم بآجمعها، فكانوا إذا ما حل المساء انغمسوا في بعض الأعمال اليائسة تحت تأثير النشاط الذي كان يبعثه فيهم نسيم الليل البارد.

وقد حدث أول ما حدث أن أخذت المدينة ابتداء من هذا الأحد

-ولا ندري إذا كان ذلك لمجرد المصادفة أم لا- يعمها كلها تقريباً نوع من الخوف بلغ من العمق حدًا يجعلنا نظن أن مواطنينا قد بدأوا حقاً يتنبهون إلى خطورة وضعهم، وقد أدى هذا الشعور إلى شيء من التغير في جو مدينتنا، ولكن أكان التغير في الجو أم في القلوب؟ هذه هي المسألة.

وبعد الوعظ بأيام قلائل، بينما كان ريو يعلق على هذا الحدث مع جران، وهما في طريقهما ليلاً نحو بعض الأحياء الخارجية، اصطدم ريو بشخص يترنح أمامهما دون أن يحاول التقدم، وتصادف في هذه اللحظة أن ازداد ضوء مصابيح الشوارع التي كانت تضاء في وقت يزداد كل يوم تأخرًا. وفجأة أرسل المصباح الأعلى الموضوع خلفها شعاعه، فغمر الرجل بالضوء. لقد كان الرجل يضحك في صمت تام وهو مغمض العينين، وكان العرق يتصبب على وجهه الأبيض الشاحب في قطرات كبيرة، وقد تقلص وجهه بسبب هذه الموجة من الضحك الصامت، وواصل ريو وجران سيرهما، فقال هذا الأخير:

- إنه مجنون.

وكان ريو قد أمسك بذراع جران ليحثه على السير، ف شعر برعدة عصبية تسري في أوصال هذا الموظف، فقال له:

- بعد قليل لن يكون بين ظهرانينا سوى مجانين.

وشعر ريو بجفاف حلقه الذي ساعد عليه التعب، فقال:

- هيا نشرب شيئاً.

ودخلا مقهى صغيراً يضيئه مصباح واحد وُضع فوق العداد، فوجدا الناس يتحدثون بصوت منخفض، دون سبب ظاهر، وسط هذا الهواء الكثيف المائل للحمرة، ولشد ما دهش الطيب حينما رأى جران يطلب مشروباً روحياً ويشربه دفعة واحدة، ويقول: إنه مشروب قوي، ثم يرغب بعد ذلك في الخروج، وفي الخارج بدا كما لو كان الليل مليئاً بالأثين. وقد قرع مسمعه نوع من الصفير منبعث من مكان ما من السماء الحالكة فوق المصابيح، فذكره ذلك بالوباء الخفي الذي كان يهز الهواء الساحق هذا لا يعرف الكلال.

وهنا قال جران:

- من حسن الحظ، من حسن الحظ...

وسأله ريو عما يقصد بذلك، فقال:

- من حسن الحظ أن لديّ عملي.

وقال ريو:

- نعم، هذه ميزة.

ولكي يكف عن الإصغاء إلى هذا الصفير، سأل جران عما إذا كان راضياً عن عمله.

- نعم، أعتقد أنني أسير في الطريق الصحيح.

- ألا يزال أمامك وقت طويل لإتمامه؟

وبدا على جران الاهتمام، وسرت حرارة الشراب في صوته، وهو

يقول:

- لا أدري، ولكن ليست هذه هي المسألة يا دكتور، كلا ليست هذه هي المسألة.

وخيّل إلى ريو في الظلمة الحالكة أن جران يهز ذراعيه، ويبدو عليه أنه كان يعد شيئاً في ذهنه، وقد انطلق به فجأة وبغزارة.

- إن ما أريده يا دكتور، هو أنه عندما يصل المخطوط إلى الناشر، يهب واقفاً بعد قراءته، ويقول لمعاونيه: «أيها السادة ارفعوا قبعاتكم».

ودهش ريو لهذا الاعتراف المفاجئ، وخيّل إليه أن رفيقه قد قام بحركة نزع القبعة، فرفع يده إلى رأسه، ومد ذراعه في وضع أفقي، وهنا بدا الصغير الغريب، وكأنه قد بدأ من جديد بمزيد من القوة، واستمر جران يقول:

- نعم، ينبغي أن يبلغ درجة الكمال.

وعلى الرغم من أن الدكتور ريو كان يجهل وسائل أهل الأدب وعاداتهم، فقد خيّل إليه أن الأمور لا تمر بهذه البساطة، وأن الناشرين في مكاتبهم مثلاً، يعملون حاسري الرؤوس، ولكن لما لم يكن من الممكن الجزم بذلك، فقد فضل ريو أن يظل صامتاً، وراح على الرغم منه يرهف سمعه لاهتمامات الطاعون الغامضة، واقتربا من الحي الذي يسكنه جران، ولما كان هذا الحي مرتفعاً بعض الشيء، فقد كانت تهب عليه نسيمات خفيفة أنعشتهم، وفي الوقت نفسه خلت المدينة من وضائها. واستمر جران مع ذلك يتكلم دون أن يفهم ريو كل ما كان يقوله له هذا الرجل الطيب، كل ما فهمه أن المؤلف المذكور أصبح يتكون من صفحات كثيرة، ولكن كاتبه كان لا يزال يبذل جهداً مضنياً

ليصل به إلى درجة الكمال «إنني أقضي ليالي وأسابيع طوَالاً أبحث عن كلمة... وأحياناً عن مجرد أداة وصل». وهنا توقف جران، وأمسك الطبيب من أحد أزرار معطفه، وأخذت الكلمات تخرج متعثرة من فمه الأدرد، وهو يقول:

- أرجو أن تفهم هذا جيداً يا دكتور، فقد يكون من السهل المفاضلة بين «لكن» و«و» ولكن من الصعب أن تفاضل بين «و» و«ثم» ويزداد الأمر صعوبة إذا كانت المفاضلة بين «ثم» و«بعد ذلك». ولكن ما هو أشد من كل هذا تعقيداً - بلا شك - هو معرفة ما إذا كان يجب استعمال «و» أم لا يجوز.

وقال ريو:

- نعم أفهم ذلك.

وواصل سيره. أما جران، فكان يادي الاضطراب، ثم رجع إلى طبيعته من جديد، وتمتم قائلاً:

- أرجو المَعذرة، فلست أدري ماذا دهاني هذا المساء!

وربت ريو بلطف على كتفه، وقال: إنه يود مساعدته، وإن قصته تهمه كثيراً، فعاد الاطمئنان إلى قلبه، ولما وصل إلى باب منزله، تردد قليلاً، ثم عرض على الطبيب أن يصعد معه لحظة، وقبل ريو تلك الدعوة.

وفي غرفة المائدة دعاه جران إلى الجلوس أمام منضدة مغطاة بأوراق مليئة بالشطب، ومكتوبة بخط دقيق تحتاج قراءته إلى مجهر،

وقال للطبيب الذي وجه إليه نظرة متسائلة:

- نعم هذا هو، ولكن هل لك في شيء من الشراب؟ إن لديّ القليل من النبيذ.

ورفض ريو، وظل ينظر إلى الأوراق.

فقال جران:

- لا تنظر إليها، إنها أول جملة أكتبها، إنها ترهقني كثيرًا، كثيرًا جدًا.

وكان هو أيضًا لا يكف عن تأمل كل هذه الأوراق، ويبدو أن يده لم تستطع مقاومة إغراء إحدى هذه الصفحات، فرفعها أمام مصباح المكتب الذي لا غطاء له، وكانت الورقة ترتعد في يده، ولاحظ ريو أن جبين هذا الموظف قد تندى بالعرق، وقال له:

- اجلس، واقراها لي!

فنظر إليه جران مبتسمًا بشيء من الاعتراف بالجميل، وقال:

- نعم، أعتقد أنني أود ذلك.

وتمهل قليلًا وهو يواصل النظر إلى الورقة، ثم جلس.

وفي نفس هذا الوقت كان ريو يسمع نوعًا من الطنين الغامض الذي يشبه أن يكون ردًا على صفير الوباء في المدينة.

وفي تلك اللحظة بالذات تمثلت أمامه بوضوح صورة المدينة التي تمتد تحت قدميه، وصورة العالم المغلق الذي تكونه، وصورة الصيحات المروعة التي تكتبها في ظلام الليل، وارتفع صوت جران مكتومًا وهو

يقرأ: «في صباح جميل من أيام شهر مايو، كانت هناك فارسة جميلة تمتطي فرسًا حمراء، وتجوب بها شعاب غابة بولونيا المزهرة»، وهنا عاد الصمت، وعاد معه طنين المدينة المعذبة، وأعاد جران وضع الورقة على المنضدة، واستمر يتأملها، وبعد لحظة رفع عينيه، وقال:

- ما رأيك؟

وأجاب ريو بأن هذه البداية قد أثارت عنده الاستطلاع لمعرفة البقية، ولكن جران قال: إن وجهة النظر هذه ليست هي الوجهة الجيدة، ثم ضرب الأوراق براحة يده، واستمر يقول:

- ليس هذا إلا تعبيرًا تقريبيًا، وعندما أصل إلى التعبير التام عن اللوحة التي كونتها في مخيلتي، وعندما تصبح جملةتي صورة طبق الأصل من هذا السير الخب: واحد- اثنين- ثلاثة- واحد- اثنين- ثلاثة-، حينئذ يسهل إتمام الباقي، لا سيما وأن الخداع سيكون شديدًا منذ البداية إلى حد أنه يمكن أن يقال: «ارفعوا قبعاتكم».

ولكن إذا كان المؤلف يصر على الوصول إلى هذه الدرجة، فإنه لا يزال أمام الخباز الكثير من العجين الذي يتطلب النضج؛ ذلك أنه لن يقبل أبدًا أن يعهد بهذه الجملة كما هي إلى المطبعة؛ لأنها إذا كانت توحى إليه بشيء من الارتياح في بعض الأحيان، فإنه يدرك -على الرغم من ذلك- أنها لا تنطبق تمامًا على الحقيقة الواقعة، من طابع السهولة النسبية الذي تتسم به، مما يجعلها تشبه الجمل المحفوظة شبهًا بعيدًا، ولكنه شبه على أي حال. هذا -على الأقل- مضمون ما كان يقول جران، عندما سمع الاثنان أشخاصًا يعدون تحت النافذة، ونهض ريو واقفًا.

وقال جران:

- سوف ترى ما سأفعل بها. والتفت ناحية النافذة، وأضاف: «متى ينتهي كل هذا!».

ولكن تلك الخطوات المندفعة استأنفت وقعها من جديد، وكان ريو قد نزل فعلاً إلى الشارع، عندما مر أمامه رجلان، وكان من الواضح أنهما يتجهان نحو أبواب المدينة؛ ذلك أن بعض مواطنينا كانوا في الواقع قد فقدوا عقولهم تحت تأثير الحر والطاعون، فأخذوا يلجؤون إلى العنف، ويحاولون أن يحتالوا على يقظة نطاقات الحراسة ليهربوا من المدينة.



كذلك حاول آخرون -مثل رامبير- أن يهربوا من هذا الجو المذعور، ولكن بمزيد من التصميم والبراعة، وإن لم يكن بمزيد من التوفيق، وكان رامبير قد استمر -في بادئ الأمر- يوالي مساعيه الرسمية، وقد كان يظن -على حد قوله- أن التصميم لا بد وأن ينتهي دائماً بالانتصار على كل شيء، وأن التحايل من خصائص مهنته على نحو ما. وهو لذلك، كان قد زار عددًا كبيرًا من الموظفين والأشخاص الذين لا يشك عادة في خبرتهم، ولكن هذه الخبرة لم تجدهم شيئًا في هذه المسألة. كانوا في أغلب الأحيان من الأشخاص الذين يستحوذون على آراء محدودة وحسنة الترتيب عن كل ما يخص أعمال البنك، أو التصدير، أو الموالح، بل وتجارة النيذ أيضًا. وكانت لديهم معلومات لا جدال فيها عن المشاكل القضائية أو التأمينات، كل هذا إلى جانب الدبلومات الكبيرة، والإرادة الأكيدة، بل ومما يلفت النظر أنهم كانوا جميعًا يتميزون بحسن النية، ولكن معلوماتهم بالنسبة لمسألة الطاعون كانت في حكم المعدومة.

ومع ذلك فقد دافع رامبير عن قضيته أمام كل منهم ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وكان الأساس الذي تقوم عليه حجته دائمًا، أنه غريب عن مدينتنا، ولذلك ينبغي أن تدرس حالته بعناية خاصة، وكان الذين

يتحدث إليهم هذا الصحفي يقبلون -على وجه العموم- وجهة النظر هذه عن طيب خاطر. ولكنهم كانوا عادة يبينون له أن هذه أيضًا حالة عدد من الناس، ومن ثم فلم تكن حاله من الخصوصية بالدرجة التي يتصورها، وكان رامبير يرد عليهم بأن ذلك لا يغير من الأمر شيئًا بالنسبة لحجته، وكانوا يجيبونه بأن ذلك يغير من الأمر بعض الشيء بالنسبة للصعوبات الإدارية التي تقف في وجه كل إجراء استثنائي من شأنه أن يخلق ما يسمونه -بكثير من الامتناع- «سابقة» وتعتبر هذه الطبقة من أصحاب الآراء طبقة أنصار الشكليات، تبعًا للتصنيف الذي ذكره رامبير للدكتور ريو، وهناك -إلى جانب هؤلاء- أولئك الذين يحسنون الحديث، ويؤكدون لصاحب الطلب أن كل هذا الذي يجري لا يمكن أن يدوم، وإذا طلب إليهم إصدار القرارات راحوا يواسون رامبير بأن ضيقته لن تطول، وهناك أيضًا ذوو الأهمية الذين يرجون زائرهم أن يترك لهم مذكرة يلخص فيها حاله، ويخبرونه أنهم سيفحصونها، والتافهون الذين يعرضون عليه بطاقات بالسكن، أو عناوين بعض الفنادق الاقتصادية، والمنهجيون الذين يطلبون منه ملء استمارة لا يلبثون أن يلقوا بها مع غيرها، والمشغولون الذين يكتفون برفع أذرتهم، والمزعجون الذين يشيخون بوجوههم، وأخيرًا هناك التقليديون -وهم الأكثر عددًا- وكانوا يوجهون رامبير إلى مكتب آخر، أو يدلونه على مسعى آخر.

وهكذا أنكه الصحفي نفسه في الزيارات، ولكنه كَوّن لنفسه فكرة واضحة صحيحة عن البلدية والمديرية وما يدور فيهما، وذلك بفضل الوقت الذي أضاعه في الانتظار على الأرائك الخشبية الموضوعة أمام

لافتات كبيرة تدعو المواطنين إلى الاكتتاب في أسهم الخزانة المعفاة من الضرائب، أو التطوع في جيش المستعمرات، وبفضل ما ضيعه من وقت في زيارة مكاتب لا ترى فيها إلا حافظات الأوراق، ورفوف السجلات. أما الفائدة التي عادت على رامبير - كما قال لريو بشيء من المرارة - فهي.. أن كل هذا حجب عنه حقيقة الموقف، فشغله عن متابعة التقدم الذي كان يحرزها الطاعون، الواقع أننا إذا تغاضينا عن مرور الأيام تباعاً بمزيد من السرعة، فإنه يمكننا أن نقول - تجاه الوضع الذي توجد فيه المدينة بأسرها - : إن كل يوم يمر يقرب كل شخص فيها من نهاية محنته بشرط ألا يموت قبل ذلك، وقد اعترف ريو بأن هذا حق، ولكنها حقيقة مفرطة في العموم.

وفي لحظة ما شعر رامبير بشيء من الأمل، فقد تلقى من المديرية نشرة معلومات طُلب إليه ملؤها بدقة، وكانت هذه النشرة تستفسر عن شخصيته، وحالته العائلية، ومصادر دخله القديمة والحالية، وما يسمونه بالحالة الاجتماعية، وُحِيلَ إلى رامبير أن الأمر يتعلق بتحقيق يهدف إلى بحث حالة الأشخاص الذين يراد إعادتهم إلى محل إقامتهم الأصلي، وكان لبعض المعلومات الغامضة التي تلتقطها في بعض المكاتب أثره في تأييد هذه الفكرة، ولكنه استطاع - بشيء من المساعي الدقيقة - أن يصل إلى المكتب الذي صدرت منه النشرة، وهناك قالوا له: إن هذه المعلومات تجمع «لحالة ما إذا...».

وسأل رامبير:

- حالة ما إذا... ماذا؟

فقالوا له بالتحديد: إنها من أجل حالة ما إذا أُصيب بالطاعون ومات، وذلك لكي يتمكنوا من إخطار أسرته من جهة، ومن جهة أخرى؛ لكي يعرفوا إذا كانت نفقات المستشفى ستدرج على ميزانية المدينة، أو أن أقاربه سيكلفون بقضائها. كان هذا يدل بطبيعة الحال على أنه لم يكن بعيدًا عن تلك التي تنتظره كل البعد، ما دام المجتمع يشتغل بأمورهما. ولكن لم يكن في هذا أي عزاء له؛ فقد كان هناك ما هو أكثر من ذلك لفتًا للنظر -ومن ثم فقد التفت إليه رامبير- ونعني به الطريقة التي يستطيع بها مكتب ما أن يستمر في أداء خدماته، حتى عندما تصل الكارثة إلى أقصى مداها، وأن يستمر في إصدار توجيهات خاصة بزم آخر غير زمن الكارثة، وكثيرًا ما يكون هذا دون علم السلطات العليا، وذلك لسبب واحد، وهو أنه أنشئ من أجل هذه الخدمات.

وكانت الفترة التي تلت ذلك بالنسبة لرامبير أسهل الفترات، وأشقها في نفس الوقت. كانت فترة خمود بعد أن زار كل المكاتب، وقام بكل المساعي، وظهر له أن كل هذه المنافذ كانت مسدودة في الوقت الراهن، فجعل ينتقل من مقهى إلى آخر، فكان يجلس في الصباح في شرفة أحدها وأمامه قدح من البيرة، ثم يأخذ في قراءة الجريدة على أمل أن يجد فيها أي علامة على قرب نهاية المرض، وبعد ذلك كان يتفرس وجوه المارة في الطريق، ويشيح بامتعاض عن تعبير الحزن الذي يراه مرتسمًا عليها، وكان يضطر لقراءة لافتات المحلات المواجهة له، والإعلانات التي تروج لافتاحات الشهية التي لم تعد تُقدم، فإذا ما أعاد قراءتها للمرة المائة، نهض يطوف -بلا هدف- في شوارع المدينة الصفراء.

وهكذا كان ينتقل من نزهة يقوم بها بمفرده إلى المقهى ومن المقهى إلى المطاعم حتى يأتي المساء. ولمحه ريو ذات مساء على باب أحد المقاهي حيث كان يبدو متردداً بين الدخول وعدمه، وأخيراً اختار الدخول، وذهب ليجلس في أقصى القاعة، وكانت هذه هي الساعة التي يؤجلون فيها إضاءة الأنوار في المقاهي إلى أقصى درجة ممكنة بأمر من السلطات العليا، وكان الغروب الذي أخذ يعم القاعة قد جعلها في لون الماء المغبر، وجعلت حمرة الشفق تنعكس على الزجاج، ورخام المناضد يلمع لمعاناً ضعيفاً وسط الظلمة التي بدأت تنتشر، وفي وسط القاعة الخاوية كان رامبير يشبه الشبح الضال، وظن ريو أن هذه هي الساعة التي يجب فيها أن يخلو إلى نفسه، ولكنها كانت أيضاً الساعة التي يشعر فيها كل سجناء هذه المدينة بوجوب تركهم لأنفسهم، وأنه ينبغي عمل شيء من أجل التعجيل بالخلاص، وعاد ريو أدراجه.

وتعود رامبير كذلك أن يقضي وقتاً طويلاً في محطة السكة الحديد، وكان الدخول إلى الرصيف ممنوعاً، ولكن قاعات الانتظار التي يمكن الوصول إليها من الخارج ظلت مفتوحة. وكان المتسولون أحياناً يقضون فيها أيام القيظ؛ لأنها كانت ظليلة ورطبة، فكان رامبير يأتي إليها، يأخذ في قراءة الجداول القديمة، واللافتات التي تحظر البصق، واللوائح التي تنظم أعمال شرطة القطارات، ثم يجلس في أحد الأركان، وكانت القاعة معتمة، وقد وضعت بها مدفأة من الزهر ظلت باردة منذ شهور، وأُحيطت بشماني صور لبعض أدوات الري القديمة، وعلى الحائط عُُلِّقت بعض الإعلانات التي تدعو للحياة السعيدة الحرة في (باندول، أو كان)

وهنا أحس رامبير بشناعة تلك الحرية التي يجدها المرء عندما يكون معدماً. وكانت الصور الباريسية أشد الصور حزاً في نفسه، أو هذا على الأقل ما كان يقوله لريو، فكان هناك منظر يمثل بعض الحجارة القديمة والمياه، ولوحة تمثل القصر الملكي، وثالثة تمثل محطة الشمال، ورابعة تمثل أحياء البانتيون المقفرة، وغيرها تمثل أماكن أخرى من المدينة التي لم يكن يعرف أنه يحبها إلى هذا الحد، وقد أخذت هذه الصور كلها تلاحقه وتحول بينه وبين القيام بأي عمل محدد، وظن ريو أنه لا يفعل إلا أن يخلط هذه الصور بصور حبه، وعندما أسر إليه رامبير - ذات يوم - بأنه يحب أن يصحو في الرابعة صباحاً، ويفكر في مدينته، لم يجد الطبيب صعوبة في أن يؤول ذلك - حسب تجاربه الخاصة - بأنه عندئذ يحب تخيل المرأة التي تركها، فهذه هي الساعة التي كان يمكنه فيها أن يمتلكها؛ إذ إنه حتى الساعة الرابعة صباحاً لا يفعل الناس عموماً شيئاً، بل ينامون في تلك الساعة، وهذا يدعو إلى الطمأنينة؛ إذ إن أعز أماني القلب القلق تنحصر في أن يمتلك الشخص الذي يحبه إلى الأبد، أو - إذا حلت ساعة الفراق - أن يتمكن من أن يغمره معه في سبات عميق لا يقطعه حلم، ولا ينتهي إلا ساعة اللقاء.



ولم يمر وقت طويل على خطبة الوعظ، حتى كان القيظ قد بدأ، وأشرف شهر يونيه على الحلول، وحدث في اليوم التالي ليوم المطر الغزير -الذي جاء متأخرًا عن أوانه وصار العالمة المميزة ليوم الأحد، يوم الخطبة- أن انطلق الصيف من عقاله في السماء وفوق المنازل؛ فهبت رياح شديدة حارقة طيلة يوم كامل، جفت على إثرها الجدران، وتوسطت الشمس كبد السماء، وأخذت موجات الحرارة والضوء تجرف المدينة طيلة النهار، وأصبح المرء لا يجد خارج الشوارع ذات البواكي، وخارج المساكن مكانًا واحدًا إلا وكان هدفًا للوهج الذي يعيشي الأبصار، كانت الشمس تطارد مواطنينا في كل ركن في الشارع، حتى إذا توقفوا وجهت إليهم ضربتها، ولما كان ارتفاع هذا القيظ المبتدئ قد اتفق مع ارتفاع عدد الضحايا الذي وصل إلى حوالي السبعمئة في الأسبوع، فقد أصاب المدينة شبه انهيار، وقل الزحام في الأحياء الخارجية، وخلال الشوارع المسطحة، والمنازل ذات الشرفات الواسعة. أما في هذا الحي الذي كان الناس يعيشون فيه دائمًا على أبواب منازلهم، فقد أغلقت جميع الأبواب، وارتجت مصاريع النوافذ، دون أن يدري أحد ما إذا كان ذلك للحماية من القيظ، أم من الطاعون، ومع ذلك فقد كانت الأنات تتسرب من بعض المنازل، وكان إذا حدث ذلك

من قبل، رأينا بعض الفضوليين وقد وقفوا في الشارع يرهفون سمعهم، ولكن يبدو -بعد هذه الإنذارات الطويلة- أن قلوب الناس جميعاً قد تحجرت، فقد أخذ الجميع يسرون ويعيشون بجانب الأنين، وكأنه قد أصبح لغة الناس الطبيعية.

وكانت المشادات التي تقع على الأبواب تضطر رجال الأمن إلى التدخل، وإلى استعمال السلاح، مما كان يخلق نوعاً من الاضطراب المكتوم، وكان يحدث في هذه المعارك أن يسقط بعض الجرحى، ولكن الناس لم يكونوا يتكلمون إلا عن موتى، ولا غرو، فمن الطبيعي أن يحدث ذلك في مدينة تضخم فيها كل شيء بفعل الحرارة والخوف، وأياً ما كان، فإن التذمر استمر في الازدياد، حتى إن السلطات قد خشيت أن يتفاقم الأمر، وبحثت جدياً فيما يجب اتخاذه من إجراءات في حالة إذا ما اندفع هؤلاء السكان الراحين تحت الوباء في طريق الثورة، ونشرت الصحف قرارات تجدد حظر الخروج، وتهدد كل من يخالف ذلك بعقوبة السجن، وراحت الدوريات تجوب المدينة، وكثيراً ما كنا نرى الحراس وقد امتطوا صهوات جيادهم في الشوارع المقفرة الملتهبة، وأخذوا يمرون وسط صفوف من النوافذ المغلقة معلنين عن مقدمهم بوقع سنايك الخيل على بلاط الطريق، فإذا ما اختفت الدورية، عاد الصمت اليأس الثقيل يخيم على المدينة. وكان يُسمع على بُعد صوت الطلقات النارية التي تطلقها كتائب خاصة صدرت إليها أوامر حديثة بقتل الكلاب والقطط خشية أن تكون وسيلة لنقل البراغيث، وساعدت تلك الانفجارات الجافة على نشر جو يشبه جو الغارات الجوية في المدينة.

ووسط القipzig والسكون، كان كل شيء يبدو لقلوب مواطنينا
المذعورين أكثر أهمية مما هو، ولأول مرة أصبح الناس شديدي
الحساسية بالنسبة للألوان التي تعتري السماء، والروائح التي تنبعث
من الأرض، والتي تميز الفصول المختلفة، وفهم كل منا -والهلع يكاد
يقتله- أن القipzig يساعد الوباء، كما لاحظ الجميع -في نفس الوقت-
أن الصيف ألح في البقاء، ولم يعد يتزحزح، أما صيحات العصفير في
السماء مساء فوق المدينة فقد ضعفت؛ ذلك أنها لم تعد تتناسب وغرور
شهر يونية الذي يدفع الأفق في بلدنا إلى الراء، ولم تعد الزهور تصل
الأسواق في شكل براعم، بل صارت متفتحة، ولم تكن تمضي فترة البيع
الصباحية حتى ترى وريقاتها تغطي الأرضفة المغبرة، فكان من الواضح
أن الربيع قد كَلَّ بعد ما بذل من ذات نفسه في صورة آلاف الزهور المتألقة
في كل مكان حول المدينة، وهو الآن قد أخذ في الكرى، وراح يتحطم
ببطء تحت ضغط الطاعون والقipzig المزدوج. ولقد كانت سماء الصيف
هذه، وتلك الشوارع التي شحب لونها بفعل الأتربة والضجر، تحمل في
نظر مواطنينا نفس المعنى الذي يحمله الموتى المائة الذي يثقلون كاهل
المدينة كل يوم، ولم يعد في وسع الشمس الدافقة، ولا تلك الساعات
التي تفوح بالنعاس وطعم العطلة أن تغري الناس -كما كانت تفعل
من قبل- بإقامة المهرجانات للماء والموائد الفاخرة، بل كانت -على
العكس من ذلك- ذات وقع قاس في المدينة المغلقة الصامتة؛ فقد
فقدت ذلك البريق النحاسي الذي يميز الفصول السعيدة؛ ذلك أن سماء
الطاعون تطفئ كل لون، وتدفع كل بهجة إلى الهرب.

وكان هذه من أكبر الثورات التي أحدثها المرض، فقد كانت عادة مواطنينا جميعاً من قبل أن يستقبلوا الصيف بالبهجة والمرح؛ كانت المدينة تفتح أبوابها حينئذ نحو البحر، ويأخذ شبابها يتدفق على الشواطئ، أما هذا الصيف، فكان الأمر على العكس من ذلك. كان البحر القريب محظوراً، ولم يعد للأجسام حق في مباهجه. ما العمل في مثل هذه الظروف؟ إن تارو هو أيضاً الذي يعطينا أصدق صورة لمدينتنا في هذا الوقت؛ فقد كان يتبع -بطبيعة الحال- ما يحرزه الطاعون من تقدم، وقد لاحظ -بحق- أن المذيع قد سجل إحدى نقط التحول في سير المرض، حين لم يعد يعلن عن مئات الوفيات كل أسبوع، ولكن عن اثنين وتسعين، أو مائة وسبعة، أو مائة وعشرين في اليوم، فقال: «إن الصحف والسلطات (تناور) الطاعون بمهارة، فهم يظنون أنهم ينتزعون منه بعض نقط الانتصار التي سجلها؛ لأن رقم مائة وثلاثين أقل ضخامة من تسعمائة وعشرة». وقد صور كذلك مشاهد الوباء المؤثرة أو الطنانة؛ من ذلك أن امرأة تقيم في حي مقفر مغلق النوافذ فتحت نافذتها فوق رأسه فجأة وهو سائر، وصرخت صرختين مدويتين قبل أن تعيد إغلاق النافذة على ظلام غرفتها الكثيف. ومنها ما لاحظته أيضاً من أن حبات حلوى النعناع قد اختفت ذات مرة من الصيدليات؛ لأن الكثيرين كانوا يمتصونها ليحصنوا أنفسهم ضد العدوى.

واستمر تارو على هذا النحو في مراقبة أشخاصه المحبين، ومنه نعرف أن العجوز الضئيل الجسم صديق القطط يعيش هو الآخر في المأساة؛ فذات صباح دوت طلقات نارية، وقد أدى ذلك -كما كتب

تارو- إلى موت أغلبية القطط، وإلى إرهاب القطط الأخرى، فهجرت الشارع، وفي نفس اليوم خرج العجوز الضئيل إلى الشرفة في ساعته المحددة، وبدت عليه الدهشة، فانحنى على حافة شرفته، وراح يجوب الشارع ببصره من نهايته حتى نهايته، ثم صمم على الانتظار، وكانت يده تضرب سور الشرفة ضربات خفيفة، وطال انتظاره، ثم قطع بعض الورق إلى قطع صغيرة، وبعد ذلك دخل وخرج من جديد، ولما طال عليه الوقت، سارع بالدخول، وأغلق خلفه أبواب الشرفة في غضب. وفي الأيام التالية تكررت نفس المشاهد، ولكن كانت ملامح العجوز تنم عن حزن واضطراب نفسي آخذ في التزايد. وبعد أسبوع انتظر تارو -دون جدوى- ظهور الرجل من جديد كما كان يحدث في كل يوم، ولكن النوافذ ظلت مغلقة على حزن لا يستعصي على الفهم، ومن ثم كانت هذه هي النتيجة التي سجلها تارو في مذكراته: «يحظر البصق على القطط في وجود الطاعون».

ومن جهة أخرى عندما كان تارو يعود إلى منزله مساء كل يوم وهو واثق من أنه سيلتقي بحارس الفندق الليلي بوجهه الواجم وقد جعل يذرع المكان ذهاباً وحيئة، وكان ذلك الحارس لا يفتأ يذكر لكل قادم أنه تنبأ بما حدث، كما كان تارو يعترف له بأنه سمعه حقاً يتنبأ بوقوع مصيبة ما، ولكنه يذكره بأن تفكيره كان يتجه إلى وقوع زلزال، فيجيب الحارس العجوز عليه بقوله: «آه؟ لو كانت المسألة مسألة زلزل، إذن لحدثت هزة واحدة كبيرة، وانتهى الأمر، ولراحوا بعد ذلك يحصون من ماتوا، ومن ظلوا على قيد الحياة، وبذلك تنتهي الكارثة، أما هذا المرض اللعين!

فحتى أولئك الذين لم يصابوا به، لا ينجون من نتائجه ومخاوفه».

أما مدير الفندق، فلم يكن همه أقل من ذلك، ففي أول الأمر كان المسافرين الذين منعوا من مغادرة المدينة يرون البقاء في فندقه، ولكن لما طال أمد الوباء، أخذ الكثيرون يفضلون -بالتدريج- أن يقيموا لدى أصدقائهم، وظلت غرف الفندق منذ ذلك الحين خاوية لنفس الأسباب التي ساعدت على شغلها في بادئ الأمر؛ إذ إنه لم يعد يرد إلى المدينة مسافرون جدد، وظل تارو أحد رواد الفندق النادرين.

وكان المدير لا يدع فرصة تمر دون أن يذكره بأنه لولا رغبته في أن يكون رقيقاً مع آخر عملائه، لأغلق الفندق منذ وقت طويل، وكثيراً ما كان يطلب إلى تارو أن يقدر المدة التي يحتمل أن يعيشها الوباء في المدينة، وكان تارو يجيبه بقوله:

- يقولون: إن البرد يضايق هذا النوع من الأمراض.

فيجن جنون المدير، ويقول:

- ولكن لا يوجد عندنا برد بالمعنى الصحيح يا سيدي، هذا إلى أنه لا يزال بيننا وبين هذه الفترة أمد طويل، يا سيدي.

وكان المدير يعلم علم اليقين أن المسافرين سيظلون -حتى بعد انتهاء الوباء- يتجنبون المدينة لمدة طويلة، فقد كان من شأن هذا الطاعون أن يؤدي إلى خراب السياحة، أما المطعم، فقد عاد السيد أوتون -الرجل البومة- إلى الظهور فيه بعد أن احتجب مدة طويلة، ولكن لم يعد يتبعه سوى كلبه المدربين، ودلت بعض التحريات على

أن زوجته كانت قد قامت بتمريض أمها التي ماتت وتم دفنها، وأنها الآن تقضي أيام الحجر الصحي.

وقال المدير لتارو ذات يوم:

- إنني لا أحب هذا، فهذه السيدة مشتبه في أمرها، سواء أكانت تقضي أيامًا في الحجر الصحي أم لا، وبالتالي يعتبرون هم أيضًا مشتبهًا في أمرهم. وأجابه تارو بقوله:

إذا نظرنا إلى المسألة من هذه الناحية، كان الناس جميعًا مشتبهًا في أمرهم. ولكن المدير كان صارمًا، وكانت آراؤه حول هذه المسألة جد حاسمة، فكان يعقب قائلاً:

- كلا يا سيدي، لا أنا ولا أنت مشتبه في أمرنا، أما هم، فهذه حالتهم.

ولكن لم يكن السيد أوتون قد غير عاداته لأسباب تافهة كهذه، وقد أصبح الطاعون الآن هو المسؤول عن ذلك؛ فكان يدخل المطعم بنفس طريقته السابقة، ويجلس قبل أولاده، ويوجه إليهم ملاحظاته الخاصة بواجبات اللياقة بلهجة عدائية، ولم تتغير سوى هيئة الصبي الصغير، فكان يرتدي ملابس الحداد كما كانت ترتديها أخته، وأصابه شيء من الانطواء على نفسه، فأصبح كما لو كان ظلًا صغيرًا لأبيه، وكان الحارس الليلي لا يميل إلى السيد أوتون، فقال يومًا لتارو:

- أما هذا فسيهلك مرتديًا ملابسه كاملة، ولذلك لن يحتاج لتغسيل، بل سيرحل مباشرة.

ومما ورد ذكره في المذكرات خطبة يأنلو الوعظية، وقد علق عليها بقوله:

«إنني أفهم تلك الحمية المحبوبة؛ فإن العادة كانت قد جرت على اللجوء إلى البلاغة في بداية الأوبة ونهايتها، أما فيما يتعلق ببدايتها، فلم تنته تلك العادة بعد، كما أنها قد عادت من جديد بالنسبة لنهايتها، والناس لا يعتادون على الحقيقة، أي على الصمت، إلا وقت المصيبة، فلننتظر».

وأخيرًا كتب تارو في مذكراته أن حديثًا طويلًا قام بينه وبين الدكتور ريو، ويكتفي بتقرير أنه كان ذا نتائج طيبة، ولم ينس أن يلاحظ - بهذه المناسبة - أن عيني مدام ريو الأم من اللون البني الفاتح، وانتهى من ذلك إلى هذا الرأي الغريب، وهو أن نظرة تحتوي على كل هذا القدر من الطيبة لا بد أن تكون أقوى من الطاعون، ثم خصص فقرات - كبيرة نوعًا ما - للحديث عن مريض الربو العجوز الذي كان يعالجه ريو.

ذلك أنه كان قد ذهب لزيارته مع الطبيب بعد حديثهما، وكان العجوز قد استقبله بضروب من السخرية وفرك اليدين، وقد كان إذ ذاك على فراشه معتمدًا بظهره على وسادته، وأمامه قدرا البازل. وما إن رأى تارو حتى قال: آه! هذا واحد آخر، لقد انقلبت الآية، وصار عدد الأطباء أكبر من عدد المرضى، ذلك لأن الأمور تتدهور بسرعة. الواقع أن القس على حق، إنهم يستحقون ذلك. وفي اليوم التالي عاد تارو إلى زيارته دون إنذار.

ويسجل تارو في مذكراته أن العجوز المريض بالربو -وقد كان من تجار الخردوات- قرر وهو في الخمسين من عمره أنه عمل ما فيه الكفاية، ثم لزم فراشه، ولم يغادره منذ ذلك الحين، ومع ذلك فقد كان الوقوف أكثر فائدة للربو من الرقاد، وقد ساعده دخل صغير يملكه على بلوغ سن الخامسة والسبعين، وإن كان يبدو أكثر شباهًا من ذلك، وهو لا يطيق أن يرى الساعات، ولا توجد ساعة واحدة في منزله، وكان يقول: «الساعة غالية الثمن، ولا فائدة منها».

وكان يعرف الوقت، ولا سيما ساعة تناول الطعام -وهي الساعة الوحيدة التي تهمة- بمساعدة قدره اللذين يكون أحدهما مليئًا بالبازلاء عندما يستيقظ من نومه، وكان يملأ الآخر مما في الأول حبة حبة بحركة رتيبة متناسقة، وبذلك وصل إلى بغيته، وحدد له القدر أوقات يومه، وكان يقول: «كلما ملأت القدر خمسة عشرة مرة، كان عليّ أن أتناول الطعام مرة واحدة، إن الأمر غاية في البساطة».

وإذا صح ما تقوله عنه زوجته، فإن بشائر هذه الموهبة قد ظهرت عليه منذ شبابه المبكر، فالواقع أنه لم يهتم بشيء قط، لا بالعمل ولا بالأصدقاء، ولا بالمقهى، ولا بالموسيقى، ولا بالنساء، ولا بالنزهة، ولم يخرج قط من مدينته إلا مرة واحدة اضطر فيها أن يذهب إلى مدينة الجزائر لأمر عائلي، ولكنه توقف في أول محطة بعد وهران، ولم يستطع أن يتابع المغامرة إلى أبعد من ذلك، وعاد أدراجه إلى بيته بأول قطار.

ولما بدت على تارو الدهشة من حياة الرهينة هذه التي يحياها،
شرح له -على وجه التقريب- أن الدين يعتبر النصف الأول من حياة
الإنسان ضرب من الصعود، وأن النصف الآخر ضرب من النزول، وأن
أيامه في أثناء النزول لا تكون ملكاً له، إذ من الممكن أن تنتزع منه في
أي لحظة، ومن ثم فهو لا يستطيع أن يفعل بها شيئاً، بل ومن الأفضل
ألا يفعل بها شيئاً، هذا إلى أنه لم يكن يخشى التناقض، ومعارضة وجود
الله لا تخيفه؛ لأنه لم يلبث أن قال لتارو: «لا شك في أن الله لا وجود له؛
إذ إنه لو كان موجوداً لما كانت هناك حاجة لوجود القسس، ولكن تارو
لم يكد يسمع بعض الأفكار التي تلت ذلك حتى فهم أن هذه الفلسفة
متصلة اتصالاً وثيقاً بكثرة ما تقوم به كنيسة حيه من جمع التبرعات.

وقد ختم تارو الصورة التي رسمها لهذا العجوز بأمنية تبدو عميقة
سمعها منه عدة مرات، وهي أنه كان يأمل أن يموت هراً جذاً.

وتساءل تارو: «أهو قديس؟» وأجاب على ذلك بقوله: «نعم، إذا
كانت القداسة مجموعة من العادات».

وفي نفس الوقت قام تارو بوصف دقيق -نوعاً ما- ليوم من أيام
المدينة الموبوءة، وهكذا أعطانا فكرة صحيحة عن مشاغل مواطنينا،
وحياتهم خلال هذا الصيف، وقد قدم لذلك بقوله: «لا يضحك أحد
سوى السكارى، وهؤلاء كانوا يسرفون في الضحك»، وبعد ذلك بدأ
وصفه، فقال:

«في الصباح المبكر كانت نسمات خفيفة تجوب المدينة التي لم
تزل مقفرة، وفي هذه الساعة التي تتوسط وفيات الليل واحتضارات

النهار، كان يبدو أن الطاعون يتوقف عن النشاط لحظة يلتقط فيها أنفاسه، وكانت كل الحوانيت مغلقة، وإن كانت قد كُتب على بعضها: «مغلق بسبب الطاعون»، ومعنى هذا أنها ليست على وشك أن تفتح أبوابها مع غيرها من الحوانيت، وفي هذه الساعة أيضًا لا يكون بائعو الصحف قد أفاقوا تمامًا من نعاسهم، لذلك لا تراهم ينادون على الأخبار، بل يجلسون في أركان الشوارع وقد أسندوا ظهورهم إلى حوائطها، وراحوا يعرضون بضائعهم بجوار المصابيح في حركات تشبه حركات من يمشون وهم نيام، ولكنهم لا يلبثون أن يستيقظوا على مرور أولى عربات الترام، فينتشرون في جميع أرجاء المدينة، ويمدون أذرعهم بأوراق تتفجر منها كلمة «الطاعون». هل سيستمر الطاعون إلى الخريف؟ إن الأستاذ «ب» يجيب بالنفي. مائة وأربعة وعشرون ميتًا، هذه هي حصيلة اليوم الرابع والتسعين للطاعون».

«ورغم أزمة الورق التي تزداد حدة كل يوم، والتي اضطرت بعض المجلات إلى الإقلال من عدد صفحاتها، ظهرت جريدة جديدة، «جريدة الوباء»، التي أخذت على عاتقها «إخبار المواطنين بكل حياد وأمانة عن مد المرض وجزره، وتزويدهم بأوثق الآراء عن مستقبل الوباء، وتكريس أنهار صفحاتها لمساندة كل من يجد في نفسه استعدادًا لمكافحة الوباء من بين السكان، سواء أكان معروفًا أم مجهولًا، وحماية الروح المعنوية للسكان، وأن تنقل إليهم توجيهات المسؤولين، وباختصار قد أخذت على عاتقها أن تجمع كل العزائم والهمم لمكافحة الكارثة التي أصابتنا

مكافحة فعالة». والحقيقة أن هذه الجريدة لم تلبث أن قصرت نشاطها على الإعلان عن منتجات جديدة أكيدة المفعول لمنع المرض.

«وفي نحو الساعة السادسة صباحًا تبدأ كل هذه الصحف توزيع أعدادها بين الصفوف التي تقف أمام أبواب المحلات قبل موعد افتتاحها بأكثر من ساعة، ثم في عربات الترام الغاصة بالركاب المقبلين من الأحياء الخارجية، لقد أصبح الترام هو الوسيلة الوحيدة للنقل، وإن كانت عرباته لا تتقدم إلا بصعوبة، وقد تكدس الركاب فوق سلمها حتى يكاد يتصدع.

ومن الغريب حقًا -على الرغم من ذلك- أن كل الركاب يعمدون، بقدر الإمكان، إلى أن يديروا ظهورهم بعضهم لبعض من أجل تجنب العدوى. ولا يكاد الترام يصل إلى إحدى المحطات، ويفرغ فيها شحنته من الرجال والنساء، حتى يسارع كل منهم في الابتعاد عن غيره ليكون بمفرده، وكثيرًا ما تقوم المشادات بسبب اعتلال الأمزجة حتى أصبح هذا الداء مزمنًا.

«وبعد مرور عربات الترام تصحو المدينة تدريجيًا، وتفتح المقاهي أبوابها على عدادات حملت بالإعلانات التي من قبيل: «لا يوجد بن»، «أحضروا معكم السكر»... إلخ، ثم تفتح أبواب الحوانيت، وتبدأ الشوارع في الازدحام. وفي نفس الوقت يزداد الضوء، ويبدأ القيقظ يلهب سماء شهر يوليو بسياطه، وكانت هذه هي الساعة التي يخرج فيها من لا عمل لهم إلى الشوارع الكبيرة. ويبدو أن أغلب الناس قد حصروا همهم في محاولة رد الطاعون على

أعقابه بعرض ما لديهم من ترف؛ ففي نحو الساعة الحادية عشرة من كل يوم، تغص شوارع المدينة الرئيسة بالشبان والشابات الذين تبدو عليهم الرغبة الجامحة في الاستمتاع، تلك الرغبة التي تنمو وترعرع على لبان المصائب الكبرى؛ فإذا ازداد الوباء امتدادًا، زاد معه مفهوم الأخلاق اتساعًا، حتى لا يبعد أن نرى مهرجانات «ميلانو» الصاخبة تقوم على حافة القبور.

«وفي ساعة الظهيرة تمتلئ المطاعم في غمضة عين، وسرعان ما نرى أولئك الذين لم يجدوا لهم مكانًا بداخلها يقفون على أبوابها في مجموعات صغيرة، وتبدأ الشمس تفقد لونها بفعل القيث المتزايد، ويظل طالبو الطعام ينتظرون دورهم تحت مظلات المحال على حافة الشارع الذي يكاد يتفجر من الحر، وإذا كانت المطاعم تغص بالناس؛ فذلك لأنها تبسط لكثيرين منهم مشكلة التمويل، وإن كانت تترك القلق من العدوى كما هو، ولذا نرى الرواد يقضون الدقائق العديدة في مسح أدوات المائدة بعناية، ومنذ وقت ليس بالطويل كانت بعض المطاعم تعلق هذا الإعلان: «هنا تعقم أدوات المائدة بالغلي» ولكنها استغنت بالتدريج عن مثل هذه الإعلانات؛ لأن العملاء كانوا مضطرين للإقبال عليها على أي حال، فالعملاء ينفقون عن طيب خاطر، ويتسابقون بعصبية على شراء النبيذ الجيد، أو الذي قيل إنه جيد، وعلى الأطباق الإضافية المرتفعة الثمن، ويظهر أن الموقف قد انفجر بالفوضى يومًا في أحد المطاعم بسبب الذعر الذي ساد عندما أصيب أحد الرواد

بغثيان، وانتابه الشحوب، فنهض من مكانه، ومشى بخطى مضطربة مسرعاً نحو الخروج.

«وفي نحو الساعة الثانية تبدأ المدينة تخلو تدريجياً، وهذه هي اللحظة التي يلتقي فيها الصمت بالتراب والشمس والطاعون في المدينة؛ فعلى طول الطريق بين المنازل الكبيرة الداكنة تتدفق الحرارة تدفقاً دون توقف، وهذه كلها ساعات سجن طويلة تنتهي بتلك الأمسيات الملتهبة التي تزحف على هذه المدينة المزدهمة الصاخبة. وكانت الأمسيات في أثناء الأيام اللقيظ تقفر شيئاً فشيئاً دون أن يدري أحد سبب ذلك.

أما في الوقت الحاضر، فقد أصبح في وسع أول نسمة تهب أن تبعث في المدينة شيئاً من الارتياح، وإن كانت لا تبعث فيها الأمل، وحينئذ ينزل الجميع إلى الشوارع، ويستسلمون للنعاس أو الشجار، أو يشتهي بعضهم بعضاً، وفي ظل سماء يوليو الحمراء هذه تدلف المدينة الملأى بالصخب وأزواج العشاق نحو ليل مبهور الأنفاس، ومن المناظر التي تحدث كل مساء أن يرى الناس رجلاً ملهماً يرتدي قبعة من الجوخ، ورباط عنق كبير العقدة، وقد راح يعبر الشوارع ويصيح في الناس: «إن الله كبير، أقبلوا عليه». ولكن عبثاً، فإن الناس يفضلون الاندفاع نحو أي شيء لا يعرفونه معرفة جيدة، أو أي شيء يبدو لهم أعظم أهمية من الله.

ذلك أن الدين كان قد ظل محتفظاً بمكانته أول الأمر، عندما كان الناس يعتقدون أن الطاعون كغيره من الأمراض، ولكن لما رأوا أن الأمر جد خطير، أداروا وجوههم نحو المتعة، وهكذا يرى القلق الذي يرسم

أثناء النهار على الوجوه، وقد تحول في المساء القائظ المغبر إلى نوع
من الهياج الأهوج، والحرية الخرقاء التي تصيب السكان جميعًا بما
يشبه الحمى.

«وأنا أيضًا مثلهم، ولكن ماذا؟ إن الموت يعتبر لا شيء بالنسبة لمن
هم مثلي من الرجال... إنه حادث يبين أنهم كانوا على صواب».



كان تارو هو الذي طلب إلى ريو تلك المقابلة التي يتحدث عنها في مذكراته، وفي المساء المتفق عليه، جلس ريو ينتظره، وقد راح ينظر إلى أمه التي جلست في هدوء ووقار على مقعد في ركن من أركان غرفة المائدة؛ ففي هذا الركن كانت السيدة تمضي أوقاتها كلما فرغت من أعمالها المنزلية. كانت تنتظر، وقد وضعت يديها على ركبتيها، ولكن ريو لم يكن متأكدًا حتى من أنه هو الذي تنتظره، غير أنه كان يحدث شيء من التغير في وجه أمه كلما حضر، كان كل ما طبعته حياتها الكادحة على وجهها من صمت يبدو وقد دبّت فيه الحياة، ثم لا تلبث أن تعود إلى صمتها العميق، وفي هذا المساء كانت تنظر من النافذة إلى الشارع الذي أصبح الآن مقفرًا، وكانت الإضاءة الليلية قد خفضت بمقدار الثلثين، فكان هذا المصباح أو ذاك يلقي من بعيد بشعاع خافت على ظلال المدينة، وقالت مدام ريو:

- هل سيستمر تخفيض الإضاءة طيلة مدة الطاعون؟

- يحتمل ذلك.

- أرجو ألا تستمر هذه الحال حتى الشتاء، وإلا عمت الكآبة.

وأجاب ريو:

- نعم.

ثم رأى نظرة أمه تستقر على جبينه، وكان يعلم أن القلق والإرهاق الذي عانت فيه الأيام الأخيرة قد حفرا في وجهها أخاديد.

وقالت مدام ريو:

- ألم تسر الأمور سيرًا حسنًا اليوم؟

- آه! كالمعتاد.

- كالمعتاد؟! معنى هذا أن المصل الجديد الذي أرسلته باريس قد برهن على أنه أضعف مفعولاً من الأول، وأن الإحصائيات استمرت في الصعود، ولم يكن في الإمكان استخدام الحقن بالمصل الوقائي إلا في نطاق الأسر التي أصيبت فعلاً؛ إذ كان ينبغي تزويد المدينة بكميات ضخمة منه، حتى يمكن تعميم استعماله، وقد أصبحت الآن غالبية الأورام تستعصي على الانفجار، كما لو كان موسم تجمدها قد حل، ولذا صارت تسبب للمرضى عذاباً أليماً، كما ظهرت في المدينة منذ الليلة، حالتان للمرض في صورة جديدة، فقد صار الطاعون رئوياً، وقد حدث في نفس اليوم أثناء أحد الاجتماعات أن رأى الأطباء أنفسهم في حالة ارتياح أمام مدير قد أقلت منه الزمام، فطلبوا اتخاذ إجراءات جديدة؛ لكي يمكن تجنب العدوى التي تنقل من فم إلى فم في حالة الطاعون الرئوي، وكان لهم ما أرادوا، وكالمعتاد، لم يكن أحد يدري من الأمر شيئاً.

ونظر ريو إلى أمه، وذكرته نظرة عينيها البنيتين بسنوات مضت، نهل فيها من حنانها، فسألها:

- هل أنت خائفة يا أمه؟

- في مثل سني يصير الإنسان لا يخاف كثيرًا.

- النهار طويل، وأنا لا أكاد أظهر في البيت مطلقًا.

- لا يهمني أن أقضي وقتي في انتظارك، ما دمت أعرف أنك ستعود،

وإذا لم تكن هنا، فإني أفكر فيما يشغلك من عمل، هل لديك أخبار؟

- نعم كل شيء على ما يرام، كما جاء في آخر برقية لها، ولكنني

أعلم أنها تقولي لي ذلك لتطمئنني.

ورن جرس الباب، فابتسم الطبيب لأمه، وذهب ليفتحه، وعلى

عتبة الباب المعتمة بدا نارو كذب كبير لف في رداء رمادي اللون،

وأجلس ريو الزائر أمام مكتبه، بينما ظل هو واقفًا خلف مقعده، ولم

يكن يفصلهما سوى المصباح الوحيد المضاء في الغرفة، والموضوع

فوق المكتب.

وقال تارو دون مقدمة:

- أعلم أنني معك أستطيع أن أتكلم بصراحة.

وأوما ريو موافقًا في صمت.

- بعد خمسة عشر يومًا، أو شهر، لن تعود ذا فائدة هنا، فقد قهرتكم

الأحداث.

وقال ريو:

- هذا صحيح.

- إن تنظيم الخدمة الصحية جد رديء؛ إذ ينقصكم الوقت والرجال.

واعترف ريو للمرة الثانية بأن هذه هي الحقيقة.

- وقد بلغني أن المديرية تفكر في نوع من الخدمة المدنية؛ لكي تجبر الرجال الأصحاء على المشاركة في الإنقاذ العام.

- إنك على علم بما يجري، ولكن الشعور بالاستياء كبير، ولذا لا يزال المدير مترددًا.

- لماذا لا يطلبون متطوعين؟

- لقد فعلوا، ولكن النتيجة كانت ضئيلة.

- ذلك لأنهم فعلوا ذلك بالطريق الرسمي، وبغير إيمان بجدواه. إن ما ينقصهم هو الخيال، كما أن تصرفاتهم ليست في مستوى الأوبئة إطلاقًا، والأدوية التي يتخللونها لا تكاد تكفي لعلاج الزكام، وإذا تركناها يتصرفون فسيلقون حتفهم، ونحن معهم.

وأجاب ريو:

- هذا جد محتمل، وينبغي أن أقول: إنهم مع ذلك قد فكروا في استخدام المسجونين فيما أسميه بالأعمال التي تتطلب مجهودًا كبيرًا.

- إنني أفضل الرجال الأحرار.

- وأنا أيضًا، ومع ذلك فلماذا؟

- إن أحكام الإعدام تروعي.

ونظر ريو إلى تارو، وقال:

- وإذن؟

- وإذن فلدي خطة لتنظيم تشكيلات صحية من المتطوعين، ائذنوا لي بالقيام بذلك، ولترك إدارة المدينة في حالها، هذا إلى أنها قد أفلت منها الزمام، أما أنا فلي أصدقاء في كل مكان، وسيكونون نواة هذا العمل، وسأشترك - أنا أيضًا - فيها بطبيعة الحال.

وقال ريو:

- لعلك تظن أنني سأقبل بسرور، إن المرء في حاجة إلى العون، ولا سيما في هذه المهنة، وهأنذا أتعهد لك بالحصول على موافقة المديرية على الفكرة، هذا إلى أنه لم يصبح في وسعنا الاختيار، ولكن...

وأخذ ريو يفكر، ثم واصل كلامه قائلاً:

- ولكن هذا العمل قد يعرض القائمين به للموت، وأنت تعرف هذا جيداً، ومهما يكن من أمر، فإنه يجب عليّ أن أسألك: هل فكرت في الأمر جيداً؟

ونظر إليه تارو بعينه الشهابوين الهادئتين، ثم قال:

- ما رأيك في خطبة پانلو، يا دكتور؟

وقد وجه هذا السؤال بشكل طبيعي، وكان رد ريو عليه طبعياً كذلك، حين قال:

- إن المدة الطويلة التي عملت خلالها في المستشفيات تجعلني لا أرحب بفكرة العقاب الجماعي، ولكنك تعرف أن المسيحيين يقولون ذلك أحياناً دون أن يعتقدوا حقيقة فيما يقولون، إنهم أحسن مما يبدو. - ولكنك بلا ريب تظن - مثل پانلو - أن للطاعون حسناته، وأنه يفتح عيون الناس، ويدفعهم للتفكير!

وهز الدكتور رأسه كمن نفذ صبره، ثم قال:

- شأن كل أمراض هذا العالم، كل ما يصدق على أمراض هذا العالم جميعاً، يصدق أيضاً على الطاعون. نعم إن ذلك قد يفيد في أن يساعد بعض الناس على أن يصبحوا عظماء، ومع ذلك فإننا نرى البؤس والآلام التي يجربها الطاعون، ونستسلم له، فلا بد وأن نكون مجانين أو عمياناً أو جبناء.

ولم يكن ريو قد رفع صوته إلا قليلاً، ولكن تارو أتى بحركة من يده كما لو كان يريد تهدئته، ثم ابتسم.
وقال ريو -وهو يهز كتفيه-:

- نعم، ولكنك لم تجب عن سؤالي. هل فكرت في الأمر؟
واعتدل تارو في جلسته على المقعد الوثير، ومد رأسه إلى الضوء،
وقال:

- هل تؤمن بالله يا دكتور؟
وهنا أيضاً كان توجيه السؤال بشكل طبيعي، ولكن ريو تردد في هذه المرة بعض الشيء، ثم قال:
- كلا، ولكن ماذا تعني بذلك؟ إنني في الظلام، وأحاول أن أرى الأمور بوضوح، وقد مضى وقت طويل، منذ أن أقلعت عن أن أجد في ذلك غرابة.

- أليس هذا هو الذي يفصلك عن پانلو؟
- لا أعتقد ذلك. إن پانلو رجل دراسة، ولم ير الموت كثيراً، وهو

لذلك لا يتكلم إلا باسم إحدى الحقائق. ولكن أقل قسس الريف شأنًا -ممن يشرفون على تابعيهم- لا بد أن يفكر بنفس الطريقة التي أفكر بها، إذا ما سمع حشجة محتضر؛ لا بد أن يفكر في إيجاد علاج للألم قبل أن يرغب في إظهار ما ينطوي عليه من ميزات.

ونفض ريو واقفًا، وأصبح وجهه الآن مغطى بالظل، ثم قال:

- لندع هذا جانبًا ما دمت لا تريد الإجابة.

وابتسم تارو دون أن يتحرك من مقعده، وقال:

- هل لي أن أجيب بسؤال؟

وابتسم الطبيب بدوره، وقال:

- إنك تحب الأحاجي والألغاز. هيا.

وقال تارو:

- هذا هو: لماذا تبذل أنت كل هذا التفاني، ما دمت لا تؤمن بالله؟

إن إجابتك على هذا قد تساعدني أنا على الإجابة.

ودون أن يخرج الطبيب من الظل الذي غمر وجهه، قال: إنه أجب فعلاً عن هذا السؤال، وأنه لو كان يعتقد في إله قادر لكف عن علاج الناس تاركًا له هذا العبء، ولكن ليس هناك من أحد -ولا حتى پانلو الذي يعتقد أنه مؤمن- نعم ليس هناك من يؤمن بإله من هذا القبيل، ما دمنا لا نرى أحدًا يترك له تصريف أمره بأكمله. وفي هذا الصدد -على الأقل- كان ريو يعتقد أنه يسير في طريق الحقيقة حين يكافح ضد الخلق في الحالة التي هو عليها.

وقال تارو:

- آه! هذه إذن هي الفكرة التي لديك عن مهنتك؟

وأجاب الطبيب -وقد عاد إلى الضوء من جديد-:

- تقريبًا.

فصفر تارو بفمه صغيرًا هادئًا، بينما راح الطبيب ينظر إليه، وقال الطبيب:

- نعم، إنك تقول لنفسك: إنه لا بد أن الأمر لا يخلو من الغرور، ولكن، صدقني، ليس لدي من الغرور إلا القدر الضروري، لست أدري ماذا ينتظرنني، ولا ماذا سيحدث بعد كل هذا، أما في الوقت الحاضر، فهناك المرضى الذين يجب علينا علاجهم، وبعد ذلك سيكون لديهم -ولدي أنا أيضًا- من الوقت ما يفكرون فيه، ولكن علاجهم هو المسألة العاجلة التي لا تحتمل التأجيل، إنني أدافع عنهم بقدر ما أستطيع، هذا كل ما هنالك.

- ضد من؟

وأدار ريو وجهه نحو النافذة، وأخذ يتخيل البحر في ذهنه من خلف الأفق الذي ازداد حلكة، ولم يكن يشعر بغير تعب، وفي نفس الوقت كان يقاوم رغبة مفاجئة طائشة عرضت له في أن يفتح قلبه أكثر من ذلك لهذا الرجل الغريب الأطوار، وإن كان يشعر نحوه بنوع من الإخوة، ثم استأنف كلامه قائلاً:

- لا أدري شيئًا يا تارو، أقسم لك أنني لا أدري شيئًا؛ فعندما دخلت هذه المهنة، دخلتها من غير شعور؛ لأنني كنت في حاجة إليها؛ لأنها عمل كغيرها من الأعمال... عمل من تلك الأعمال التي يهفو إليها الشبان، وقد يكون ذلك أيضًا لأنها مهنة عسيرة المنال جدًا على شخص

مثلي من أبناء العمال، ثم كان لا بد لي -بطبيعة الحال- أن أرى الناس يموتون، أتعرف أن هناك أناس يرفضون أن يموتوا؟ هل سمعت يومًا امرأة تقول: «أبدًا» في لحظة احتضارها؟ أما أنا فنعم، وقد لاحظت حينئذ أنه لن يمكنني اعتياد ذلك، كنت شابًا في ذلك الحين، وظننت أن ما شعرت به من اشمئزاز ينصب على نظام العالم نفسه، ولكنني أصبحت أكثر تواضعًا بعد ذلك، غير أنني لم أستطع أن أعتاد رؤية الناس يموتون، أما فيما عدا ذلك، فلست أدري شيئًا. وبعد...

وهنا صمت ريو، وجلس من جديد، كان يشعر بجفاف حلقه، وقال تارو بلطف:

- وبعد؟

- وبعد -ثم عاد إلى التردد وهو ينظر إلى تارو باهتمام- ذلك شيء يستطيع رجل مثلك أن يفهمه، أليس كذلك؟ ولكن لما كان نظام العالم قد أسس على الموت، فقد يكون الأفضل بالنسبة للإله نفسه ألا يؤمن الناس به، وأن يناضلوا ضد الموت بكل ما أوتوا من قوة، دون أن يرفعوا أعينهم إلى هذه السماء التي تعنصم بالصمت.

وقال تارو مؤيدًا:

- نعم، أستطيع أن أفهم ذلك، ولكن انتصاراتكم ستكون دائمًا مؤقتة، هذا كل ما في الأمر.

وأظلم وجه ريو، وقال:

- دائمًا، أعرف ذلك، ولكن ليس هذا سببًا يبرر لنا أن نكف عن الكفاح.

- نعم ليس هذا سبباً، ولكنني حينئذ أتخيل ماذا يعني هذا الطاعون بالنسبة لكم.

وأجاب ريو:

- نعم، هزيمة على طول الخط.

وحقق تارو في الدكتور برهة، ثم نهض يمشي متثاقلاً ناحية الباب، وتبعه ريو، وعندما لحق به قال له تارو - وهو يتشاغل بالنظر إلى قدميه -:

- من علمك كل هذا يا دكتور؟

وكان جوابه الفوري:

- البؤس.

وفتح ريو باب مكتبه، وفي الدهليز أخبر تارو أنه نازل معه لعيادة أحد مرضاه في أحد الأحياء الخارجية، وعرض عليه تارو أن يرافقه، فوافق الطبيب. وفي نهاية الدهليز التقيا بمدام ريو، وقدم لها الطبيب تارو قائلاً:

- أحد الأصدقاء.

وأجابت مدام ريو:

- تشرفت جداً بمعرفتك.

وعندما ذهبت، أدار تارو وجهه ناحيتها من جديد، وعلى عتبة الباب حاول تارو أن يضيء نور السلم، ولكن عبثاً، فظل السلم غارقاً في الظلام، وتساءل الدكتور عما إذا كان ذلك إجراءً اقتصادياً جديداً، ولكن لم يكن أحد يدري من الأمر شيئاً، فمنذ بعض الوقت انقلبت جميع الأوضاع

سواء في المنازل أم في المدينة، وقد يكون ذلك لمجرد أن البوابين والمواطنين -على وجه العموم- لم يعودوا يابهون لشيء، ولكن الطبيب لم يجد الوقت الكافي لمواصلة التساؤل؛ لأن صوت تارو رن خلفه قائلاً:
- كلمة أخرى يا دكتور، حتى ولو بدت لك مدعاة للسخرية: إن الحق كله في جانبك.

وهز ريو كتفيه لنفسه في الظلام، وقال:
- لا أدري شيئاً في الحقيقة، ولكن ماذا تعرف أنت عن ذلك؟
وقال الآخر -دون أي تأثر-:
- أوه! لم يبق أمامي ما أتعلمه إلا القليل.
وتوقف الطبيب عندما انزلت قدم تارو من خلفه على إحدى الدرجات، واستعاد تارو توازنه معتمداً على كتف ريو.
وسأله هذا الأخير:
- أعتقد أنك تعرف كل شيء عن الحياة؟
وانطلقت الإجابة في الظلام يحملها نفس الصوت الهادئ:
- نعم.

ولما خرجا إلى الشارع أدركا أن الوقت قد تأخر، وأن الساعة ربما بلغت الحادية عشرة، كانت المدينة صامتة لا تسمع فيها إلا بعض الهمهمات. ولم يلبثا أن سمعا عربة الإسعاف ترن أجراسها من بعيد، وصعدا إلى السيارة، وأدار ريو المحرك وهو يقول:
- يجب أن تحضر غداً إلى المستشفى؛ لكي تحقن بالمصل الواقى

حتى ننتهي من ذلك، ولكن قبل أن تدخل في هذه المسألة ينبغي أن تقول لنفسك: إن لديك فرصة واحدة للنجاة من كل ثلاث فرص.

- كل هذه التقديرات لا معنى لها يا دكتور، وأنت تعرف ذلك كما أعرفه، ومنذ مائة عام اجتاحت وباء الطاعون جميع السكان في إحدى مدن فارس، ولم ينج منه سوى غاسل الموتى الذي لم يكن قد توقف قط عن ممارسة مهنته.

وقال ريو - بصوت بدا فجأة أكثر احتباساً -:

- لقد احتفظ بفرصته الثالثة، هذا كل ما في الأمر، ولكن الحقيقة أننا نجهل كل شيء عن هذا الموضوع.

وفي هذه اللحظة كانا قد دخلا الحي الخارجي، وكانت كشافات السيارة ترسل ضوءها في الشوارع المقفرة، وما لبثا أن توقفا، وأمام السيارة سأل ريو تارو عما إذا كان يريد أن يدخل معه، وأجاب الآخر بالإيجاب. وأضاء شعاع منبعث من السماء وجهيهما، وفجأة انفجر ريو بضحكة ودية، ثم قال:

- هيا يا تارو، ما الذي يدفعك إلى أن تشغل نفسك بهذا؟

- لا أدري، ربما كانت فكرتي الخلقية.

- أي فكرة خلقية؟

- فهمي لحقيقة الأمور.

وولى تارو وجهه شطر المنزل، ولم يعد تارو يرى وجهه إلا عندما صارا عند العجوز المريض بالربو.

ومنذ اليوم التالي بدأ تارو العمل، فجمع أول فرقة، ثم أتبعها بفرق أخرى كثيرة.

ولكن ليس من أغراض الراوي أن يعطي هذه التشكيلات الصحية من الأهمية أكثر مما لها. نعم، لعل كثيرًا من مواطنينا كانوا يستسلمون لإغراء المبالغة في أهمية هذا الدور لو أنهم كانوا في مكانه، ولكن راوينا يميل إلى الاعتقاد بأننا عندما نبالغ في أهمية الأعمال الجميلة ننتهي بأن نوجه إلى الشر تكريماً قوياً بطريق غير مباشر؛ ذلك لأننا نفترض أن ليس لهذه الأعمال تلك القيمة إلا لأنها نادرة الوقوع، وأن أعمال البشر تقوم بالأحرى على دوافع الشر وعدم المبالاة. تلك فكرة لا يشارك الراوي فيها غيره، فإن الشر الموجود في العالم يرجع كله تقريباً إلى الجهل دائماً، وإن طيبة النفس إذا لم تتوافر لها الاستنارة، قد تؤدي إلى نفس الأضرار التي تنتج عن الشر، والحقيقة أن الناس أميل إلى الخير منهم إلى الشر، ولكن ليس هذا هو المطلوب، ولكنهم يجهلون -إن قليلاً وإن كثيراً- وهذا هو ما نسميه الفضيلة والرذيلة، فأبغض الرذائل ليست إلا رذيلة الجهل الذي يجعل صاحبه يعتقد أنه يعرف كل شيء، ويعطي لنفسه حق القتل. إن نفس القاتل عمياء، وليس هناك طيبة نفس حقيقية، ولا حب جميل إلا وكان مصحوباً بكل ما يمكن من استنارة.

ولذلك يجب أن نحكم على التشكيلات الصحية التي تكونت -بفضل تارو- بنوع من الرضى الموضوعي، ولذلك لم يسرف الراوي في استخدام بلاغته للتغني بإرادة وشجاعة لا يعلق عليهما إلا أهمية معقولة، ولكنه سيستمر يؤرخ لتلك القلوب، قلوب مواطنينا التي فرقها الطاعون وأعطشها.

أما أولئك الذين تطوعوا في المنظمات الصحية، فلم يكن لهم فضل كبير في هذا التفاني؛ لأنهم كانوا يعلمون أنه ليس في وسعهم أن يفعلوا غير ذلك، وأن الذي لا يمكن أن يصدق حقاً هو الإحجام عن هذا العمل، وقد ساعدت هذه المنظمات مواطنينا على الاندماج في حالة الطاعون أكثر من ذي قبل، وأقنعتهم بأنه ما دام المرض موجوداً بيننا، فإنه ينبغي عمل كل ما يمكن عمله لمكافحته. ولما كان الطاعون قد أصبح هكذا -واجب بعض الناس- فقد بدا على ما هو عليه في الواقع، أي على أنه مسألة تهם الناس جميعاً.

وهذا أمر طيب، ولكن ليس من المستساغ أن يهناً المدرس على أنه يعلم تلاميذه أن «اثنين واثنين تساوي أربعة» ولكنه قد يهناً لأنه اختار هذه المهنة الجميلة، فلنقل إذن: إن تارو وزملاءه جديرون بالثناء على أنهم قد اختاروا أن يثبتوا للناس أن اثنين واثنين تساوي أربعة، لا العكس، ولكن لنقل أيضاً: إن هذه النية الطيبة كانت مشتركة بينهم وبين المدرس وبين كل من كان له قلب كقلب المدرس، وأن هؤلاء كانوا أكثر عدداً مما نظن، ذلك الأمر الذي يشرف الإنسان، هذا على الأقل هو اعتقاد الراوي، هذا إلى أن ذلك الراوي قد أدرك ما يمكن أن يوجه إليه

من اعتراض، وهو: أن هؤلاء الرجال قد جازفوا بحياتهم، ولكن هناك في التاريخ لحظات يعاقب فيها من يجرؤ على القول بأن اثنين واثنين تساوي أربعة بالموت، والمدرس يعرف ذلك جيداً. والمسألة ليست في أن تعرف ما هي المكافأة، أو ما هو العقاب الذي يستتبعه هذا التفكير، وإنما تنحصر المسألة في أن نعرف ما إذا كان اثنان واثنان تساوي أربعة أم لا، فمواطنونا الذين جازفوا في هذا الوقت بحياتهم، كان عليهم أن يقرروا ما إذا كانوا في وقت الطاعون أم لا؟ وما إذا كان من الواجب عليهم أن يكافحوه أم لا؟

وقد دأب كثير من الهداة الجدد في مدينتنا يقولون: إنه لم يعد هناك جدوى من أي شيء، وأنه ينبغي أن نجثو على أقدامنا، وكان تارو وريو وأصدقاؤهما يجيئون على ذلك بما شاءوا، ولكن النتيجة كانت دائماً ما قد عرفوه، وهي: أنه يجب علينا الكفاح بطريقة أو بأخرى، ولا ينبغي أن نجثو على أقدامنا، المهم هو حماية أكبر عدد ممكن من الناس من أن يموتوا، ومن أن يذوقوا الفراق الأبدي، ولم يكن هناك سبيل إلى هذا إلا سبيل واحد، وهو مكافحة الطاعون، ولم تكن هذه حقيقة مرضية ولكنها منطقية.

ومن أجل ذلك كان من الطبيعي أن يبذل كاستل العجز كل ثقته وهمته في صنع مصل محلي من المواد التي تتفق له، وكان هو وريو يأملان في أن يكون مفعول المصل المصنوع من زرع الميكروب نفسه -الذي يلوث المدينة- أنجع من مفعول المصل الوارد من الخارج، ولا سيما أن هذا الميكروب كان يختلف اختلافاً طفيفاً عن ميكروب

الطاعون على نحو ما هو معروف في الكتب المقررة.

وكان كاستل يأمل في أن يحصل على أول كمية من مصله في القريب العاجل.

ولهذا أيضًا كان من الطبيعي أن نرى جران -الذي لا يتسم بأي صفة من صفات الأبطال- يقوم بأعمال السكرتارية للمنظمات الصحية، وقد كرس بعض الفرق التي كونها تارو نفسها لأعمال الإسعاف الوقائي في الأحياء المزدحمة بالسكان، وحاولوا أن يدخلوا فيها قواعد علم الصحة الضرورية، وقاموا بحصر البدرومات والأسطح التي لم يكن قد تم تطهيرها، وقامت فرق أخرى بمساعدة الأطباء في الزيارات المنزلية، وتكفلت بنقل المصابين، بل وصارت -فيما بعد- تقوم بقيادة سيارات المرضى والموتى، كلما عز وجود المختصين، ولما كان ذلك يتطلب بعض أعمال التسجيل والإحصاء، فقد قبل جران أن يقوم بها.

ويرى الراوي -من وجهة النظر هذه- أن جران كان أكثر من ريو أو تارو تمثيلًا لهذه الفضيلة التي تبعث الحياة في المنظمات الصحية، فقد قال نعم بكل ما لديه من عزيمة وهمة، ودون تردد، ولم يكن له إلا هدف واحد، وهو أن يصبح ذا نفع في الأعمال الصغيرة، أما الأعمال الأخرى، فقد كانت سنه لا تقوى عليها، وقد استطاع أن يكرس من وقته للمنظمات بين ثماني عشرة ساعة وعشرين ساعة يوميًا، ولما أقبل ريو يشكره بحرارة دهش لذلك، وقال: «ليس هذا أصعب ما في الأمر، فهناك الطاعون، ولا بد لنا من الدفاع عن أنفسنا، هذا أمر واضح. آه لو كان كل شيء في مثل هذه السهولة!». وكان بعد ذلك يعود إلى جملته، وكان

يحدث أحياناً في المساء -بعد أن تنتهي أعمال البطاقات- أن يجلس ريو ليتحدث مع جران، ثم انتهيا بأن أشركا تارو معهما في الحديث، وفتح جران قلبه لزميليه بسرور لا شك فيه، وأخذ هذان الأخيران يتبعان باهتمام العمل الذي استمر يثابر عليه بأناة وصبر وسط الطاعون، وانتهيا هما أيضاً بأن وجدوا فيه نوعاً من الترويح.

وكان تارو كثيراً ما يسأل جران: «كيف حال الفارسة؟»، فيجيب جران هذه الإجابة التي لم تكن تتغير، وهو يتسم ابتسامة عسيرة: «إنها تسير ببطء، تسير ببطء». وذات مساء قال جران: إنه قد تخطى نهائياً عن وصف فارسته «بالأنيقة» وأنه سينعتها دائماً منذ الآن «بالرشيقة»، وأضاف أن هذا أكثر تشخيصاً. ومرة أخرى قرأ على مستمعيه الجملة الأولى بعد أن أجرى عليها تعديلاً فأصبحت كما يلي: «في صباح يوم جميل من أيام شهر مايو أخذت فارسة رشيقة تعبر ممرات غابة بولونيا المزهرة على صهوة فرس رائعة».

ثم علق قائلاً: «على هذا النحو تصبح أحسن من ذي قبل، أليس كذلك؟ وقد فضلت «في صباح يوم جميل من أيام شهر مايو؛ لأن شهر مايو يطول الخبب بعض الشيء».

ثم بدا بعد ذلك مشغول البال بالصفة «رائع»؛ لأنها لم تكن معبرة في رأيه، وأخذ يبحث عن التعبير الذي يستطيع في لقطة واحدة أن يصور الفرس الجميلة التي يتخيلها تصويراً فوتوغرافياً، إن صفة «ممتلئة» لا تصلح؛ إنها حقاً مشخصة، ولكنها مبتذلة المعنى، وقد مال حيناً للصفة «وضاءة»، ولكنه رأى أنها لا تتسق وموسيقى الجملة، وذات مساء أعلن

بزهو المنتصرين أنه وجدها: «إنها فرس سوداء دهماء»؛ وذلك أن اللون الأسود يدل على الأناقة في صورة غير صارخة، وهذا رأيه بطبيعة الحال.

وقال ريو:

- هذا غير ممكن.

- ولماذا إذن؟

- لأن «دهماء» لا تدل على السلالة، وإنما على اللون.

- أي لون؟

- ليس اللون الأسود على أي حال.

وبدا على جران الارتباك، وقال:

- شكرًا، ومن حسن الحظ أنك هنا. ولكنك ترى كم هو عسير هذا

العمل.

وقال تارو:

- ما رأيك في «جافخ»؟ فنظر إليه جران واستغرق في التفكير، ثم

قال:

- نعم، نعم!

وأخذت الابتسامة ترسم على وجهه تدريجيًا.

وبعد ذلك بوقت ما، اعترف جران بأن كلمة «مزهرة» تربكه، وحيث

إنه لم يعرف قط سوى وهران ومونتليمار، فقد كان يطلب أحيانًا من

صديقيه بعض الإيضاحات عن الصورة التي تزدهر بها ممرات الغابة،

والحقيقة أن ريو وتارو لم يستطيعا مطلقاً أن يتصورا هذه الممرات مزهرة، ولكن رسوخ تلك الفكرة في ذهن الموظف جعلهما يتأرجحان في رأيهما. ودهش الموظف من عدم تأكدهما؛ إذ «إن الفنانين وحدهم هم الذين يعرفون كيف ينظرون إلى الأشياء». ومع ذلك فقد وجده الطبيب ذات مرة في حالة انفعال شديد؛ ذلك أنه استبدل كلمة «مزهرة» بعبارة «مليئة بالأزهار»، وأخذ يفرك يديه، ويقول:

«وأخيراً على هذا النحو تستطيع رؤيتها والشعور بها. ارفعوا قبعاتكم أيها السادة!» وأخذ يقرأ الجملة بخيلاء: «في صباح يوم جميل من أيام شهر مايو، كانت فارسة رشيقة تجول في ممرات غابة بولونيا المليئة بالأزهار على صهوة فرس جافخة دهماء». ولكن عندما قرأ هذه الجملة بصوت مرتفع، أحس بوقع سيئ لنغمتها بسبب الإضافات الثلاث التي في نهايتها، فتمتم قليلاً، وجلس مهموماً، ثم طلب من الطبيب الإذن بالانصراف؛ لأنه في حاجة إلى أن يفكر قليلاً.

كانت هذه هي الفترة التي ظهر فيها على جران الكثير من علامات الشرود في المكتب، وقد أسف رؤساؤه كثيراً لوقوع ذلك منه في وقت كان على البلدية فيه أن تواجه التزامات مضية بعدد مخفض من الموظفين، وقد أبدت المصلحة التي يعمل فيها تضررها من ذلك، ولامه عليه رئيس مكتبه، وذكره بأنه يتناول مرتبه عن عمل لا يؤديه، وقال له: «يبدو أنك قد تطوعت في المنظمات الصحية إلى جانب عملك، وهذا لا يهمني في شيء؛ فكل ما يهمني هو عملك، وإذا أردت أن تكون نافعا في هذه الظروف العصيبة، فإن أجدى طريقة لذلك، هي أن تحسن أداء

عملك، أما ما عدا ذلك فلا جدوى منه».

وقال جران لريو:

- إنه على حق.

وأجابه الطبيب مؤمناً على ما يقول:

- نعم، إنه على حق.

فأضاف قائلاً:

- ولكنني شارد الذهن، ولا أدري كيف أصلح نهاية جملتي.

وكان قد فكر في حذف كلمة «بولونيا» باعتبار أنها تُفهم ضمناً، ولكنه لما قرأ الجملة بهذا التعديل وجد فيها أن كلمة «زهور» تضيف إلى «الغابة» ما كان ينبغي -في الحقيقة- أن تضيفه «للممرات»، ولقد فكر أيضاً في كتابة «ممرات الغابة المليئة بالأزهار»، ولكن موقع كلمة «الغابة» بين الاسم والصفة اللذين يفصلهما بصورة تحكمية، كان كوخز الإبر في جسمه، حتى إنه كان يبدو في الحقيقة أكثر إجهاداً من ريو.

نعم، كان هذا البحث الذي استحوز عليه كلية يرهقه بالتعب، ولكنه استمر مع ذلك في عمليات الجمع والإحصاء التي كانت تحتاج لها المنظمات الصحية، فكان -في كل مساء- يجهد نفسه في توضيح غامض الجزازات، وإرفاقها بالأقواس البيانية، وبذل كل ما لديه من صبر في عرض الحالات على أدق وجه ممكن، وكثيراً ما كان يذهب ليلحق بريو في أحد المستشفيات، ويطلب منه منضدة في أحد المكاتب أو المستوصفات، ثم يجلس إليها مع أوراقه تماماً، كما كان يجلس

إلى منضدته في دار البلدية، وفي هذا الجو المثلث برائحة المطهرات، وبالمرض نفسه، كنت تراه يهز أوراقه ليخفف مدادها، وهنا كان يحاول بأمانة وإخلاص ألا يفكر في فارسته، وألا يعمل إلا ما ينبغي عمله.

نعم، لو كان حقيقياً أن الناس يحبون أن يتخذوا لأنفسهم أسوات وقدوات فيمن يسمونهم أبطالاً، وإذا كان من الضروري أن يكون هناك بطل في هذه القصة، فإن الراوي يقترح هذا البطل بالذات، هذا البطل التافه المغمور الذي لا يمتاز إلا بشيء من طيبة القلب، وبمثل أعلى يدعو للسخرية على ما كان يبدو، فهذا من شأنه أن يعطي ما للحقيقة للحقيقة، وما لجمع اثنين واثنين حاصل جمعهما وهو أربعة، كما يعطي للبطولة ذلك المكان الثانوي الذي لا تستحق غيره، أي خلف المطالب السخية التي تتطلبها السعادة، لا أمامها. وهذا من شأنه أيضاً أن يضفي على هذه القصة طابعها الحقيقي، طابع العلاقات القائمة على المشاعر الطيبة، أي المشاعر التي لا تتسم بالسوء الصارخ، ولا بالحماس الذي لا يوجد إلا في المسرحيات المبتذلة.

كان هذا على الأقل هو رأي الدكتور ريو عندما كان يقرأ في الجرائد، أو يسمع في المذياع النداءات والتشجيعات التي يرسلها العالم الخارجي إلى المدينة التي أصبحت منكوبة بالطاعون؛ فقد كانت المعونات ترسل كل مساء جواً وبراً إلى المدينة المنعزلة، وفي نفس الوقت كانت تتقاطر عليها عبارات الرثاء أو الإعجاب على أمواج الأثير، أو على صفحات الجرائد، وفي كل مرة كان جو الملاحم أو الخطب يثير ضجر الطبيب. نعم، إنه كان واثقاً من أن هذا التأيد غير

مصطنع، ولكن لم يكن التعبير عنه إلا باللغة التي اصطلاح الناس عليها عندما يحاولون التعبير عما يربطهم بغيرهم من بني البشر، ولم تكن هذه اللغة لتتطبق على المجهودات الصغيرة اليومية التي كان يقوم بها جران، مثلاً؛ لأنه لم يكن في وسعها أن تدلنا على المعنى الذي يدل عليه وجود جران وسط الطاعون.

وفي منتصف الليل، ووسط السكون المطبق الذي كان يسود المدينة المهجورة، في ذلك الوقت الذي كان الطبيب يذهب فيه إلى فراشه ليحصل على قدر قصير جداً من النوم، كان يعمد أحياناً إلى إدارة مفتاح المذياع، وكانت هناك أصوات مجهولة - ولكنها ضعيفة - تنبعث من أبعد بقاع العالم، وعبر آلاف من الكيلومترات، وتحاول - في غير لباقة - أن تعبر عن مشاركتها للمدينة المنكوبة في آلامها، ولكنها إذ كانت تعبر عن هذه المشاركة، فإنها كانت في نفس الوقت تدلل على العجز المروع الذي يعانيه كل إنسان حينما يريد أن يقاسم الناس ألمًا لا يستطيع أن يراه: «وهران! وهران!» كان هذا النداء يعبر البحار، ولكن عبثاً، كما كان من العبث أيضاً أن يجلس ريو في حالة طوارئ، فسرعان ما كانت تدخل البلاغة في الموضوع، ويظهر الفارق الجوهرى الذي يفصل بين جران وهذا الخطيب واضحاً جلياً، نعم «وهران! وهران!»، ولكن الطبيب كان يطيل التفكير، ويقول في نفسه: «كلا، إما أن نحب معاً، أو أن نموت معاً، وليس هناك حل آخر. إنهم جد بعيدين».



أما ما بقي علينا ذكره قبل أن نصل إلى قمة الطاعون، أعني في ذلك الوقت الذي أخذ الوباء فيه يستجمع كل قواه لكي ينقض على المدينة، ويستولي عليها نهائياً، فهي تلك المجهودات الطويلة اليائسة الرتيبة التي كانت تقوم بها البقية الباقية من الناس - مثل رامبير - لاستعادة سعادتهم؛ ولكي ينتزعوا من الطاعون هذا الجزء من أنفسهم الذي يدافعون عنه ضد أي إصابة، تلك كانت طريقتهم في رفض العبودية التي تهددهم، فإن الراوي يرى أنه مع ذلك كان له مغزاه، وأنه يشهد - مع ما فيه من تفاهة، بل وما ينطوي عليه من تناقض - بما كان لدى كل شخص منا في ذلك الحين من عزة.

كان رامبير يكافح لكي يمنع الطاعون من أن يطويه تحت جناحه، فلما بينت له الأدلة أنه لن يستطيع الخروج من المدينة بالطرق المشروعة، قرر - كما قال لريو - أن يلجأ إلى الوسائل الأخرى، وقد بدأ الصحفي بخدم المقاهي؛ لأن خادماً المقهى على علم دائماً بكل شيء، ولكن أول خادماً لجأ إليه كان على علم - بوجه خاص - بالعقوبات الشديدة التي يجرها هذا النوع من المحاولات، بل لقد حدث له في

إحدى هذه المرات أن ظنه الناس محرضًا، ولم يستطع التقدم من هدفه بعض الشيء، إلا بعد أن التقى بكوتار، ففي هذا اليوم كان قد تكلم هو وريو مرة ثانية عن المحاولات غير المجدية التي بذلها هذا الصحفي في الإدارات، وبعد ذلك بأيام قلائل، تقابل كوتار مع رامبير في الشارع، فاستقبله بالصراحة التي أخذ الآن يتبعها في كل علاقاته، وقال له:

- لا شيء كالمعتاد؟

- كلا، لا شيء.

- لا يمكن الاعتماد على المكاتب، فهي لم تخلق لتفهم.

- هذا صحيح، ولكنني أحاول طريقة أخرى، وهذا أمر عسير.

فقال كوتار:

- آه! أرى ذلك.

إنه يعرف إحدى هذه الخطط، ولما دهش رامبير لذلك، شرح له كيف أنه منذ بعض الوقت يختلط بمقاهي وهران، وكيف أن له أصدقاء، وأن لديه معلومات عن وجود منظمة تشتغل بهذا النوع من العمليات، والحقيقة أن كوتار -الذي كانت مصروفاته قد أخذت تتجاوز دخله- قد بدأ يشتغل في تهريب المواد المسعرة، فكان يبيع السجائر والمشروبات الرديئة التي كانت أسعارها في صعود مستمر، والتي أوشكت أن تدر عليه ثروة لا بأس بها.

وسأل رامبير:

- هل أنت واثق من ذلك؟

وأجاب كوتار:

- نعم، حيث إنهم قد عرضوا عليّ هذه الخطة.

- ولم تستفد منها؟

فقال كوتار بلهجة الرجل الطيب:

- لا تسيء الظن، فأنا لم أستفد منها؛ لأنني لا أرغب في الرحيل،
وعندي أسباب لذلك.

وبعد فترة صمت وجيزة، أضاف قائلاً:

- ألا تسألني ما هي هذه الأسباب؟

- إنني أفترض أن ذلك لا يعني.

- في الواقع أن هذا لا يعنيك من ناحية ما، ولكن من ناحية أخرى...
على كل حال من المؤكد أن أحوالي قد تحسنت منذ أن حل الطاعون
بيننا.

واستمع الآخر إلى كلامه، ثم قال:

- ما الوسيلة للاتصال بهذه المنظمة؟

وأجاب كوتار:

- آه، إن الأمر ليس سهلاً، تعال معي.

وكانت الساعة قد بلغت الرابعة بعد الظهر، وكان الجو قد أخذ
يعمل عمله في المدينة تحت سماء ثقيلة، وأغلقت أبواب المحال
التجارية، وخلت الشوارع من المارة، واضطر كوتار ورامبير أن يسلكا

الشوارع ذات الجوانب المغطاة، وظلا يسيران دون أن يتكلما. كانت هذه إحدى الساعات التي يبدو فيها الطاعون وكأنه محتجب، وكان من الممكن أن يكون هذا الصمت - هذا الموت الذي يدرك الألوان والحركات - ناشئاً من فعل الصيف، أو من فعل الوباء؛ فلم يكن يدري أحد ما إذا كان الهواء ثقيلاً من جرّاء ما يحمل من أخطار، أم من الغبار والقيظ المحرق، ذلك أنه كان يتحتم على الناس أن يلاحظوا ويفكروا؛ لكي يتتبعوا الطاعون؛ لأنه لا يكشف عن نفسه إلا بعلامات سلبية، وكان لكوتار ملاحظات دقيقة صحيحة بخصوص الطاعون، فلفت مثلاً نظر رامبير إلى أن الكلاب لا وجود لها، في حين أنها في الأوقات العادية تُرى راقدة على جوانبها على أبواب الممرات، وهي تلهث، وتبحث عبثاً عن نسمة رطبة لا وجود لها.

وسلك الرجلان «طريق النخيل»، وعبرا ميدان السلام، وهبطا نحو حي البحرية، وكان على يسارهما مقهى طليّ باللون الأخضر، واحتفى من الحر بستار مائل من النسيج الأصفر السميك، فدخله كوتار ورامبير وهما يجففان جبينيهما، واتخذا مكانيهما على مقعدين من مقاعد الحدائق التي تُطوى وتُفرد، أمام مائدة خضراء من الصلب الرقيق. كانت القاعة خاوية تماماً، وكان طنين الذباب يُسمع في الهواء، وكان أمامهما على عداد البيع ذي السيقان الملتوية قفص أصفر به بيغاء نفشت ريشها بأجمعه، وجثمت متهالكة على عشاها، وكانت هناك لوحات تمثل مشاهد حربية معلقة على الجدران، وقد غطتها الأقذار، ونسجت فوقها العنكبوت خيوطاً سميكّة، وكانت الموائد - بما فيها

مائدة رامبير - مغطاة ببعض ذُرُق الدجاج، وقد حار رامبير -أول الأمر- في تفسير مصدر هذا الذُّراق، حتى رأى ديكا جميلاً يخرج بعد قليل من ركن معتم، ويقفز قفزات صغيرة.

وفي هذه اللحظة كان الحر لا يزال مستمرًا في الارتفاع، فخلع كوتار سترته، وضرب بيده على المائدة، فخرج إليه من أقصى المكان رجل ضئيل الجسم غارق في «مريلته» الزرقاء، وما إن رأى كوتار حتى حياه على بعد، ثم أخذ يتقدم نحوه، وهو يزيح الديك من طريقه بضربة قوية من قدمه، وسأل وسط صياح الديك عما يمكن أن يقدم لهما، وطلب كوتار نبيذًا أبيض، ثم سأل عن المدعو جارسيا، وأجاب الرجل الضئيل الجسم: إنه لم يُرَ في المقهى منذ عدة أيام.

- أتظن أنه سوف يأتي هذا المساء؟

وقال الآخر:

- آه! إنني لست صاحب أمره، ولكن أُلست تعرف مواعده؟

- بلى، ولكن هذا لا يهم كثيرًا، إن لديَّ صديقًا أريد تقديمه إليه.

ومسح الخادم يديه المبتلتين في الجزء الأمامي من «مريلته»، ثم

قال:

- آه! هذا السيد يهتم هو الآخر بالأعمال؟

وأجاب كوتار:

- نعم.

وأخذ الرجل الصغير نفسًا طويلاً من أنفه، ثم قال:

- إذن عودا هذا المساء، فسوف أرسل إليه الصبي.

ولما خرجا، سأل رامبير زميله عن أي أعمال يتحدث، وأجاب
كوتار قائلاً:

- إنها أعمال التهريب طبعًا، فإنهم يدخلون البضائع من أبواب
المدينة، ويبيعونها بأسعار مرتفعة.

وقال رامبير:

- حسن، وهل لهم شركاء؟

- بالطبع.

وفي المساء كانت مظلة المقهى قد رُفعت، وراحت الببغاء تثرثر
في قفصها، وكانت موائد الحديد محاطة بالناس الذين لا يلبسون غير
الأقمصة، وما إن دخل كوتار حتى هب أحدهم واقفًا، وكان يرتدي
قبعة من القش على مؤخرة رأسه، وقميصًا أبيض يكشف عن صدر في
لون الطين المحروق. كان وجهه منتظم الملامح قد دبغته الشمس،
وتتوسطه عينان صغيرتان سوداوان، وأسنانه بيضاء، وقد وضع في
أصابعه خاتمين أو ثلاثة، كان يبدو في الثلاثين من عمره تقريبًا،
وبادرهما الرجل قائلاً:

- سلام عليكما؛ لنشرب عند العداد.

وشربوا ثلاث مرات دون أن يتكلموا، ثم قال جارسيا:

- ماذا لو خرجنا؟

وهبطوا تجاه الميناء، وهناك سأل جارسيا: ما يبغيان منه؟ وقال له
كوتار: إنه يريد أن يقدم له رامبير، لا من أجل الأعمال، ولكن من أجل
ما يسمونه «بإحدى الخرجات». وكان جارسيا يمشي أمامه رأساً وهو
يدخن، ثم ما لبث أن وجه إليه بعض الأسئلة مستعملاً الضمير «هو»
كلما تكلم عن رامبير، كما لو لم يكن قد لاحظ وجوده، ثم قال:

- ولماذا؟

- إن زوجته في فرنسا.

- آه.

ثم أضاف قائلاً بعد لحظة:

- ما مهنته؟

- صحفي.

- إنها مهنة يثرثرون فيها كثيراً.

وظل رامبير لائئذا بالصمت، وأجاب كوتار بقوله:

- إنه صديق.

وتقدموا في صمت، وكانوا قد وصلوا إلى الأرصفة حيث تقوم
أسوار عالية تحول دون دخولها، ولكنهم اتجهوا إلى مشرب صغير يُباع
فيه السردين المقلبي الذي تصاعدت رائحته، وراحت تداعب أنوفهم،
وأنتهى جارسيا كلامه قائلاً:

- على كل حال ليس هذا من اختصاصي، بل من اختصاص رامول،

ينبغي أن أعثر عليه، ولن يكون هذا الأمر سهلاً.

وسأله كوتار باهتمام:

- آه! هل هو مختبئ؟

ولم يجب جارسيا بشيء، ثم توقفوا بجوار المشرب الصغير،
والتفت جارسيا إلى رامبير للمرة الأولى، وقال:

- بعد غد في الساعة الحادية عشر على ناصية شارع ثكنات
الجمرك، في أعلى المدينة.

واستعد للذهاب، ولكنه استدار تجاه الرجلين، وقال:

- إن الأمر يتطلب بعض المصاريف.

وكان ذلك بمثابة إقرار واقع.

وأيد رامبير ذلك قائلاً:

- بكل تأكيد.

وبعد قليل شكر الصحفي كوتار، وأجابه هذا الأخير في لهجة
مرحة:

- كلا! يسعدني أن أؤدي لك خدمة، ثم إنك صحفي، وسترد لي
ذلك يوماً ما.

ومر يوم، وفي اليوم الذي يليه عبر رامبير وكوتار الشوارع الكبيرة
العارية من الظل، والتي تؤدي إلى أعلى المدينة، وكان جزء من ثكنات
الجمرك قد تحول إلى مستوصف، وقد تجمهر أمام بابه الكبير بعض
الناس الذين أتوا على أمل زيارة لا يمكن التصريح بها، أو لطلب
معلومات تصبح ما بين ساعة وأخرى قديمة لا فائدة منها، وأياً ما

كان، فقد كان هذا التجمهر يسمح بكثير من حركات الذهاب والجيئة. وقد يكون من الممكن افتراض أن هذه الحقيقة ليست مقطوعة الصلة بالطريقة التي تم بها تحديد الموعد بين جارسيا ورامبير.

وقال كوتار:

- أمر غريب ذلك التصميم على الرحيل، على أي حال كل ما يجري الآن يثير الاهتمام.

وأجاب رامبير:

- ليس بالنسبة لي.

- أوه! بكل تأكيد، فهناك بعض المخاطرة، ولكن الناس جميعًا كانوا يتعرضون لنفس القدر من المخاطرة - قبل الطاعون - عندما كانوا يعبرون ميدانًا مزدحمًا.

وفي هذه اللحظة وقفت سيارة ريو بحذائهما، وكان تارو هو الذي يقودها، أما ريو، فقد بدا كمن كان في سنة ثم استيقظ لتوه؛ كي يتولى مهمة التعريف.

وقال تارو:

- إننا متعارفون يعرف بعضنا بعضًا، فنحن نسكن نفس الفندق.

ثم عرض على رامبير أن يوصله إلى المدينة، فأجاب:

- كلا، فإننا على موعد هنا.

ونظر ريو إلى رامبير، ثم قال:

- نعم.

فتساءل كوتار بدهشة:

- آه! هل الدكتور على علم؟

ثم صاح تارو، وهو يلفت نظر كوتار:

- هذا هو قاضي التحقيق.

وهنا تغير تعبير وجه كوتار.

كان السيد أوتون يهبط فعلاً الشارع، ويتقدم نحوهم بخطى قوية ولكن متزنة، وما إن مر أمام هذه المجموعة الصغيرة حتى رفع قبعته بالتحية.

وقال تارو:

- صباح الخير يا سيدي القاضي.

ورد القاضي بالتحية لمن في السيارة، ثم نظر إلى كوتار ورامبير اللذين ظلّا إلى الخلف، وحياهما برأسه في وقار، وتولى تارو تقديم صاحب الأعمال الصغير والصحفي.

ونظر قاضي التحقيق إلى السماء لحظة، ثم تنهد وهو يقول: إنها فترة جد عصبية، وراح يتساءل:

- قال لي بعض الناس، يا سيد تارو، إنك تعمل في تطبيق الإجراءات الوقائية، وأنا من ناحيتي لا أستطيع أن أؤيدك بكل قوة، أظن يا دكتور أن المرض سيزيد انتشاراً؟

وأجاب ريو: ينبغي أن نأمل غير ذلك.

وقال القاضي مرددًا: إنه ينبغي دائمًا أن نأمل، إذ إنه لا يمكن لأحد أن يتكهن بما خبأته الأقدار.

وسأله تارو عما إذا كانت أعماله قد ازدادت من جراء تلك الحوادث، فقال:

- بالعكس، فمشاكل ما نسميه بالقانون العام قد نقص عددها، ولم يبق أمامي إلا أن أفصل في القضايا المترتبة على التقصير في تطبيق الأوضاع الجديدة، أما القوانين القديمة، فلم تكن تُراعى في يوم من الأيام بقدر ما تُراعى الآن.

فقال تارو:

- معنى هذا أن تلك القوانين تبدو -لدى المقارنة- خيرًا من الجديدة بما لا يدع مجالًا للشك.

وتخلى القاضي عن هيئته الحالمة -التي كان يتخذها حين راح ينظر إلى السماء كما لو كانت عينه معلقة بها- وتفحص تارو بهدوء، وقال:

- وما أهمية ذلك؟ فليس القانون هو المهم، وإنما الحكم بالإدانة، ولكننا لا نملك من الأمر شيئًا.

ولما انصرف القاضي، قال كوتار:

- أما هذا فهو العدو رقم واحد.

ورحلت السيارة.

وبعد قليل شاهد رامبير وكوتار جارسيا قادمًا نحوهما. كان يسير في اتجاههما دون أن يصدر إليهما أي إشارة، وبدلاً من أن يهديهما تحية الصباح، قال:

«يجب الانتظار».

وكان جمع من حولهم -وجلهم من النساء- ينتظرون في صمت مطبق، وكانت أغلبية النساء يحملن سلاّلاً يحدوهن أمل كاذب في إمكان إيصالتها إلى أقاربهن المرضى، وهذا الأمل كان مصحوباً بفكرة لا تقل عنه جنوناً، وهي أن هؤلاء المرضى قادرون على تناول ما بها من طعام، وكان يقوم بحراسة الباب بعض الموظفين المسلحين، وبين الفينة والفينة، كانت تصدر صرخة غريبة تعبر الفناء الذي يفصل الشكنات عن الباب، وحينئذ كانت وجوه الحاضرين القلقة تستدير ناحية المستوصف.

وكان الرجال الثلاثة يتأملون هذا المشهد عندما سمعوا من خلفهم كلمة «صباح الخير» تُلقى بصوت واضح رزين، فالتفتوا وراءهم، وعلى الرغم من شدة الحر، كان راؤول مرتدياً ملابسه كاملة دون أي إهمال، كان طويلاً ممتلئ الجسم يرتدي حلة ذات لون قاتم، وقبعة ملتوية الحافة، وكان شاحب الوجه بعض الشيء، أما عيناه فكانتا عسليتين وكان فمه منقبضاً، وكان يتكلم بطريقة سريعة دقيقة، فقال:

- اهبطا ناحية المدينة، أما أنت يا جارسيا فيمكنك أن تتركنا.

وأشعل جارسيا سيجارته، وتركهم يبتعدون، فساروا بخطى سريعة، وقد ضبط الآخران مشيتهما على مشية راؤول الذي توسطهما، وقال:

- لقد شرح لي جارسيا الأمر، إنه يمكن التنفيذ، وهذا على كل حال، سيكلفك عشرة آلاف فرنك.

وأجاب رامبير بالقبول، وقال راؤول:

- تناولوا غداكما معي - غداً - في مطعم البحرية الإسباني .

ووافق رامبير على ذلك، وشد راؤول على يده وهو يتسم للمرة الأولى، وبعد رحيله استأذن كوتار في الانصراف؛ لأنه كان مشغولاً في الغد، وفضلاً عن ذلك، فإن رامبير لم يعد في حاجة إليه .

وفي اليوم التالي عندما دخل الصحفي المطعم الإسباني، استدارت جميع الرؤوس التي في طريقه ناحيته؛ ذلك أن هذا القبو الظليل الواقع في أسفل أحد الشوارع الصغيرة التي ألهمت الشمس بسياطها، لا يزوره من الرواد سوى أناس أكثرهم ذوي سحنة إسبانية، وكان راؤول يجلس إلى إحدى الموائد، فما إن أبدى إشارة إلى رامبير حتى اتجه ناحيته، وبذلك زال العجب من على الوجوه، وعادت إلى ما كان أمامها من صحاف .

وكان يرافق راؤول على المائدة رجل طويل نحيل، قد أهمل حلاقة لحيته، وكان ذا كتفين عريضتين بشكل غير عادي، ووجهه يشبه وجه الحصان، وشعره خفيف متناثر، وقد شمر عن ساعديه، فبدأ ذراعه المغطاتان بالشعر، وعندما قام راؤول بتقديم رامبير، هز رأسه ثلاث مرات، ولم ينطق راؤول باسم الرجل، وإنما كان يشير إليه أثناء الحديث بقوله: «صديقنا»، وبدأ يقول:

- صديقنا يعتقد أن في إمكانه مساعدتك، وهو سوف ...

ثم توقف راؤول قليلاً؛ لأن الخادمة حضرت تستفسر عما يطلبه رامبير، ثم واصل كلامه قائلاً: إنه سوف يصلك بائنين من أصدقائنا، وهؤلاء سوف يعرفانك بالحراس الذين في صفنا، ولكن الأمر لن ينتهي

عند هذا الحد، فينبغي أن يختار الحراس أنفسهم اللحظة المناسبة، وأسهل الطرق هي أن تبيت بعض الليالي عند أحدهم، وهو يسكن قرب أبواب المدينة، ولكن قبل ذلك سيقوم صديقنا بعمل العقود الضرورية، وهو الذي ستصفي معه الحساب عندما يتم كل شيء.

وهنا هز الصديق رأسه الذي يشبه رأس الحصان مرة أخرى، دون أن يتوقف عن مضغ سلاطة الطماطم والفلفل الأخضر التي كان قد بدأ يلتهمها بشراهة، ثم تكلم بلهجة إسبانية خفيفة، فعرض على رامبير أن يتقابلا بعد غد في الساعة الثامنة صباحاً تحت قبوة باب الكاتدرائية.

وعلق رامبير بقوله:

- ما زال أمامي يومان!

فأجاب راؤول:

- ذلك لأن الأمر ليس سهلاً؛ إذ يجب العثور على الرجال، وأوماً الصديق الحصان برأسه مرة أخرى، ووافق رامبير دون تحمس، وانقضى ما تبقى من وقت الغداء في البحث عن موضوع للحديث، ثم عثروا عليه بغاية السهولة عندما اكتشف رامبير أن الصديق الحصان من لاعبي كرة القدم، تلك اللعبة التي مارسها هو نفسه زمناً، وحينئذ أخذوا يتحدثون عن بطولة فرنسا، وعن قيمة الفرق الإنجليزية المحترفة، وعن خطة ترتيب اللاعبين في شكل W. ولما انتهى الغداء، كان الصديق الحصان قد بلغ من التحمس أشده، ورفع الكلفة بينه وبين رامبير، وراح يبذل جهده في إقناعه بأن أجمل مكان في الفريق هو مكان متوسط الدفاع، وقال له: «أنت تعرف من هو متوسط الدفاع، إنه هو الذي يوزع اللعب،

وتوزيع اللعب هذا هو كل كرة القدم، وكان هذا أيضًا رأي رامبير، ولو أنه لم يلعب إلا في مركز متوسط الهجوم، ولم تتوقف المناقشة إلا عندما انتهى جهاز الراديو من الأغاني العاطفية التي كان يذيعها بصوت يصم الآذان؛ لكي يعلن أن الطاعون قد قتل في الليلة الماضية مائة وسبعة وثلاثين ضحية، ولم يحدث هذا النبأ أي رد فعل في الحاضرين، وحينئذ هز الرجل الحصان كتفيه، ونهض، وتبعه راؤول ورامبير.

وشد متوسط الدفاع على يد رامبير بقوة، وقال:

- اسمي جواز اليس.

وبدا لرامبير أن هذين اليومين لا نهاية لهما، وقد ذهب إلى ريو، وقص عليه مساعيه بالتفصيل، ثم صحبه في إحدى زياراته، وودعه أمام باب المنزل الذي كان ينتظره فيه مريض مشتبه في مرضه، وحينئذ سمع في الممر وقع خطوات، وضوضاء أصوات تخطر الأسرة بحضور الطبيب، وتمتم ريو -الذي كان يبدو عليه التعب- قائلاً:

- عسى ألا يتأخر تارو.

وسأله رامبير بقوله:

- هل زاد انتشار الوباء سرعة؟

وأجاب ريو قائلاً: الواقع ليست هذه هي المشكلة، بل إن الخط البياني يرتفع بسرعة أقل من ذي قبل، وكل ما في الأمر أن وسائل مكافحة الطاعون ليست كثيرة.

ثم قال:

- إننا تنقصنا المعدات، من عادة كل الجيوش في العالم أن تستعوض بالرجال عن نقص المعدات، ولكننا نحن ينقصنا الرجال أيضًا.
فقال رامبير: لقد جاءنا أطباء من الخارج، وكذلك بعض الموظفين الصحيين.

وأجاب ريو:

- نعم، عشرة أطباء، ومائة رجل، وهذا يبدو كثيرًا في الظاهر، ولكنه لا يكاد يكفي بالنسبة لحالة المرض الراهنة، وإذا ازداد انتشار المرض، فلن يعود هذا العدد كافيًا.

ثم أصغى للوضوء المنبعثة من الداخل، وابتسم لرامبير، وقال:

- نعم، ينبغي أن تسرع في إنجاح خطتك.

وغشيت سحابة قاتمة وجه رامبير، وقال بصوت مكتوم:

- إنك تعرف أنه ليس هذا هو ما يحملني على الرحيل.

وأجاب ريو: أنه يعرف ذلك، ولكن رامبير أردف قائلاً:

- أعتقد أنني لست جبانًا، على الأقل في أغلب الأحيان. وقد سنحت لي الفرصة لإثبات ذلك، ولكن هناك أفكارًا لا يمكنني احتمالها.

وحدّق الطبيب في وجهه، وقال:

- سوف نجدها.

- ربما، ولكني لا أستطيع أن أتحمل فكرة أن هذا الموقف قد يدوم، وأن الهرم سيدركها قبل أن نلتقي، فالمرء يبدأ في الهرم في الثلاثين، وينبغي

للإنسان أن يستفيد من كل شيء، لست أدري إذا كنت تستطيع أن تفهمني؟

وغمغم ريو قائلاً: إنه يستطيع أن يفهمه. وفي هذا الوقت قدم تارو،

وكان يبدو عليه الاهتمام، وقال:

- لقد طلبت توًا من يانلو أن ينضم إلينا.

وسأله الطبيب:

- وبعد؟ فأجاب:

- لقد فكر، ثم قال: نعم.

وقال الطبيب:

- هذا يسرني، ويسعدني أن أعرف أنه خير من وعظه.

وقال تارو:

- كل الناس على هذه الحال، كل ما يجب عمله هو إعطاؤهم الفرصة.

ثم ابتسم، وغمز بعينه ناحية ريو الذي قال:

- إن مهمتي في الحياة هي خلق الفرص.

وقال رامبير:

- اسمح لي، فينبغي أن أرحل.

وفي يوم الخميس المحدد للقاء، ذهب رامبير تحت بوابة الكاتدرائية

قبل الساعة الثامنة بخمس دقائق، وكان الجو ما زال رطبًا، وقد تناثرت

في السماء بعض غمامات صغيرة بيضاء مستديرة، لا شك أن حرارة

النهار لن تلبث أن تبددها.

وكانت رائحة الرطوبة الخفيفة تتصاعد من الحشائش على الرغم من جفافها، أما الشمس المختفية خلف منازل الجهة الشرقية، فلم تكن تدفئ إلا قبعة تمثال «جان دارك» المطلي كله بالذهب، والذي يزين الميدان، ودقت الساعة ثماني دقائق فخطا رامبير بضع خطوات تحت البوابة المقفرة، وداعب سمعه من الداخل بعض الترانيم الدينية الغامضة مصحوبة بروائح عتيقة من روائح القبو والبخور، وفجأة توقفت الترانيم، وخرج من الكنيسة نحو عشرة هياكل بشرية صغيرة سوداء، وأخذت تركزض بخطاها الصغيرة ناحية المدينة، وبدأ رامبير يفقد صبره، وأتت هياكل أخرى صغيرة، وأخذت تصعد السلم متجهة نحو البوابة، وأشعل رامبير سيجارة، ثم تنبه إلى أن المكان قد لا يكون من الأماكن المصرح فيها بذلك.

وفي الثامنة والربع بدأت أراغن الكنيسة تعزف بصوت مرتفع، ودخل رامبير تحت القبة المعتمة، وبعد لحظة استطاع أن يلمح في قاعة الكنيسة الهياكل الصغيرة التي مرت أمامه، كانت كلها متجمعة في ركن واحد أمام شيء يشبه المذبح، قد أنشئ بصورة ارتجالية، ووضع عليه تمثال للقديس «روش» تم صنعه بسرعة في أحد مصانع المدينة، وكانت هذه الهياكل -وهي جاثية على ركبها- تبدو كما لو كانت قطعاً من الجلد الجاف قد تاهت في لوحات بارزة كابية اللون، أو قطعاً من الظل قد تجمدت، وأصبحت وهي تتناثر هنا وهناك لا تزيد سمكاً عن الضباب الذي تطفو عليه، ومن فوق رؤوسها كانت الأراغن تعزف تقسيمات لا نهاية لها.

وعندما خرج رامبير كان «جونزاليس» يهبط الدرج، ويتجه ناحية المدينة، وقال للصحفي:

- لقد ظننت أنك عدت أدراجك، وهذا أمر طبيعي.

وشرح له كيف أنه انتظر أصدقاءه الذين كان معهم على موعد آخر حددده لهم في مكان لا يبعد كثيرًا عن هنا في الساعة الثامنة إلا عشر دقائق، ولكنه انتظرهم عشرين دقيقة ودون جدوى، ثم علق بقوله:

- من المؤكد أن هناك عائقًا عاقهم، فالمرء ليس دائمًا على راحته في مثل هذا العمل الذي نقوم به.

ثم عرض على رامبير موعدًا آخر في اليوم التالي، وفي نفس الساعة أمام النصب التذكاري للموتى، وتنهّد رامبير وهو يزيح قبعته إلى الخلف، وأنهى جونزاليس كلامه وهو يضحك قائلاً:

- لا عليك. فكر قليلًا في كل حيل اللعب من هبوط وتمير، وكل ما ينبغي القيام به قبل أن نصيب الهدف.

وأجاب رامبير:

- بكل تأكيد، ولكن اللعب لا يستغرق إلا ساعة ونصف ساعة.

والنصب التذكاري للموتى في وهران يقع في المكان الوحيد الذي تمكن منه رؤية البحر على بعد، ويعتبر هذا الموقع نوعًا من النزهة تمتد على مسافة قصيرة بطول الأراضي الضحلة التي تحيط بالميناء، وكان رامبير أول من وصل إلى المكان المحدد، فجعل يقرأ -باهتمام- قائمة أسماء الذين ماتوا في ساحة الشرف، وبعد بضع دقائق اقترب

منه رجلان، ونظرا إليه بغير اكتراث، ثم ذهبا، واستندا بمرفقيهما على السور، وبديا كما لو كانا قد استغرقا في تأمل الأرضة الخاوية المقفرة، كانا متشابهين في الطول، ويلبس كل منهما سروالاً أزرق اللون، ومن فوقه قميص من نسيج التريكو قصير الكمين، وفي لون زرقة البحر، وابتعد الصحفي قليلاً ثم جلس على مقعد يستطيع منه أن يتأملهما على رسله، ولاحظ حينئذ أن عمر كل منهما لا يزيد على عشرين عاماً، وفي هذه اللحظة رأى جونزاليس يتقدم ناحيته، وهو يعتذر عن تأخره، وقال له:

- هؤلاء هم أصدقاؤنا، ثم صحبه ناحية الشابين، وقدمهما إليه باسمي: «مارسل، ولويس». كانا متشابهي الوجه، ولذا رجح رامبير أن يكونا أخوين، وقال جونزاليس:

- أما وقد تم التعارف، فينبغي تدبير المسألة ذاتها.

وحينئذ قال مارسيل -أو لويس- إن دورهما في الحراسة يبدأ بعد يومين، ويستمر أسبوعاً، وإنه ينبغي اختيار أنسب الأيام، وقد كان هناك أربعة حراس مكلفون بحراسة الباب الغربي للمدينة، أما الحارسان الآخران فكانا جنديين نظاميين، واستبعدت فكرة ضم هذين الأخيرين إلى العملية؛ لأنهما من ناحية غير موثوق فيهما، ومن ناحية أخرى؛ لأن ذلك يزيد التكاليف، وكان يحدث في بعض الأمسيات أن يذهب هذان الحارسان لقضاء طرف من الليل في القاعة الخلفية لمشرب يعرفانه، ولذلك عرض مارسيل -أو لويس- على رامبير أن يحضر للإقامة عندهما قريباً من أبواب المدينة، وأن ينتظر حتى يحضر من صحبه،

ففي هذا الحين يصبح العبور غاية في السهولة، ولكنهما أخبراه أنه ينبغي الإسراع في التنفيذ؛ لأن الحديث كان يدور منذ قليل عن مضاعفة الحراسة خارج المدينة.

ووافق رامبير، وقدم لهم بعض ما تبقى لديه من سجائر، وهنا سأل أحد الشابين -الذي لم يكن قد تكلم حتى الآن- جونزاليس عما إذا كانت مسألة النفقات قد اتفق عليها، وما إذا كان من الممكن دفع بعض المبلغ مقدماً.

وقال جونزاليس:

- كلا، ليس هناك ما يدعو لذلك، فهو من رفاقنا، وستدفع النفقات وقت الرحيل.

ثم اتفقوا على موعد جديد، واقترح جونزاليس أن يتناولوا العشاء في المطعم الإسباني بعد غد، ومن هناك يستطيعون التوجه إلى منزل الحارسين، فقال لرامبير:

- أما عن الليلة الأولى، فسأقضيها معك.

وفي اليوم التالي كان رامبير يصعد إلى غرفته، فالتقى بتارو الذي قال له:

- إني ذاهب للحاق بريو، أتريد الذهاب معنا؟

وأجاب رامبير -بعد قليل من التردد-:

- أخشى أن يكون في ذلك ما يضايقه.

فقال تارو: «لا أظن ذلك، فقد كلمني عنك كثيراً».

وأخذ الصحفي يفكر، ثم قال:

- أصنع إليّ. إذا كان لديكما شيء من الوقت بعد العشاء - حتى ولو كان الوقت متأخرًا - فاحضرا إلى مشرب الفندق أنتما الاثنين.
وقال تارو:

- هذا يتوقف عليه وعلى الطاعون.

ومع ذلك، ففي الحادية عشرة مساء دخل ريو وتارو المشرب الضيق الصغير، وكان في المشرب نحو ثلاثين رجلًا يجلسون جنبًا إلى جنب، ويتكلمون بصوت مرتفع، ولما كان ريو وتارو قادمين لتوهما من المدينة الصامتة الموبوءة، فقد شعرا ببعض الارتباك، فتوقفا، ثم لم يلبثا أن فهما سبب هذا الصخب عندما عرفا أن الفندق لا يزال يقدم المشروبات الروحية، وكان رامبير يجلس أمام أحد طرفي العداد، فأشار إليهما من أعلى مقعده، فجلسا من حوله بعد أن أزاح لهما جازًا كثير الصخب، وسألاه:

- ألا يفزعك الشراب؟

وأجاب رامبير:

- كلا، على العكس من ذلك.

واستنشق ريو من كأسه رائحة أعشاب مرة، وكان من الصعب التحدث في مثل هذه الضوضاء، ولكن كان يبدو أن كل ما يشغل رامبير هو الشراب في هذه اللحظة، ولم يكن في مقدور الطبيب بعد أن يحكم عما إذا كان رامبير قد ثمل أم لا. أما المائدتان اللتان كانتا تملآن ما تبقى من المكان، فقد جلس على إحدهما أحد ضباط البحرية، وقد تعلقت

بكل ذراع من ذراعيه امرأة، وكان الضابط يقص على جار له -ضخم الجسم محتقن الوجه- أنباء وباء للتيفوس في القاهرة، وكان يقول: «معسكرات، لقد أنشأوا معسكرات للأهالي بها خيام للمرضى، وحول المعسكرات أقيم نطاق من الحراسة يطلق النار على كل أسرة تحاول أن تحضر سرًا بعض الأدوية البلدية، إنه حكم قاس، ولكنه عادل».

أما المائدة الأخرى، فكان يشغلها شبان أنيقو الملابس، لم يكن من الممكن تبين حديثهم، الذي كان يضيع وسط ضجيج أغنية «مستوصف سان جيمس»، التي كانت تنطلق من جهاز «بيك آب» وُضع في مكان مرتفع.

وقال ريو -وهو يرفع صوته-:

- هل أنت راض؟

وأجاب رامبير:

- المسألة تقترب، وقد تكون خلال هذا الأسبوع.

وصاح تارو:

- يا للأسف!

- ولماذا؟

ونظر تارو إلى ريو الذي قال:

- أوه! إن تارو يقول ذلك؛ لأنه كان يظن أنه في إمكانك مساعدتنا

هنا، ولكنني أفهم جيدًا رغبتك الشديدة في الرحيل.

وهنا عرض تارو على ريو أن يقوموا بجولة أخرى، وهبط رامبير من

مقعده، وحدث في وجهه للمرة الأولى، ثم قال:

- في أي شيء يمكنني أن أكون ذا فائدة؟

وأجاب تارو -وهو يمد يده إلى كأسه في تباطؤ-:

- في منظمتنا الصحية.

وعادت إلى رامبير سيما التفكير التي عرف بها، ثم صعد مرة أخرى إلى مقعده.

وما إن أتى تارو على ما في كأسه، حتى أخذ ينظر إلى رامبير باهتمام، وقال:

- ألا ترى أن هذه المنظمات ذات نفع؟

وأجاب الصحفي:

- إنها شديدة النفع.

ثم شرب ما كان قد تبقى في كأسه، ولاحظ ريو أن يده ترتعش، فرجح أن يكون قد وصل إلى حالة الثمل التام.

وفي اليوم التالي، عندما دخل رامبير إلى المطعم الإسباني للمرة الثانية، ووسط جماعة صغيرة من الرجال كانوا قد وضعوا مقاعدهم أمام المدخل؛ ليستمتعوا بأمسية ذهبية، بدأت فيها الحرارة في الهبوط، وكانوا يدخلون تبغاً ذا رائحة نفاذة.

أما في الداخل، فكان المطعم شبه مقفر، وذهب رامبير للجلوس حول مائدة في أقصى القاعة كان قد قابل عليها جونزاليس في المرة الأولى، وقال للخدمة إنه ينتظر بعض الأشخاص، وكانت الساعة قد

بلغت السابعة والنصف، وقد أخذ الناس بالتدريج يدخلون قاعة الطعام، ويتخذون فيها أماكنهم، وبدأ الخدم في تقديم طلبات الرواد، وامتلات القبة المنخفضة بعجيج أدوات المائدة المختلط بأصوات المحادثات المكتومة.

وفي الساعة الثامنة كان رامبير لا يزال ينتظر، ثم أوقدت المصابيح وحضر رواد جدد، واتخذوا أماكنهم على مائدته، وهنا طلب رامبير عشاءه، وعندما بلغت الساعة الثامنة والنصف كان قد انتهى من عشاءه دون أن يرى جونزاليس أو الشابين، فأخذ يدخن لفائفه، وأخذت القاعة تخلو رويدًا رويدًا، وخيم الليل -بسرعة- في الخارج، وهبت نسمة دافئة من البحر فداعبت ستائر النوافذ برقة، ولما بلغت الساعة التاسعة لاحظ رامبير أن المطعم قد خلا تمامًا، وأن الخادمة تنظر إليه في دهشة، فدفع حسابه وانصرف، ولدى خروجه من المطعم، وجد في مقابلته مقهى مفتوح الأبواب، فاتخذ مكانًا فيه على العداد؛ لكي يراقب مدخل المطعم، ولم تدق الساعة التاسعة والنصف حتى كان قد اتجه نحو فندقه، وهو يفكر عبثًا في وسيلة للاتصال بجونزاليس الذي لم يكن يعرف عنوانه، كما أن فكرة استئاف المحاولات من جديد كانت تبدو له فكرة شنيعة.

وفي هذه اللحظة، وفي هذا الليل الذي لا تغمره إلا عربات الإسعاف المسرعة، تنبه رامبير -كما قال هو نفسه للدكتور ريو بعد ذلك- إلى أنه كان قد نسي زوجته تقريبًا طوال هذه المدة التي وجه فيها كل اهتمامه للبحث عن فتحة في الجدار الذي يفصله عنها، ولكن كانت

هذه أيضًا هي اللحظة التي رأى فيها جميع السبل وقد سدت أمامه من جديد، فرآها تعود ثانية إلى احتلال بؤرة رغباته، مع نوع من الشعور بالآلم جعله يعدو نحو فندقه عدوًا لكي يفر من تلك الحروق القاسية التي لم تكف مع ذلك عن إلهاب صدغيه.

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، ذهب إلى ريو ليسأله عن طريقة للعثور على كوتار، وقال له:

- لم يبق أمامي إلا أن أتبع الخيط من جديد.

وأجابه ريو قائلاً:

- تعال غداً مساءً، فقد طلب إليّ تارو أن أدعو كوتار، لست أدري لماذا، وسوف يحضر في الساعة العاشرة، فلتحضر أنت في العاشرة والنصف.

وعندما حضر كوتار لدى الطبيب في اليوم التالي، كان تارو وريو يتكلمان عن حالة شفاء غير متوقع حدثت في قطاع خدمة هذا الأخير الذي أخذ يعلق بقوله:

- حالة من عشر، إنه لسعيد الحظ.

وقال كوتار:

- آه! إذن لم تكن هذه حالة طاعون.

وأكد له أنها كانت حالة طاعون، ولكنه استمر في إنكاره، وقال:

- هذا مستحيل ما دام المريض قد شفى، أنتما تعرفان - كما أعرف تماماً - أن الطاعون لا يعرف الصفح.

وأجاب ريو بقوله:

- هذا على وجه العموم، ولكننا مع التذرع بشيء من العناد، نصادف بعض المفاجآت.

فانفجر كوتار ضاحكًا، ثم قال:

- إن ظواهر الأمور لا تدل على ذلك. هل سمعت الأرقام هذا المساء؟

وقال تارو -وهو ينظر إلى هذا الرجل ذي الدخل الثابت بكثير من حسن النية-: إنه يعرف الأرقام، ويعرف أن الموقف جد خطير، ولكن علامة يدل ذلك؟ إنه يدل على وجوب اتخاذ إجراءات خاصة أشد من ذي قبل.

ورد عليه كوتار قائلاً:

- لقد اتخذت فعلاً هذه الإجراءات.

وأجاب ريو:

- نعم، ولكن ينبغي أن يتمسك بها كل شخص من ناحيته.

ونظر كوتار إلى تارو دون أن يفهم ما يريد، فقال هذا الأخير إن هناك رجالاً كثيرين لا يزالون سلبين، وأن الوباء مسألة كل فرد، فعلى كل فرد إذن أن يؤدي واجبه، والمنظمات الصحية مفتوحة الأبواب للجميع.

وقال كوتار:

- هذه فكرة، ولكنها لن تؤدي إلى نتيجة؛ فالطاعون قوة هائلة.

فرد تارو قائلاً في سعة صدر:

- لن نعرف ذلك إلا بعد أن نكون قد قمنا بجميع ما في وسعنا.

وفي هذه الأثناء كان ريو يجلس إلى مكتبه يعيد نقل بعض الجزئات، أما تارو، فكان لا يزال ينظر إلى ذي الدخل الذي كان يتململ على مقعده، وفجأة وجه إليه الخطاب قائلاً:

- لماذا لا تنضم إلينا يا سيد كوتار؟

وهبَّ الآخر واقفاً في شيء من الحنق، وأمسك بقبعته المستديرة في يده، ثم قال:

- هذه ليست مهنتي.

ثم أضاف قائلاً بلهجة تحدّ:

- هذا إلى أن أحوالي قد تحسنت مع الطاعون، ولا أدري لماذا أشغل نفسي بمحاولة إيقافه.

وضرب تارو بيده على جبينه - كما لو كانت قد برقت في خاطره إحدى الحقائق فجأة - وقال:

- هذا صحيح، لقد نسيت، فلولا ذلك لقبض عليك.

وارتعد كوتار من رأسه إلى قدمه، وأمسك بمقعده كما لو كان يحاول منع نفسه من السقوط، وكان ريو قد كف عن الكتابة، فنظر إليه بجد واهتمام، وصاح صاحب الدخل قائلاً:

- من قال لك هذا؟

فبدت الدهشة على تارو، وقال:

- أنت نفسك، أو على الأقل هذا هو ما فهمناه أنا والدكتور.

وهنا أخذ كوتار يتمم بكلام غير مفهوم، وقد اجتاحت نوبة غضب حاد مفاجئ، فقال له تارو:

- هدى من ثورتك، فلن أكون أنا والدكتور ممن يبلغون عنك، فمسألتك لا تهمنا، فضلاً عن أننا لم نكن من محبي الشرطة في يوم من الأيام. هيا، اجلس.

ونظر ذو الدخل إلى مقعده، ثم جلس بعد شيء من التردد، وبعد لحظة تنهد، وانبرى يعترف قائلاً:

- إنها قصة قديمة بعثوها بعد أن ظننت أنها قد ذهبت في طي النسيان، ولكن شخصاً ما، عاد فتكلم عنها، وإذا بهم يستدعونني، ويطلبون مني أن أظل تحت تصرفهم حتى نهاية التحقيق، وفهمت أنهم سوف يتتهون بالقبض عليّ.

وسأل تارو:

- هل الأمر خطير؟

فقال: «هذا يتوقف على ما تقصده بذلك، إنها ليست جريمة قتل على أي حال».

فسأله من جديد:

- أهو السجن، أم الأشغال الشاقة؟

وبدا كوتار في شدة الانهيار، وهو يقول:

- السجن لو كان لي حظ.

ولكنه بعد لحظة أردف قائلاً بحدة:

- إنها غلطة وقعت فيها، وكل الناس يخطئون، ولا أستطيع أن أتحمل فكرة القبض عليّ من أجل هذا، أو إبعادي عن بيتي، وعن عاداتي وكل من أعرفهم.

وسأله تارو:

- آه! من أجل هذا اخترعت فكرة شنق نفسك؟

- نعم، وكانت سخافة بكل تأكيد.

وتكلم ريو للمرة الأولى، وقال لكوتار: إنه يفهم ما يعتربه من قلق، ولكن الأمور قد تعود فتسير سيرًا حسنًا.

فقال:

- أوه! أما في الوقت الحاضر، فإني أعرف تمامًا أن ليس هناك ما أخشاه.

وأجاب تارو:

- أرى ذلك، ولهذا فأنت لا تنضم إلى منظماتنا.

وكان كوتار في هذه الأثناء يدير قبعته بين يديه، فنظر إلى تارو نظرة حائرة، وقال:

- لا ينبغي أن تلوّموني على ذلك.

ورد تارو وهو يتسم:

- بكل تأكيد لا، ولكن حاول على الأقل ألا تساعد في نشر الميكروب عامداً.

واعترض كوتار بأنه لم يكن هو الذي جاء بالطاعون، وأن هذا الوباء قد أتى من تلقاء نفسه، وأنه إذا كان الطاعون قد ساعد في تحسن أحواله في الوقت الحاضر، فليس ذلك مما يحسب عليه. وعندئذ دخل رامبير، بينما كان كوتار يضيف قائلاً في قوة:

- ومهما يكن من شيء، ففي رأيي أنكم لن تصلوا إلى شيء.

وعلم رامبير أن كوتار يجهل عنوان جونزاليس، وإن كان في الإمكان أن يعودا معاً إلى المقهى الصغير، وحددا موعداً لذلك في اليوم التالي، ولما أبدى ريو رغبته في أن يكون على علم بما يتم، دعاه رامبير إلى أن يزوره مع تارو في غرفته في نهاية الأسبوع، وفي أي ساعة من ساعات الليل.

وفي الصباح ذهب كوتار ورامبير إلى المقهى الصغير، وحددا لجارسيا موعداً في المساء، أو في اليوم التالي - إذا كان هناك ما يعوقه هذا المساء - وفي المساء انتظراه دون جدوى. أما في اليوم التالي، فقد حضر جارسيا واستمع في صمت إلى حكاية رامبير، ولم يكن قد دري شيئاً مما جرى، ولكنه كان يعرف أنهم حاصروا أحياء بأكملها مدة أربع وعشرين ساعة من أجل التحقق من مسألة السكن، ومن الجائز أن يكون جونزاليس والشابان لم يتمكنوا من عبور الحواجز، وقرر أن كل ما يستطيع عمله هو أن يصلهما مرة ثانية براؤول، وأن هذا لن يكون قبل يومين، بطبيعة الحال.

وقال رامبير:

- ينبغي البدء من جديد، هذا ما ظننته.

وصح ما افترضه جارسيا، فقد التقى بهما راؤول غداة اليوم التالي في ركن من أركان أحد الشوارع، وأخبرهما بأنه قد تم تفتيش الأحياء المتباعدة، ولا بد من إعادة الاتصال بجونزاليس، وبعد ذلك بيومين كان رامبير يتناول غداءه مع لاعب كرة القدم الذي قال له:

- هذا غباء منا، فقد كان ينبغي أن نتفق على طريقة للقاء.

وكان هذا هو أيضًا رأي رامبير، وواصل لاعب الكرة كلامه قائلاً:

- غدًا صباحًا سنذهب إلى الشابين، وسنحاول تدبير كل شيء.

وفي اليوم التالي لم يكن الشابين في منزلهما، فضربا لهما موعدًا لليوم التالي ظهرًا في ميدان «المدرسة»، وعاد رامبير إلى فندقه وقد بدا على وجهه نوع من اليأس ارتاع له تارو عندما قابله بعد الظهر، فسأله قائلاً:

- ألا تسير الأمور سيرًا حسنًا؟

وأجاب رامبير:

- وذلك بسبب العودة من البداية دائمًا.

ثم جدد له دعوته، وقال:

- احضر هذا المساء.

وعندما دخل الرجلان غرفة رامبير في المساء، وجداه مستلقين على فراشه، فنهض وملاً الكؤوس التي كان قد أعدها، وسأله ريو -وهو

يتناول كأسه- عما إذا كانت الأمور تسير في الطريق السليم، وأجاب الصحفي بأنه أعاد الجولة كلها مرة ثانية، وأنه وصل إلى نفس النقطة التي كان قد انتهى إليها في المرة الأولى، وأنه سوف يذهب قريباً للموعد الأخير، ثم تناول جرعة من كأسه، وأضاف:

- وطبعاً لن يحضروا.

فقال له تارو:

- لا يجب أن تجعل من ذلك مبدأً.

وأجاب رامبير -وهو يهز كتفيه-:

- إنك لم تفهم بعد.

- ماذا إذن؟

- الطاعون.

وقال ريو:

- آه!

- نعم لم تفهما أن أمره يتوقف على البدء من جديد.

قال ذلك، ثم ذهب إلى ركن من غرفته، وأدار جهاز «فونوغراف» صغير، وسأله تارو:

- أي أسطوانة هذه؟ يخيل لي أنني أعرفها.

وأجاب رامبير: إنها «مستوصف سان جيمس».

وفي منتصف الأسطوانة سمعوا على بعد صوت طلقين ناريين،

فقال تارو.

- لا بد أن يكون الأمر يتعلق بكلب، أو شخص يحاول الهرب.
وبعد لحظة انتهت الأسطوانة، وسمع بوضوح صوت عربة
الإسعاف يقترب ويمر تحت نوافذ غرفة الفندق، ثم يخبو حتى يتلاشى
في النهاية، وقال رامبير:

- هذه هي المرة العاشرة التي أسمع فيها تلك الأسطوانة اليوم، وإن
لم تكن من الأسطوانات المسلية.
فسأله تارو:

- أتحبها إلى هذه الدرجة؟

وأجاب:

- كلا، ولكن ليس لديّ سواها.

ثم قال بعد لحظة:

- قلت لكما: إن المسألة تتوقف على البدء من جديد.

وسأل ريو عن الطريقة التي تسير بها المنظمات، وكانت هناك
خمس فرق تعمل، ويأملون في تكوين غيرها، وكان الصحفي يجلس
على سريره، ويبدو عليه الانشغال بالعبث بأظافره، وأخذ ريو يتأمل
هيكله القصير القوي وقد تجمع على حافة السرير، ولاحظ فجأة أن
رامبير ينظر إليه، ويقول له:

- أنت تعرف يا دكتور أنني فكرت كثيرًا في منظمك، وإذا لم أكن
قد انضمت إليكم؛ فذلك لأن لديّ أسبابي الخاصة. أما فيما عدا ذلك،

فأعتقد أن في إمكاني أن أبذل شيئاً من ذات نفسي، ولا سيما أنني قد
اشتركت في حرب إسبانيا.

وسأله تارو:

- في صف من؟

فأجاب:

- في صف المهزومين، ولكنني قد فكرت كثيراً منذ ذلك الحين.

وقال تارو:

- في ماذا؟

- في الشجاعة. لقد عرفت الآن أن الإنسان أهل للجليل من
الأعمال، ولكنه إذا لم يكن أهلاً لعاطفة كبيرة، فإنه لا يهتمني.

وقال تارو:

- يبدو لي أنه أهل لكل شيء.

- كلا؛ لأنه لا يستطيع تحمل الألم أو السعادة لمدة طويلة، فهو إذن
غير أهل لشيء يستحق الذكر.

ثم نظر إليهما، وقال:

- هيا يا تارو، هل أنت أهل لأن تموت في سبيل الحب؟

فأجاب:

- لا أدري، ولكن يبدو لي أنني غير أهل لذلك الآن.

- أرايت؟ ولكنك أهل لأن تموت من أجل فكرة، هذا واضح للعين
المجردة. حسن، أما أنا، فقد احتملت ما فيه الكفاية من الناس الذين

يموتون من أجل فكرة، فأنا لا أؤمن بالبطولة، وأعرف أنها سهلة، وتعلمت أنها تقتل، وكل ما يهمني هو أن يحيا المرء ويموت من أجل ما يحب. وكان ريو يستمع إلى الصحفي بانتباه، وحينئذ قال له -دون أن يكف عن النظر إليه-:

- إن الإنسان ليس فكرة يا رامبير.

فقفز رامبير من فراشه، ثم قال -وقد احتقن وجهه من الانفعال-:

- إنه فكرة، وفكرة قصيرة الأمد منذ اللحظة التي يتحول فيها عن الحب، والواقع أننا أصبحنا فعلاً غير أهل للحب؛ فلنستسلم صاغرين يا دكتور، ولنحاول أن نكون كذلك، فإذا استحال علينا ذلك، فلننتظر الخلاص العام دون أن نلعب لعبة البطولة. أما من جهتي أنا، فلن أذهب إلى أبعد من ذلك.

ونهض ريو، وقد بدا عليه تعب مفاجئ، وقال:

- إنك على حق يا رامبير، وليس هناك ما يدفعني إلى محاولة تشبيطك عما تنوي عمله؛ إنه يبدو لي حسناً وحقاً. لكن ينبغي لي مع ذلك أن أقول لك: «إن الأمانة هي الطريقة الوحيدة لمكافحة الطاعون، هذه هي فكري، وقد تكون فكرة مضحكة».

فأجاب رامبير بلهجة سريعة حادة:

- وما هي الأمانة؟

- لست أدري ما هي على وجه العموم، ولكنني أعرف أنها في حالتي تلك تنحصر في مباشرة مهنتي.

ورد رامبير بشيء من الغيظ:

- آه! لست أدري ما هي مهنتي على وجه التحديد، وربما كنت مخطئاً لأنني اخترت الحب.

وواجهه ريو، وهو يقول بقوة:

- كلا لست مخطئاً.

ونظر إليه رامبير، ثم قال -وعليه سيما التفكير-:

- لا أظن أن لديكما -أنتما الاثنان- ما تفقدان في كل هذا، ولذلك فمن السهل عليكما أن تكونا في جانب الصواب.

وأفرغ ريو كأسه، وقال:

- هيا، فلدينا بعض الأعمال.

وخرج وتبعه تارو الذي بدا عليه كما لو كان قد قرر في نفسه أمراً في نفس لحظة خروجه، فالتفت ناحية الصحفي، وقال:

- هل تعرف أن زوجة ريو تقيم في إحدى المصحات التي تبعد عن هنا بمئات من الكيلومترات؟

وبدرت من رامبير حركة تنم عنه أنه فوجئ بهذا الخبر، ولكن تارو كان قد انصرف.

وفي الساعة الأولى من صباح اليوم التالي، تحدث رامبير تليفونياً إلى الطبيب، وسأله:

- هل تقبل أن أعمل معكم إلى أن أعرش على طريقة لمغادرة المدينة؟

ومرت فترة صمت في نهاية الخط، ثم انطلق صوت ريو يقول:

- نعم يا رامبير، وأشكرك.

هكذا مرت الأسابيع وسجناء الطاعون يصطرون بقدر ما يستطيعون، حتى وصل الحال ببعضهم -مثل رامبير- أن يتوهموا، كما شاهدنا، أنهم يتصرفون تصرف الأحرار، وأنه لا يزال في وسعهم الاختيار، والواقع أن في وسعنا أن نقرر أن الطاعون كان في هذه اللحظة -منتصف شهر أغسطس- قد عم كل شيء، ولم تعد هناك مصائر فردية، بل قصة جماعية واحدة هي الطاعون، ثم مشاعر يشترك فيها الناس جميعاً، وكان أعظم هذه المشاعر ينحصر في الفراق، والنفي بكل ما يحويانه من خوف وثورة، لهذا يعتقد الراوي أنه من المناسب -في هذا الوقت بلغت الذي بلغت فيه حدة القيظ والمرض أعلى درجاتها- أن يقدم لنا وصفاً عاماً لأعمال العنف التي كان يلجأ إليها مواطنونا الأحياء، ولجنائز دفن الموتى، وآلام العشاق المتباعدين، باعتبار كل ذلك، الأمثلة المميزة لتلك الفترة.

لقد حدث في أواسط هذا العام أن ثارت الريح، واستمرت تهب أياً ما متتالية على المدينة الموبوءة، وسكان وهران يخافون الريح بصفة خاصة؛ لأنها لا تقابل أي عائق طبيعي على الهضبة التي بُنيت فوقها هذه المدينة، ولذا تجتاح الشوارع بكل ما فيها من عنف، وبعد كل هذه الأشهر الطويلة التي لم تسقط خلالها قطرة مطر واحدة على المدينة

فتنعشها، كانت قد اكتست بطلاء أشهب اللون أخذ يتشقق قشورًا تحت هبات الريح، وكانت هذه الريح تثير موجات من الأتربة والأوراق صارت تضرب سيقان المارة الذين أصبحوا نادري العدد، فكانوا يرون وهم يسرعون الخطى في الشوارع وقد انحنوا إلى الأمام، ووضعوا مناديلهم أو أيديهم على أفواههم. أما في المساء، فلم يعد أحد يرى التجمعات التي كانوا يحاولون بها أن يطيلوا - ما استطاعوا - من أمد هذه الأيام التي قد يكون كل يوم منها آخر أيامهم، ولم يعد يرى المرء إلا مجموعات صغيرة من الأشخاص الذين يسرون على عجل ليعودوا إلى منازلهم، أو لكي يدخلوا مقاهيهم. ولذلك لم يكن يقبل الغروب -الذي صار أكثر تبكيرًا في هذه الأيام- حتى ترى الشوارع مقفرة إلا من الريح التي كانت ترسل أناتها بلا توقف.

وكانت رائحة النباتات البحرية والملح تصل إلى الناس من البحر الهائج المحجوب عن أبصارهم. وهكذا أصبحت هذه المدينة المقفرة المغبرة، المتشعبة بروائح البحر، الغاصة بصرخات الريح، تنن أنين جزيرة تعسة.

وحتى الآن كان ضحايا الطاعون في الأحياء الخارجية المزدحمة غير المريحة أكثر منهم في وسط المدينة، ثم بدا فجأة أن الطاعون قد اقترب واستقر أيضًا في أحياء المصالح الحكومية، واتهم السكان الريح بأنها هي التي نقلت بذور العدوى، حتى قال في ذلك مدير الفندق: «إنها تخلط أوراق اللعب بعضها ببعض». وعلى كل حال لقد عرفت الأحياء الوسطى في المدينة أن دورها قد حان عندما أخذ رنين عربات

الإسعاف المتكاثر يقرع أسماع سكانها أثناء الليل مرددًا تحت النوافذ دعاء الطاعون الرتيب الكئيب.

وقد خطر لأولي الأمر أن يقوموا في داخل المدينة نفسها بعزل بعض الأحياء التي استفحل فيها الوباء بصفة خاصة، وعدم التصريح بالخروج منها إلا لمن لا غنى عن خدماتهم من الرجال، وكان الذين يسكنونها - حتى ذلك اليوم - لا يستطيعون منع أنفسهم من الاعتقاد بأن ذلك لم يكن إلا إجراءً استفزازيًا خاصًا موجهاً إليهم، وكانوا إذا قارنوا أنفسهم بسكان الأحياء الأخرى اعتبروهم من الأحرار، وكان هؤلاء بدورهم يعززون أنفسهم في اللحظات العصبية التي يمرون بها بفكرة أن هناك آخرين غيرهم أقل منهم حرية، فكان كل ما تيسر لهم من أمل يتلخص في قولهم: «هناك من هو أشد سجنًا منا».

وحول هذه الفترة حدث أيضًا أن ازداد عدد الحرائق، ولا سيما في أحياء الملاهية المتاخمة للأبواب الغربية للمدينة، ودلت التحريات على أن مرتكبي هذه الحرائق كانوا من الذين عادوا من الحجر الصحي، وقد أطاشت الأحزان والحداد عقولهم، فأشعلوا النار في منازلهم ظنًا منهم أنهم بذلك يقضون على الطاعون الرابض فيها، وقد وجد المسؤولون عنتًا كبيرًا في حملهم على الإقلاع عن هذه الأعمال التي كان تكرارها يعرض أحياء برمتها لخطر داهم بسبب شدة الريح، وحاولوا بكل جهدهم أن يبينوا لهم أن إجراءات التطهير التي قامت بها السلطات كانت كافية لإبعاد كل خطر للعدوى، ولكن دون جدوى، فكان من الضروري فرض عقوبات قاسية ضد هؤلاء السذج الذين يشعلون

الحرائق، ولا شك أن فكرة السجن لم تكن هي التي حملت هؤلاء على التراجع، بل التأكد من عقوبة السجن التي كانت حينئذ تعادل عقوبة الإعدام نظرًا لزيادة عدد الوفيات زيادة كبيرة في سجن البلدية، وبطبيعة الحال لم تكن هذه العقيدة تقوم على مجرد الوهم، فهناك أسباب أكيدة تدعو للاعتقاد بأن الطاعون يزداد ضراوة بين من يعيشون في جماعات سواء أكانوا جنودًا أم رجال دين أم سجناء؛ وذلك لأن السجن مكان عام على الرغم من عزل بعض السجناء، ومما يثبت ذلك أن حراس سجن البلدية في مدينتنا كانوا يدفعون ضريبتهم للمرض بنفس القدر الذي كان يدفعه السجناء. والواقع أن الجميع كانوا -من وجهة النظر العليا للطاعون- محكومًا عليهم ابتداء من المأمور حتى آخر سجين من سجنائه، وقد تكون هذه هي المرة الأولى التي سادت فيها العدالة المطلقة في السجن.

وقد حاولت السلطات تطبيق سلم الطبقات على هذا المستوى الموحد، ففكرت في منح النياشين لحراس السجن الذين يموتون أثناء تأدية خدمتهم، ولكنها لم تنجح في ذلك؛ فالواقع أنه كانت هناك حالة حصار، ولذلك كان من الممكن، من وجهة نظر ما، أن يعتبر هؤلاء الحراس جنودًا في حالة تعبئة، ومن ثم فقد منحوا الميدالية العسكرية بعد وفاتهم، ولكن إذا كان المسجونون أنفسهم قد سلموا بذلك، فإن الأوساط العسكرية لم تنظر إليه بعين الارتياح، وقد كانت على حق عندما قالت: إنه خلط للأوضاع -يدعو للأسف- قد يحدث في أذهان الشعب. وأقرت السلطات هذا الطلب ورأت أنه من الأيسر منح الحراس الذين

يموتون ميدالية الوباء، أما فيما يختص بالذين سبق منحهم الميدالية العسكرية، فقد كان الخطأ قد وقع بالنسبة لهم، ولم يعد في الاستطاعة التفكير في سحب النياشين منهم، وإن كانت الأوساط العسكرية قد استمرت تدافع عن وجهة نظرها. هذا إلى أن ميدالية الأوبئة لم يكن لها أثر الميدالية العسكرية في رفع الروح المعنوية؛ لأن الحصول عليها في وقت سادت فيه الأوبئة كان أمراً عادياً.

وهكذا عم الاستياء الجميع.

وفوق ذلك، لم يكن في مقدور مصلحة السجون أن تسير على النهج الذي سارت عليه السلطات الدينية، أو ذلك الذي سارت عليه السلطات العسكرية إلى حد ما؛ ذلك أن رهبان الديرين الوحيدين في المدينة كانوا قد تفرقوا ليقيموا بصفة مؤقتة لدى الأسر المتدينة. كما أن بعض جنود الثكنات كانوا قد قسموا مجموعات صغيرة تم إسكانها في المدارس أو العمارات العامة. وهكذا ترى أن المرض الذي أرغم الأهالي ظاهرياً على هذا النوع من التضامن الذي يقع عادة بين من هم في حالة حصار قد عمل في نفس الوقت على تفكيك الجماعات التقليدية، وعاد بالأفراد إلى وحدتهم، ولقد كان لهذا أثره في إحداث الكثير من الحيرة والهرج.

ومن اليسير أن نرى كيف تضافرت هذه الظروف -مضافاً إليها الريح- على إشعال الحرائق في الأذهان أيضاً؛ فقد هوجمت أبواب المدينة من جديد أثناء الليل مرات عديدة، ولكن الهجوم في هذه المرة قد وقع من مجموعات صغيرة مسلحة، وتبادل فيه إطلاق النار، وسقط

بعض الجرحى، وحدثت بعض حالات الهرب. وأدى ذلك إلى دعم مراكز الحراسة، فلم تلبث هذه المحاولات أن توقفت. ولكنها -مع ذلك- كانت كافية لأن تبعث في المدينة روحاً ثورية تسببت في بعض مشاهد العنف، فنهب بعض المنازل التي كانت قد أحرقت أو أغلقت لأسباب صحية.

ولا شك أنه من الصعب افتراض أن هذه الأحداث كانت مدبرة؛ ففي كثير من الأحيان كان يقع ظرف مفاجئ فيدفع من كانوا يعتبرون حتى هذه اللحظة من ذوي السمعة الحسنة إلى إتيان أعمال تستحق اللوم، وسرعان ما كان يندفع غيرهم إلى تقليدهم. وحدث ذات مرة أن خرج بعض الحمقى عن طورهم واقتحموا منزلاً لا زالت النيران مشتعلة فيه، وكان ذلك في حضور صاحبه الذي أذهلته آلامه المفاجأة عن نفسه، وإزاء ما بدا من هذا الأخير من عدم الاكتراث، سارع الكثيرون من المشاهدين إلى تقليد الأولين، فكنت في هذا الشارع المعتم وعلى ضوء الحريق ترى أشباحاً تخرج من كل جانب، وقد شوهدت هيئتها النار الخابية، وما حملته على أكتافها من أشياء وأثاث. وقد كانت هذه الحوادث هي السبب الذي اضطر السلطات إلى تسوية حالة الطاعون بحالة الحصار، وإلى تطبيق قوانين هذه على تلك، فقتل لصان رمياً بالرصاص، ولكن من المشكوك فيه أن يكون هذا الحادث قد فعل فعله في نفوس الآخرين؛ إذ إن أحداً لم يشعر بوقوع هذا الإعدام المزدوج وسط أعداد الموتى الهائلة، بل كان كقطرة ماء في بحر.

والحقيقة أن مثل هذه المشاهد قد أخذت تتكرر كثيراً دون أن تبدي

السلطات ميلاً للتدخل فيها. أما الإجراء الوحيد الذي يبدو أنه أثر في السكان، فكان فرض تقييد الإضاءة، فمنذ الساعة الحادية عشرة كانت المدينة تغرق في ظلام دامس، وتبدو كما لو كانت قد قدت من حجر.

وفي الليالي القمرية كانت ترى المدينة وقد اصطفت حوائطها المائية للبياض، وشوارعها المستقيمة التي لا تخالطها كتلة سوداء لشجرة، ولا يعكر هدوءها خطى شخص يمر أو عواء كلب يسري. وحيث لم تعد المدينة الكبيرة الصامتة سوى مجموعة من المكعبات الضخمة الميتة، ومن بينها تماثيل تذكارية صامتة لمصلحين طواهم النسيان، أو لعظماء غابرين قد دكوا إلى الأبد في قوالب من برونز، وأصبحوا هم وحدهم -بجوههم الحجرية أو الحديدية المزيفة- الذين يثيرون في أنفسنا صورة أصابها الانحطاط لما كان عليه الإنسان. كانت هذه الأوثان التافهة تتربع تحت سماء كثيفة في ميادين لا حياة فيها، وتبدو كما لو كانت دواب تخلو من الحس، فتقدم لنا بذلك صورة لا بأس بها لذلك العهد الجامد الذي بدأنا، أو على الأقل، صورة له في مرحلة نضوجه، صورة مقبرة أخرس فيها الطاعون والحجر والليل كل صوت.



كذلك كان الليل يخيم على كل القلوب وجميع الحقائق، فإن الأساطير التي كانوا يقصونها عن طريقة دفن الموتى لم يكن من شأنها أن تبعث الطمأنينة في نفوس مواطنينا، ولذلك كان من الضروري أن نتكلم عن طرق الدفن، وإن كان الراوي يأسف لذلك؛ إذ إنه يشعر جيداً باللوم الذي قد يوجه إليه في هذا الصدد. ولكن مما يبرر له هذا المسلك، أن الدفن قد استمر طيلة هذا العهد، وأنه - كجميع مواطنيه - قد اضطر إلى أن يجعل أمور الدفن من مشاغله الأساسية، وليس معنى ذلك أنه يحب هذا النوع من الاحتفالات؛ إذ إنه على العكس من ذلك يفضل صحبة الأحياء كما في حمامات البحر مثلاً، ولكن حمامات البحر كانت قد ألغيت، وكان يخشى على مجتمع الأحياء أن يضطر في يوم من الأيام إلى إخلاء مكانه لمجتمع الموتى. كانت هذه هي الحقيقة المحتمومة، وبطبيعة الحال كان في الإمكان دائماً أن يبذل المرء جهده لكيلا يرى هذه الحقيقة، وأن يغمض عنها عينيه، ويرفض الاعتراف بها، ولكنها كانت من القوة بحيث تنتهي دائماً باجتياح كل شيء، وإلا فكيف كان السبيل مثلاً إلى مقاطعة الدفن يوم يحتاج من تحب إلى الدفن؟

كانت السرعة هي العلامة المميزة لطريقة الدفن عندنا في أول الأمر، قد بسطت جميع الإجراءات، وأُلغِيَ كل ما كان يصحب الجناز

من ترف؛ ذلك أن المرضى كانوا يموتون بعيداً عن عائلاتهم، فأُلغِيَ القداس الذي جرت العادة بإقامته يوم الوفاة، حتى كان من يموت أول الليل يقضي بقيته بمفرده، ومن يموت أثناء النهار يدفن فوراً دون أي تأخير، وقد كانت تُخطر الأسرة بالوفاة بطبيعة الحال، ولكن كثيراً ما كان يحدث ألا تتمكن الأسرة من الانتقال؛ لأنها كانت تجبر على الحجز الصحي، إذا كانت قد خالطت المريض. أما إذا لم تكن قد خالطت المتوفى، فإنها كانت تحضر في الساعة المحددة، ساعة التوجه إلى الدفن، وحينئذ يكون جثمان المتوفى قد تم غسله، ووضعه في نعشه. ولنفترض أن هذه الإجراءات كانت ستحدث في المستشفى المساعد الذي يتولى إدارته الدكتور ريو، فهذه المدرسة لها باب يقع خلف المبنى الرئيس، وهناك مكان فسيح يطل على الدهليز كانت تُرص به النعوش، وكانت الأسر إذا دخلت هذا الدهليز وجدت نعشاً واحداً قد تم إغلاقه، وحينئذ يسارع بإنجاز أهم ما ينوي عليه الأمر، ونعني أن يطلب من رب الأسرة التوقيع على بعض الأوراق، وبعد ذلك يوضع الجثمان في سيارة، وهي قد تكون عربة نقل حقيقية أو سيارة إسعاف كبيرة حُوت إلى عربة نقل. ويستقل أقارب الميت إحدى سيارات الأجرة التي ما زالت مرخصاً بها. وتسير السيارتان بأقصى سرعتيهما مخترة الشوارع الخارجية نحو المقبرة، وعند الباب يقوم رجال الشرطة بإيقاف القافلة، وختم تصريح المرور الرسمي الذي من دونه لم يكن يمكن لأحد أن ينتقل إلى ما يسميه مواطنونا بالمشوى الأخير، ثم يختفي رجال الأمن وتسير العربات لتقف بجوار أحد المربعات التي

تحتوي على حفر عديدة في انتظار أن يتم ملؤها، ويتلقى أحد القسس الجثمان لأن الخدمات الجنائزية كانت قد ألغيت في الكنائس.

ويخرج النعش وسط الصلوات ويُلف بالحبال ويُجر على الأرض ويرتطم بالقاع، وعندما يبدأ القسيس في رش الماء المقدس، تكون الأتربة قد أُهملت فعلاً على غطاء النعش، أما عربة الإسعاف فكانت تنصرف قبل ذلك بقليل؛ لكي يتم تطهيرها بالسوائل المطهرة. وقبل أن تضعف دقات الجواريف وهي تهيل التراب على القبر شيئاً فشيئاً، تكون الأسرة قد تراكمت في سيارة من سيارات الأجرة، ولا يمضي أكثر من ربع الساعة حتى تكون قد بلغت مسكنها.

وهكذا كان كل شيء يسير في الحقيقة بأقصى حد من السرعة، وأدنى حد من المخاطرة، ومما لا شك فيه، في بادئ الأمر على الأقل، أن الشعور الطبيعي الذي يربط بين أفراد الأسرة قد انقبض نتيجة لذلك، ولكن مثل هذا الشعور لا يمكن أن يعتبر من الأمور التي يؤبه لها في وقت الطاعون، فقد ضحى بكل شيء في سبيل الوسائل الفعالة. هذا وإذا كانت الروح المعنوية للأهالي قد قاست في أول الأمر من هذه الإجراءات؛ إذ إن رغبة الناس في الحصول على دفن ملائم أكثر انتشاراً مما تظن، فمن حسن الحظ أن مشكلة التموين قد أصبحت بعد قليل من أعوص المشاكل، فاضطر الناس إلى أن يصرفوا اهتمامهم إلى ما هو أكثر إلحاحاً. وهكذا ألهمتهم الصفوف الطويلة التي ينبغي لهم الوقوف فيها، والمسعاي التي يجب القيام بها، والإجراءات التي لا بد من إتمامها إذا أرادوا أن يحصلوا على قوتهم الضروري، حتى لم يصبح لديهم الوقت

الكافي للتفكير في الطريقة التي يموت بها الناس من حولهم، والتي قد يموتون هم أنفسهم بها يومًا ما. وهكذا لم تلبث الصعوبات المادية هذه -التي لم يكن بد من اعتبارها شرًا- أن انقلبت خيرًا بمرور الزمن، ولو لم ينتشر الوباء على النحو الذي رأيناه لسارت الأمور على أحسن حال.

ذلك أن النعوش أصبحت تزداد كل يوم ندرة، كما شح نسيج الأكفان، وعزت الأماكن في المقابر، وصار من الضروري أن يحتاط للأمر. ولما كان البحث عن الطرق الفعالة أمرًا ضروريًا، فقد بدا أن أبسط الأمور أن تجعل الإجراءات جماعية، وأن تكرر الرحلة بين المستشفى والمقبرة إذا اقتضى الأمر ذلك. فمثلًا كان يوجد في مستشفى الدكتور ريو خمسة نعوش، فكانت تحمل هذه النعوش الخمسة على سيارة الإسعاف كلما امتلأت، وفي المقبرة كانت تفرغ من شحنتها، ثم تحمل الجثث ذات اللون الحديدي على نقالات، وتترك للانتظار في مخزن أُعد لهذا الغرض، وبعد ذلك كانت ترش النعوش بمحلول مطهر، ثم تعود للمستشفى، وتبدأ العملية من جديد إذا كان هناك ما يقتضي ذلك. وكان هذا إجراءً سليمًا، وقد أظهر المدير رضاه عنه، وقال لريو: إنه خير من عربات اليد التي يقصّ علينا تاريخ الأوبئة في العصور القديمة إنها كانت تحمل الموتى، ويجرها الزوج، وقد أجابه ريو قائلاً:

- نعم، إن الموتى يدفنون بنفس الطريقة، ولكننا نحن نقوم بعمل بطاقات، وهذا تقدم لا جدال فيه.

وعلى الرغم من هذا النجاح الذي أحرزته الإدارة، فإن الطابع الممجوج الذي اتسمت به تلك الإجراءات قد اضطر المديرية إلى إبعاد

الأهالي عن مراسم الدفن، فلم تسمح لهم إلا بالانتظار على باب المدفن، وحتى هذا الحق لم يمنح لهم بصفة رسمية؛ وذلك لأنه قد أجري بعض التغيير فيما يختص بالشعائر الأخيرة، فهناك في أقصى الجبانة، وفي مكان فسيح عار إلا من أشجار المصطكى أنشئت حفرتان كبيرتان إحداهما للرجال، والأخرى للنساء. ومن هذه الناحية تعتبر الإدارة قد راعت حدود اللياقة، ولكن ذلك لم يدم، فقد اضطرتها الظروف فيما بعد إلى العدول عن هذا النوع الأخير من الحياء، فخلطوا الرجال بالنساء، ودفنوا الجميع أكوامًا بعضهم فوق بعض دون رعاية لأي شيء. ومن حسن الحظ أن هذا الخلط لم يحدث إلا في أيام الوباء الأخيرة. أما في هذه الفترة التي تهمنا الآن، فكانت الحفرتان منفصلتين، وقد تمسكت المديرية كل التمسك ببقائهما منفصلتين. وقد وُضع في قاع كل من هاتين الحفرتين طبقة سميكة من الجير الحي كانت تغلي ويتصاعد منها الدخان، وعلى حافة الحفرة وُضعت كومة من نفس الجير كانت تتصاعد منها الفقاعات، وتنفجر في الهواء الطلق، فكانت إذا وصلت سيارة الإسعاف من رحلتها، حُمل ما فيها من نقالات في قافلة، وتُركت الجثث تنزلق إلى القاع، الواحدة بجانب الأخرى، وقد تعرت والتوت بعض الشيء، وبعد ذلك تغطى بالجير الحي ويُهال عليها التراب، ولكن إلى حد محدود، حتى يبقى هناك مكان لضيوف جدد. وكان أهل الموتى يدعون في اليوم التالي ليوقعوا على أحد السجلات، ذلك الذي يشير إلى ما يمكن أن يكون هناك من خلاف بين الأدميين والكلاب مثلاً؛ ذلك أنه في هذه الحالة يمكن الرجوع دائماً إلى السجلات.

وكان لا بد من موظفين لإتمام كل هذه العمليات، وكان يبدو أنهم على وشك النفاد؛ فقد قضى الطاعون على كثير من هؤلاء الممرضين و«الحنوتية» الرسميين، ثم على من حل محلهم من متطوعين؛ ذلك أنه لم يكن بد من حدوث العدوى، على الرغم من كل ما كان يؤخذ من احتياطات.

ولكننا إذا دققنا النظر بعض الشيء، وجدنا أن من أشد الأمور إثارة للدهشة، أنهم لم يعدوا قط أن يجدوا الرجال الذي يقومون بتلك المهمة طيلة مدة الطاعون. أما الفترة الحرجة، فقد كانت قبيل وصول الطاعون إلى قمة انتشاره، وحينئذ كانت مخاوف الدكتور ريو لها ما يبررها؛ فلم يكن هناك من الأيدي العاملة ما يكفي لتكوين القادة، ولا للقيام بما كان يسميه بالأعمال الخشنة. ولكن لم يكد الطاعون يسيطر على المدينة بأسرها، حتى أدت هذه الضراوة نفسها إلى نتائج حسنة؛ ذلك أنها قد أشاعت الاضطراب في حياة المدينة الاقتصادية كلها، وخلقت عددًا كبيرًا من العاطلين. ولم يكن هؤلاء في أغلب الأحوال ينضمون إلى القادة، ولكنهم كان لهم فضل كبير في حل مشكلة الأعمال الوضيعة. والواقع أنه منذ تلك اللحظة أخذ الخوف من الجوع يتغلب على الخوف من الخطر؛ لأن الأجر كان يقدر بمدى المخاطرة، فاستطاعت الخدمات الصحية أن تحصل على قائمة بأسماء طالبي العمل، ولم يكن يخلو مكان حتى تتصل بمن لهم الأسبقية في القائمة. ولم يكن هؤلاء يتوانون في تقديم أنفسهم إلا إذا كانوا هم أنفسهم قد أدخلوا مكانهم. وهكذا استطاع المدير الذي تردد طويلًا في استخدام المحكوم عليهم

بالسجن المؤقت أو المؤبد، في مثل هذا النوع من الأعمال أن يتجنب اللجوء إلى هذه النتيجة القصوى، فلم يكن هناك ما يمنع من الانتظار ما دام هناك متعطلون.

تمكن إذن مواطنونا بطريقة أو بأخرى من أن يصلوا إلى مثوهم الأخير حتى نهاية شهر أغسطس. وإذا لم تكن هذه الطريقة لائقة فإنها، على الأقل، قد سارت بنظام يكفي لإيهام الإدارة بأنها لا زالت تؤدي واجبها. ولكن ينبغي لنا أن نسبق قليلاً سياق الحوادث لكي نتحدث عن آخر وسيلتين اضطر إليهما المسؤولون في هذا الصدد؛ ذلك أنه حينما بلغ الطاعون أقصى مدى وصل إليه - أي ابتداء من شهر أغسطس - زاد تراكم الضحايا حتى تجاوز إمكانات مقبرتنا الصغيرة، وعبثاً حاول القائمون بالأمر هدم بعض الجدران، وفتح مخبأً للموتى في الأراضي المجاورة، فقد كان من الضروري العثور على حل آخر سريع، فتقرر أولاً أن يكون الدفن ليلاً، وكان من شأن هذا القرار أن يعفي من اتخاذ بعض الاحتياطات الخاصة بحرمة الجثث، ومن ثم أمكن وضع بعضهم فوق بعض في أكوام داخل عربات الإسعاف. وكان القليلون من المارة - الذين يتأخرون في الطريق حتى هذه اللحظة في الأحياء الخارجية - مخالفين بذلك قواعد حظر الخروج ليلاً، أو أولئك الذين تضطروهم مهنتهم إلى هذا التأخر، يصادفون في بعض الأحيان عربات الإسعاف الطويلة البيضاء تنهب الأرض نهباً وصدى رنينها الباهت يتجاوب في الشوارع المظلمة، وبعد ذلك كانت تلقي الجثث في الحفر على عجل، ولا تكاد تستقر في مرقدها حتى تكون أكوام الجير قد انهالت على وجوها وغطاها التراب كلها في

تلك الحفرة التي كانت تزداد مع الوقت عمقاً.

وعلى الرغم من ذلك، لم يمض وقت طويل حتى اضطروا إلى البحث عن وسائل أخرى، والتوسع في الاستباحة، فصدر قرار من المديرية بنزع ملكية قبور الموتى القدامى الذين أرسلت رفاتهم إلى الأفران بعد استخراجها، ثم لم يلبثوا أن رأوا أنفسهم مضطرين أيضاً إلى إرسال موتى الطاعون -هم الآخرون- إلى الفرن. ولم يكن أمامهم حينئذ إلا استعمال فرن إحراق القمامة الذي يوجد خارج أبواب المدينة من ناحيتها الشرقية. وقد أدى ذلك إلى إبعاد مخيم الحراس بعض الشيء، وكان لأحد موظفي البلدية الفضل في تسهيل مهمة السلطات عندما نصح باستخدام عربات الترام التي كانت فيما مضى تمر على «كورنيش» البحر، ثم توقف سيرها منذ حل الطاعون، وقد اضطروا -من أجل هذه الغاية- إلى إجراء بعض التعديلات في العربات والقاطرات بأن رفعوا المقاعد، وحولوا الخط الكهربائي نحو الفرن الذي أصبح بذلك رأساً للخط.

وهكذا بدأ الأهالي في نهاية الصيف ووسط أمطار الخريف، يرون في كل ليلة قوافل غريبة من عربات الترام تخلو من الركاب، وتذرع أرض الكورنيش مطلة على ماء البحر بضوضائها المعروفة، ثم لم يلبثوا أن عرفوا ماهيتها. وعلى الرغم من الدوريات التي كانت تمنع الوصول إلى الكورنيش، فكثيراً ما كانت تتمكن بعض الجماعات من التسلل بين الصخور التي تتكسر عليها أمواج البحر، ويلقي أفرادها بالأزهار على العربات لدى مرور الترام. وهكذا ظل الناس طوال هذه الليالي الصيفية يسمعون ضجيج عربات الترام، وهي تسير حافلة بما تحمل من زهور وموتى.

ومهما يكن من شيء، فقد تعود سكان الأحياء الشرقية من المدينة أن يروا في كل صباح من أصبحت الأيام الأولى نوعًا من البخار الكثيف المقرز يخيم على أجوائهم. وكان من رأي جميع الأطباء أن هذه الروائح لا يمكن أن تؤذي أحدًا مهما كانت ممجوجة، ولكن سكان تلك الأحياء، ما لبثوا أن هددوا بهجرها لاقتناعهم بأن الطاعون ينقض عليهم من السماء. ولذلك اضطرت السلطات إلى تحويل اتجاه الأبخرة بوسائل معقدة، وبذلك هدأت ثائرة السكان. ولكنهم ظلوا -كلما هبت رياح شديدة- يحسون برائحة آتية من الشرق تذكرهم بأنهم يعيشون تحت نظام جديد وبأن نيران الطاعون ما برحت تلتهم قربانها كل مساء.

كان هذا أقصى ما وصل إليه الوباء من مدى. ومن حسن الحظ أن حدثه لم تزد بعد ذلك، وإلا لأعيت حيل مكاتبنا، وأربت على استعداد المديرية، بل وعلى قدرة القرن على الامتصاص. وكان ريو يعلم أن السلطات كانت قد استعدت للالتجاء إلى الحلول اليائسة، مثل إلقاء الجثث في البحر، وكان من اليسير عليه أن يتصور ما سوف يكون لها من زبد مشحون بالأذى فوق صفحة الماء الزرقاء. وكان يعلم كذلك أنه إذا استمرت الإحصائيات في الصعود، فلن تستطيع أي منظمة -مهما كانت روعة تنظيمها- أن تواصل المقاومة، وأن الأشخاص حينئذ سوف يقبلون على الطرقات ليموتوا فيها أكوامًا حيث تتعفن جثثهم رغم أنف المديرية، وأن المدينة سوف تشهد المحتضرين في الميادين العامة يتعلقون بالأحياء مدفوعين إلى ذلك بمزيج من حقد مشروع، وأمل أبله.

على كل حال، كان هذا النوع من الرجحان والإشفاق هو الذي حفظ على مواطنينا شعورهم بالنفي وبالفراق، وهنا لا بد أن نشير إلى أن الراوي يعرف جيداً أنه مما يدعو للأسف حقاً ألا يكون في مقدوره أن يذكر هنا شيئاً من المشاهد الطنانة، كأن يتحدث عن بطل تطرب لبطولته النفوس، أو عمل برّاق من تلك التي نسمع عنها في القصص القديمة؛ وذلك لأنه لا شيء أبعد من الوباء عن الطنين، ولأن المصائب الكبرى تتسم بالرتابة، ولو لم تكن كذلك إلا لطول أمدها. والواقع أن الذين عاشوا أيام الطاعون المروعة يذكرون جيداً أنها لم تكن تبدو كألسنة اللهب عاتية لا نهاية لها، بل كأقدام تطأ الناس ببطء فتحطم كل شيء في طريقها.

كلا، فالطاعون لا شأن له بالصور الكبيرة المثيرة التي لاحقت الدكتور ريو في بداية الوباء، ولكنه كان أولاً وقبل كل شيء، إدارة متزنة حاذقة تسيّر في أداء عملها على خير وجه. ولنذكر - من باب الاعتراض - شيئاً مما يرويه أو من أفكاره هو نفسه، فهو لم يشأ أن يعدل شيئاً نزولاً على حكم الأساليب الفنية، اللهم إلا فيما يختص بالحاجات الضرورية لتماسك الحكاية واتساقها.

وهذه الموضوعية نفسها هي أيضًا التي تفرض عليه الآن أن يقرر أنه إذا كان الفراق هو أشد الآلام التي تميزت بها هذه الفترة، بل وأعماها وأعماقها، وإذا كان من الضروري أن يقدم له صورة جديدة في هذه المرحلة من الطاعون، فإننا لا نجانب الصواب في شيء حين نقرر أن هذا العذاب نفسه كان قد فقد حينئذ ما يجعله مؤثرًا.

فهل معنى ذلك أن مواطنينا -أو على الأقل أشدهم تألمًا من نار الفراق- كانوا قد اعتادوا هذا الموقف؟ لن يكون الحق كله في جانبنا لو أكدنا ذلك، وربما كنا أكثر دقة لو قلنا: إنهم كانوا من الناحية المعنوية والجسمية يشعرون بنار الجوى تحرق أحشائهم؛ فقد كانوا في بداية الطاعون يذكرون جيدًا الشخص الذي فقدوه ويأسفون لفراقه، ولكنهم إذا ذكروا بوضوح وجه الحبيب وضحكته وأيامه السعيدة، فإنهم كانوا يجدون صعوبة في تخيل ما عسى أن يفعله هذا الشخص في تلك الساعة التي يذكرونه فيها وهو في أمكنة ستظل دائمًا نائية عنهم، ومعنى ذلك أنهم في هذا الوقت كانوا يتمتعون بالذاكرة، ولكن ينقصهم الخيال. أما في المرحلة الثانية للطاعون، فقد فقدوا الذاكرة أيضًا.

وليس معنى ذلك أنهم نسوا هذا الوجه، ولكنهم فقدوا وجوده معهم بلحمه ودمه، ولم يعودوا يرونه في داخل أنفسهم، وهذا يعادل تمامًا فقدانهم لصورة وجهه، ومن ثم فإنهم إذا كانوا يميلون خلال الأسابيع الأولى إلى الشكوى من أنهم لم يعودوا يملكون من أمور حُبهم سوى الظلال، فقد لاحظوا فيما بعد أن هذه الظلال نفسها قد فقدت ما كان يجسدها في نظرهم بعض الشيء، بل وكل ما كان قد بقي لها من لون في

الذاكرة مهما كان باهتًا، ففي نهاية هذه الفترة الطويلة من الفراق لم يعودوا يتخيلون هذا التعاطف الذي كان بين جوانبهم، ولا كيف كان يعيش بجوارهم شخص كان في وسعهم في كل لحظة أن يلمسوه بأيديهم.

كان مواطنونا -من وجهة النظر هذه- قد انطوا تحت لواء الطاعون، ذلك اللواء الذي كان فعالًا بقدر ما كان تافهًا، ولم يعد أحد منا يعرف العواطف الكبيرة، وأصبح الجميع لا يعرفون إلا العواطف الرتيبة. نعم، كانوا دائمًا يرددون قولهم: «لقد آن الأوان لكي ينتهي كل هذا»، كانوا يقولون ذلك؛ لأنه من الطبيعي أن يتمنى الناس نهاية العذاب الجماعي، ولأنهم كانوا يتمنون من صميم قلوبهم أن ينتهي.

ومع ذلك، فقد كانوا يقولونه دون أي حرارة أو مرارة، كما كانوا يفعلون في البداية، وإنما كانوا يقولونه مدفوعين بالقليل من وضوح التفكير الذي كان لا يزال باقيًا لديهم والذي كان جد ضعيف. وهكذا حل الانهيار محل الحماس الوثاب الذي عرفوه في الأسابيع الأولى. وإذا كنا نخطئ لو عددنا هذا الانهيار استسلامًا، فإنه مع ذلك يعتبر نوعًا من القبول المؤقت.

اعتاد مواطنونا السير في الصف تبعًا للتعاليم، وتكيفوا به -كما يقولون- لأنه لم يكن لديهم وسيلة غير ذلك. ومن الطبيعي أنهم ظلوا يحملون سيما الهم والعذاب، ولكنهم لم يعودوا يشعرون بوخزهما، وكان الدكتور ريو مثلاً يرى في ذلك الأمر بالذات نوعًا من التعبير عن التعاسة، ويقول: إن تعود اليأس شر من اليأس نفسه. ولم يكن المفترقون تعساء حقيقة في أول الأمر؛ فقد كان هناك بريق من الأمل يضيء لهم

جوانب آلامهم، ولقد انطفأ هذا البريق، فكنت تراهم الآن في أركان الشوارع وفي المقاهي، أو لدى أصدقائهم شاردي الذهن جامدي التعبير، تنطلق نظرات عيونهم بما في صدورهم من سأم، وهكذا غدت المدينة كلها تحت تأثيرهم كما لو كانت قاعة انتظار.

أما ذوو المهن، فقد استمروا يمارسون مهنتهم بطريقة تشبه طريقة الطاعون نفسه، أي بمزيد من الدقة، ولكن دون أي بريق. لقد تواضع الناس جميعاً، ولأول مرة لم يعد المفترقون يشعرون بغضاضة من التحدث عن الغائب، وأن يستعملوا في ذلك لغة الناس جميعاً، وناقشوا ما يعانون من فراق على نحو ما يناقشون إحصائيات الطاعون؛ فهم إذا كانوا قد ظلوا يفرقون - بكل قواهم - بين آلامهم الخاصة والآلام العامة، فقد قبلوا الآن أن يخلطوهما معاً، وهكذا نراهم قد استغرقوا في الحاضر بعد أن فقدوا الذاكرة وفقدوا القدرة على التألم. والحقيقة أن كل شيء أصبح بالنسبة لهم يمثل الحاضر، بل لا بد من الاعتراف بأن الطاعون قد انتزع من الجميع المقدرة على الحب، بل حتى المقدرة على الصداقة؛ وذلك لأن الحب يتطلب قليلاً من المستقبل، في حين أنه لم يكن قد بقي لنا إلا لحظات حاضرة.

ومما لا يحتاج إلى بيان أن كل أمر من هذه الأمور لا يمكن أن يكون مطلقاً؛ لأنه إذا كان من الحق أن المفترقين جميعاً قد بلغوا هذه الحالة، فمن الحق أيضاً أن نضيف أنهم لم يصلوا إليها مجتمعين وفي وقت واحد. هذا إلى أنهم بعد أن استقروا في حالتهم الجديدة، كان يحدث أن يبرق في وجدان بعضهم شيء من البوارق، أو يعود بهم فكرهم إلى

الماضي بعض لحظات، أو يعترهم نوع من صفاء الذهن، فيعودون إلى حساسية أكثر شباباً وأشدّ عذاباً. كان لا بد من لحظات الشroud هذه لكي يسبحوا بخيالهم في مشاريع تنطوي ضمناً على فكرة انتهاء الطاعون، وكان لا بد لهم أن يشعروا فجأة -وبمعونة من السماء- بأنياب نوع من الغيرة غير ذي موضوع. كما أن بعضهم كان يتتابهم نوع مفاجئ من البعث يجعلهم يخرجون من ذهولهم خلال أيام معينة من الأسبوع، يوم الأحد ومساء السبت بطبيعة الحال، وذلك لأن هذه الأيام كانت مخصصة لأنواع من العادات حين كان الغائب موجوداً. وكان هناك آخرون يغشاهم نوع من الكآبة فتتذرهم بقرب عودة الذاكرة إليهم، وإن لم يعمل الواقع على تحقيق هذه النذر دائماً. ساعة المساء هذه -التي يعتبرها المؤمنون ساعة امتحان الضمير- كانت قاسية بالنسبة للسجين أو المنفي اللذين لم يكن أمامهما ما يمتحنه سوى الفراغ، كانت هذه الساعة تمسك بهما لحظة في حالة تعليق يعودان بعدها إلى حالة توقف الذهن، ويحبسان نفسيهما في الطاعون.

ولقد فهم الناس أن ذلك معناه التنازل عن كل ما يتصل بأشخاصهم أوثق اتصال، فبينما كانوا في أيام الوباء الأولى يقعون تحت تأثير مجموعة الأشياء الصغيرة التي كان لها اعتبارها بالنسبة لهم -وإن لم يكن لها وجود بالنسبة لغيرهم- فكانوا بذلك يمرون بتجربة الحياة الشخصية، لم يعودوا الآن يهتمون -على العكس من ذلك- إلا بما يهم الآخرين، لم تعد تشغل رؤوسهم سوى الأفكار العامة، حتى إن حبهم ذاته قد اتخذ في أذهانهم شكلاً تجريبياً بحثاً؛ ذلك أنهم كانوا قد وصلوا

-في استسلامهم للطاعون- إلى حد أصبحوا معه لا يأملون إلا في أن يدهمهم النوم، وأن يتوقفوا عن التفكير، وكانوا يقولون: «لتحل الأورام، ولينته الأمر»، ولكنهم كانوا قد استسلموا فعلاً للنوم، ولم يكن كل هذا الوقت بالنسبة لهم سوى فترة نوم طويل، فقد كانت المدينة مأهولة بجمع من النائمين المستيقظين الذين لم يكونوا يفرون من حالتهم هذه إلا في تلك اللحظات النادرة التي كانت تنفجر فيها جراحهم فجأة، تلك الجراح التي كان تبدو في الظاهر ملتئمة، وحينئذ كانوا يهبون من نومهم مذعورين، أو يتحسسون -وهم شاردو الأذهان- حوافها الملتهبة فترتد إليهم في لمح البرق آلامهم وقد استعادت شبابها، تعود ومعها صورة حبهم المضطربة. وفي الصباح يعودون إلى الوباء؛ أي إلى الحياة الرتيبة.

ولكن قد يسألنا سائل قائلاً: ماذا كانت سيما هؤلاء المفترقين؟ والواقع أن الإجابة عن هذا السؤال بسيطة، فلم تكن لهم سيما خاصة، أو، إذا شئنا، كانت سيماهم كغيرهم من الناس، وهي سيما عامة كل العموم. كانوا يقاسمون أهل المدينة برودهم وانفعالاتهم الصبانية، وقد فقدوا مظاهر حاسة النقد في نفس الوقت الذي اكتسبوا فيه مظاهر البرود. فكنا مثلاً نرى أكثرهم ذكاء يتظاهرون لغيرهم بالبحث في الجرائد أو في النشرات الإذاعية عن أسباب توهمهم بالاعتقاد في اقتراب نهاية الطاعون، أو يخلقون لأنفسهم أحلاماً لا تستند إلى أي واقع، أو يحيطون أنفسهم بمخاوف لا أساس لها بعد قراءة ما قد يكون أحد الصحفيين قد كتبه عن الوباء دون وعي وهو يتشاءب من الضجر. أما فيما عدا ذلك، فكانوا يحتسون البيرة، أو يمرضون مرضاهم، كانوا

يستسلمون للكسل، أو ينهكون أنفسهم في نشاط ما، كانوا يرقبون البطاقات أو يديرون بعض الأسطوانات دون أن يكون لهم ما يمكن أن يميز بعضهم عن بعضهم الآخر. وبتعبير آخر، كانوا قد فقدوا القدرة على اختيار أي شيء، فقد قضى الطاعون لديهم على موهبة الحكم على القيم، وكان ذلك يتبين جلياً من أنهم لم يعودوا يهتمون بنوع اللباس الذي يلبسونه أو الأطعمة التي يشترونها.. كانوا يقبلون كل شيء كتلة واحدة.

وأخيراً يمكننا أن نقول: إن المفترقين لم يعد لهم هذا الامتياز الغريب الذي كان يحميمهم في البداية؛ فقد فقدوا أنانية الحب، وما كانت تجلبه لهم من فائدة، أو على الأقل لقد أصبح الموقف الآن واضحاً، وأضحى الوباء من شأن الناس جميعاً وسط الطلقات التي تهز أبواب المدينة وتوقع البصمات التي تقضي بحياتنا أو موتنا، وسط الحرائق والبطاقات، وسط رعب الشكليات التي لا تنتهي، كنا وسط كل هذا نسير نحو مية بشعة ولكنها لا تعدم التسجيل، بين الأدخنة الفظيعة ورنين عربات الإسعاف الهادئ، كنا جميعاً نطعم نفس الخبز، خبز المنفى، ونحن ننتظر -دون أن ندري- نفس التلاقي ونفس الطمأنينة المثيرين. كان حبنا في أغلب الظن، لا يزال موجوداً، ولكنه بكل بساطة كان قد أصبح غير صالح للاستعمال، كان يثقل كاهلنا، خامداً في باطننا، عقيماً عقم الجريمة أو حكم الإدانة. كان قد تحول إلى صبر لا مستقبل له وإلى انتظار عنيد. ومن هذه الناحية كانت حالة بعض مواطنينا تشبه تلك الصفوف الطويلة التي كنا نراها في أركان المدينة الأربعة أمام حوانيت

المواد الغذائية. إنه نفس الاستسلام، ونفس الاحتمال الذي لا نهاية له ولا أمل من ورائه. ولكن يجب مضاعفة هذا الشعور ألف مرة في حالة الفراق؛ لأن الأمر هنا يتعلق بنوع آخر من الجوع في وسعه أن يلتهم كل شيء.

وأياً ما كان، فإننا إذا أردنا أن نكون فكرة صحيحة عن حالة المفترقين الذهنية في مدينتنا، وجب علينا أن نعود بذاكرتنا إلى تلك الأمسيات الذهبية المتكررة المحملة بالغبار، والتي كانت تنقض على المدينة العارية من الأشجار، بينما يتدفق الرجال والنساء في جميع شوارعها. فمن الغريب أن ما كان يصعد إلى الشرفات التي لا تزال مشمسة، وقد خلت المدينة من كل ما يكون لغة المدينة سواء أكان ضوضاء لعربات أو آلات، لم يكن ذلك إلا مزيجاً من وقع الخطى والأصوات المكتومة، لم يكن هناك إلا زحف آلاف من النعال الموضوعة يضبط وقعها صفير الوباء تحت هذه السماء المثقلة، لم يكن هناك إلا دبيب مذعور لا ينتهي يملأ المدينة شيئاً فشيئاً، ويعمل مساء بعد مساء على أن يطبع بصوته الماثب الكئيب ذلك التصميم الأعمى الذي كان قد حل في قلوبنا محل الحب.



استمر الطاعون خلال شهري سبتمبر وأكتوبر يمسك بالمدينة منطوية على نفسها. ولما كان الأمر كله ينحصر في الدببة بالأقدام دون تقدم، فقد ظل مئات الألوف من الأشخاص يدببون بأقدامهم خلال أسابيع لا نهاية لها. وتوالى الضباب والقيظ والمطر على سماء المدينة، وكانت طوائف الطير الصامته الآتية من الجنوب تمر بالسماء على علو شاهق، فتتحرف عن جو المدينة، كما لو كان يبعدها عنه جهاز بانلو، أعني تلك القطعة الخشبية القريبة التي تدور فوق المنازل وهي تبعث بصفيرها، وفي بداية أكتوبر أخذت الأمطار الهائلة تغسل الشوارع. أما فيما عدا ذلك، فلم يحدث خلال كل هذا الوقت ما هو أكثر أهمية من دببة الأقدام الهائلة.

وحينئذ اكتشف ريو وأصدقاؤه مقدار ما أدركهم من نصب. والحقيقة أن رجال المنظمات الصحية لم يستطيعوا هضم كل هذا التعب، وكان الدكتور ريو كلما نظر إلى أصدقائه وإلى نفسه رأى نوعاً غريباً من عدم المبالاة يزحف على النفوس، فهؤلاء الرجال مثلاً الذين كانوا حتى الآن يظهرون اهتماماً كبيراً بكل ما يتعلق بالطاعون من أخبار، لم يعودوا الآن يهتمون بتلك الأخبار إطلاقاً، فرامبير الذي كان قد كلف بصفة مؤقتة بإدارة بيت من بيوت الحجر الصحي أقيم في فندقه، كان على علم تام بعدد الذين يتولى ملاحظتهم، وكان يعرف أدق

التفاصيل بطريقة النقل السريع التي ابتدعها من أجل الذين تظهر عليهم فجأة أي علامة من علامات المرض، كما كانت الإحصائيات الخاصة بتأثير المصل على مراكز الحجر الصحي محفورة في ذاكرته، ولكنه مع كل ذلك، لم يكن يستطيع أن يذكر الرقم الأسبوعي لضحايا الطاعون، كما كان يجهل ما إذا كان الوباء يتقدم أم يتراجع. وكان يأمل في قرارة نفسه، على الرغم من كل شيء، في أن تيسر له فرصة قريبة للهرب.

أما عن الآخرين فقد شغلهم العمل ليل نهار، فلم يعودوا يقرأون الصحف ولا يستمعون إلى المذيع، فكانوا إذا ما أعلنت إليهم إحدى النتائج تظاهروا بالاهتمام بها، ولكنهم في الواقع كانوا يستقبلونها بذلك النوع من عدم الاكتراث الشارد الذي نتصوره لدى المقاتلين في الحروب الكبرى عندما ينهكهم العمل فلا يعودون يبالون إلا بعدم التقصير في أداء واجبهم اليومي دون أمل في الموقعة الحاسمة، أو في يوم الهدنة.

وقد كان من المنتظر أن يعجز جران -الذي استمر يقوم بالعمليات الإحصائية المترتبة على الطاعون- عن استنباط النتائج المهمة لتلك العمليات، ولكنه كان على العكس من تارو ورامبير وريو الذين كانوا يبدون في الظاهر أكثر منه احتمالاً للتعب؛ إذ إن صحته لم تكن في يوم من الأيام جيدة، ومع ذلك فقد ظل يجمع بين قيامه بعمله ككاتب صغير في البلدية، وكسكرتير لريو إلى جانب أعماله الليلية. وهكذا كنا نستطيع أن نراه دائماً في حالة إنهاك، ولكن تشد من عضده فكرتان أو ثلاث أفكار ثابتة، كفكرة الحصول على إجازة كاملة بعد الطاعون لمدة

أسبوع على الأقل؛ يقضيها في العمل بشكل إيجابي فيما كان بسبيله من «ارفعوا قبعاتكم». وكان في هذه الأثناء يتعرض لنوبات مفاجئة من الحنان، فكان يطيب له أن يتكلم مع ريو عن جان، ويتساءل أين يمكن يا ترى أن تكون في تلك اللحظة بالذات؟ وعما إذا كانت تفكر فيه عندما تقرأ الصحف. أما ريو، فقد دهش من نفسه حين رآه يومًا يتحدث مع جران عن زوجته هو بلهجة عادية، هذا الذي لم يكن قد فعله قط قبل ذلك. ولما لم يكن يثق في البرقيات المطمئنة التي كانت تصله من زوجته، فقد قرر أن يبرق إلى كبير الأطباء في المصلحة التي تعالج فيها، وكان الرد الذي تلقاه يفيد أن حالة المريضة قد ازدادت سوءًا، وأنهم سوف يفعلون كل ما في إمكانهم لإيقاف الداء.

وقد احتفظ ريو لنفسه بهذا الخبر، ولكنه لم يدر إلا وهو يسر به يومًا إلى جران دون سبب واضح، اللهم إلا أن يكون التعب هو الذي دفعه إلى ذلك. وذات يوم كان موظف البلدية يكلم ريو عن جان، وما إن انتهى من كلامه حتى سأله عن زوجته، وأجابه ريو عن سؤاله، فرد جران معقبًا بقوله: «أنت تعلم أن هذا المرض يعالج الآن بنجاح تام»، وأيد ريو ذلك، ولكنه قال: إن الفراق قد بدأ يطول، وإنه كان في مقدوره أن يساعد زوجته ويساعدها في التغلب على المرض، أما الآن، فلا بد وأنها تشعر بقسوة الوحدة، ثم صمت ولم يعد يرد على أسئلة جران إلا بقصد التهرب.

وكذلك كانت حالة الآخرين، فكان تارو أشد مقاومة من غيره، ولكن مذكراته تدل على أنه إذا كان استطلاع له يفقد شيئًا من عمقه،

فإنه قد فقد الكثير من تنوعه. والواقع أنه لم يكن فيما يبدو -طيلة تلك المدة- يهتم بغير كوتار. وكان قد استقر به المقام عند ريو، بعد أن تحول الفندق الذي كان يقيم فيه إلى بيت من بيوت الحجر الصحي، فكان خلال محادثات المساء لا يكاد يستمع إلى جران أو إلى ريو وهما يتحدثان عن نتائج الوباء، بل يسارع بتحويل دفة الحديث إلى حياة وهران اليومية بتفاصيلها الدقيقة التي كان تشغل فكره بصفة عامة.

أما كاستل، فكان لدى ريو في اليوم الذي أعلن فيه للدكتور أن المصل قد أُعد حيث استقر الرأي على البدء بتجربته في ابن السيد أوتون الذي نُقل حديثاً إلى المستشفى، وهو في حالة كانت تبدو لريو داعية لليأس. وبينما كان الطبيب يطلع صديقه القديم على آخر الإحصائيات، لاحظ أنه قد استسلم لنوم عميق في تجويف مقعده. ونظر ريو إلى هذا الوجه الذي كان يضيف عليه تعبيره الوديع الساخر شاباً دائماً، فرأى أنه، بعد هذا الاسترخاء المفاجئ، قد خيمت بين شفثيه شبكة من اللعاب فوصلت بينهما، مما جعله يبدو هرمًا بالياً، وحينئذ شعر ريو بانقباض يخنقه.

كانت لحظات الضعف تلك هي التي تجعل ريو يشعر بمدى ما يعانیه من تعب، كما كان يفسح الطريق أمام حساسيته للظهور. كانت تلك الحساسية تظل طيلة الوقت جامدة جافة محاطة بما يشبه العقدة، ولكنها كانت تنفجر على فترات طويلة فتسلمه إلى انفعالات لا يمكن السيطرة عليها. وكان دفاعه الوحيد ضد هذه الانفعالات ينحصر في اللجوء إلى هذا الجمود، وفي أن يزيد في شد العقدة التي تكونت عنده.

وكان يعرف جيداً أن هذه طريقة حسنة تمكنه من الاستمرار والصمود. أما فيما عدا ذلك، فإنه لم يكن يعلل نفسه بالأوهام فيما يتعلق بالطاعون، بل لقد كان ما يعانيه من تعب يبدد ما قد يخامره من أوهام، فكان في تلك الفترة التي لا يعرف لها نهاية، يعلم أن دوره لم يعد ينحصر في شفاء الناس، بل في تشخيص الداء. كانت مهمته أن يكتشف الداء ويشاهد ويصف ويسجل، ثم يصدر حكمه على المريض. كانت هناك زوجات يمسكن به من معصمه ويصحن: «امنحه الحياة يا دكتور»، ولكنه لم يكن هناك ليمنح الحياة، بل ليأمر بالعزل. أما الكراهية التي كان يراها حينئذ على الوجوه فما جدواها؟ لقد قيل له يوماً: «إنك بلا قلب؟» بلى، لقد كان له قلب، وهو الذي كان يساعده على أن يستمر في العمل عشرين ساعة يومياً يرى فيها الناس يموتون، وقد خُلِقوا للحياة، وهو الذي كان يساعده على أن يبدأ كل يوم من جديد، وقد أصبح قلبه منذ الآن لا يتسع لغير هذا. فكيف يمكن إذن أن يتسع لمنح الناس الحياة؟

كلا، لم يكن العون هو الشيء الذي يوزعه ريو طيلة يومه، وإنما كان يوزع التعليمات. نعم، وبطبيعة الحال لا يمكننا أن نعتبر أن تلك هي مهنة الإنسان، ولكن من، إذن، من تلك الجحافل المكبوتة المبعثرة كان لديه من الفراغ ما يعينه على ممارسة مهنة إنسانية؟ بل لقد كان من حسن الحظ أن بُليّ الناس بالتعب، فلو أن حياة ريو كانت أشد نضارة من تلك، لاستطاعت رائحة الموت المنتشرة في كل مكان أن تجعله عاطفياً. ولكن إذا كان المرء لا ينام في اليوم سوى أربع ساعات، فإنه لا يكون أبداً عاطفياً، إنما يرى الأشياء كما هي، يراها وفقاً لما تقضي

به العدالة، العدالة البشعة الواهمة. وكان الآخرون، أولئك الذين حكم عليهم بالموت، يشعرون هم أيضًا بذلك جيدًا. فقبل الطاعون كانوا يستقبلونه باعتباره منقذًا، وكان بإمكانه يومئذ أن يرجع كل شيء إلى نصابه باستعمال المحقن وثلاث حبات من الدواء، وكان من يزورهم يشدون على ذراعه وهم يشيعونه في الدهاليز الطويلة. لقد كان ذلك أمرًا يدعو إلى الفخر حقًا، ولكنه كان أمرًا خطيرًا. أما الآن، فقد كان على العكس من ذلك، كان لا يظهر إلا مع رجال الشرطة، وكان لا بد من بعض دقات بقواعد البنادق على الأبواب؛ لكي توافق الأسرة على أن تفتح الباب. كان المرضى يودون سوقه وسوق الإنسانية بأسرها معهم إلى الموت. آه! نعم، من الحق أن الناس لا يمكنهم الاستغناء عن الناس، ومن الحق أن ريو كان لا يملك لهؤلاء التعساء حولًا ولا قوة، وكان يستحق رجفة الشفقة التي كان يحس بها، ويتركها تكبر في نفسه عندما يغادروهم.

هذه، على الأقل، هي الأفكار التي ظلت، خلال تلك الأسابيع -التي لا نهاية لها- تراود الدكتور ريو مع غيرها من أفكار خاصة بحالة الفرقة التي كان يعانيتها. وكانت هي أيضًا نفس الأفكار التي تُقرأ على وجوه أصدقائه، ولكن أشد نتائج الإنهاك الذي أصيب به أولئك الذين استمروا في مكافحة الوباء خطرًا، لم تكن تنحصر في هذا النوع من عدم المبالاة تجاه الأحداث الخارجية وتجاه عواطف الآخرين، ولكن فيما اندفعوا فيه من إهمال لكل شيء؛ فقد مالوا في ذلك الوقت إلى تجنب كل ما لا ضرورة له من حركات كانت تبدو لهم فوق طاقتهم.

وهكذا وصل هؤلاء الرجال إلى التماذي شيئاً فشيئاً في إهمال القواعد الصحية التي تولوا هم سنّها، وإلى نسيان وسائل التطهير الكثيرة التي كان من الضروري تطبيقها على أنفسهم، فكانوا يهرعون أحياناً إلى مرضى مصابين بالطاعون الرئوي دون أن يحصنوا أنفسهم ضد العدوى، وذلك بحجة أنهم قد أخطروا في اللحظة الأخيرة بضرورة التوجه إلى المنازل الملوثة، وأنه قد بدا لهم أن في الذهاب إلى أحد المراكز للحصول على الحصانة الضرورية مشقة كبيرة. وكان هذا هو الخطر الحقيقي؛ لأن مكافحة الطاعون هي نفسها التي جعلتهم عرضة للإصابة به. لقد اعتمدوا على المصادفة، وليس من شأن المصادفة أن تحالف أحداً.

ومع ذلك، فقد كان هناك رجل في المدينة لم يبد عليه الإنهاك ولا اليأس، بل ظل صورة حية للرضى، ذلك هو كوتار؛ فقد ظل منعزلاً مع المحافظة على علاقاته بالآخرين، ولكنه وازب على زيارة تارو كلما سمح لهذا الأخير عمله بذلك، وهذا من جهة لأن تارو كان يعرف عن حالته الكثير، ومن جهة أخرى لأنه كان يعرف كيف يستقبل ذا الدخل الصغير هذا بود قلبي لا يتغير. كانت تلك أعجوبة لا تنتهي، ولكن تارو كان قد ظل دائماً -رغم ما كان يؤديه من أعمال جسام- يستقبله ببشاشة واهتمام، فقد كان -حتى في الليالي التي كان التعب فيها يحطمه تحطيمًا- يستعيد قوته في اليوم التالي، وكان كوتار يقول لرامبير: «إنه يستطيع دائماً أن يتكلم مع هذا الشخص؛ لأنه إنسان، وفي وسعه دائماً أن يفهمك».

ولهذا كانت مذكرات تارو في هذه الآونة تتركز شيئاً فشيئاً حول كوتار، وقد حاول تارو أن يعطينا صورة عن تفاعل كوتار بالأحداث وتفاعلها به، كما صورها له هذا الأخير، أو كما فسرهما هو نفسه، وقد شغلت هذه الصورة عدة صفحات من المذكرات تحت عنوان «علاقات كوتار بالطاعون». ومن رأي الراوي أنه من المفيد أن يذكر هنا ملخصاً لها. رأي تارو في صاحب الدخل هذا على وجه العموم يتلخص في هذا الحكم: «إنه شخصية تتقدم في طريق العظمة». ومن الظاهر أنه كان يعظم من حيث الرضى، فلم يكن ساخطاً على الطريقة التي تدور بها الأحداث، وكان يعبر أحياناً عن أعماق فكره أمام تارو بملاحظات من هذا النوع: «من المؤكد أن الأمور لا تتحسن، ولكن على الأقل كل الناس في الكارثة سواء».

ويضيف تارو إلى ذلك قوله: «إنه قطعاً مهدد بالخطر كالآخرين، ولكن الخطر يحيط به وبالأخرين في وقت واحد، ثم لا شك في أنه لا يفكر جدياً في أنه قد يصاب بالطاعون؛ إذ يبدو أنه يعيش على فكرة لا أعتقد أنها تتسم بالغباء، وهي أن الرجل المهدد بمرض خطير، أو بالألم نفسي كبير تنأى به المقادير في نفس الوقت عن الأمراض والآلام الأخرى جميعاً، وقد قال لي ذات مرة: «ألم تلاحظ أنه لا يحدث للمرء أن يجمع عدة أمراض في آن واحد؟ فإذا كان هناك شخص مصاب بمرض خطير أو غير قابل للشفاء، كسرطان كبير مثلاً، أو سل هائل، فإنه لا يصاب أبداً بالطاعون أو بالتيفوس، هذا محال، بل يمكن الذهاب إلى أبعد من ذلك؛ لأنك لم تصادف أبداً شخصاً مصاباً بالسرطان يموت في حادث

سيارة». وسواء أكانت هذه الفكرة خطأ أم صواباً، فإنها كانت السبب في اعتدال مزاج كوتار. أما الشيء الوحيد الذي لم يكن يريده، فهو ألا يظل منفصلاً عن الآخرين، كان يفضل أن يدخل في نطاق الحصار مع الآخرين على أن يظل سجيناً بمفرده، وفي حالة وجود الطاعون لم يكن هناك مجال للتحقيقات السرية، والسجلات، والبطاقات والمعلومات الغامضة، والاعتقال العاجل. ففي واقع الأمر لم تكن هناك شرطة، ولا جرائم قديمة أو حديثة، ولا مذنبون. لم يكن هناك إلا محكوم عليهم ينتظرون فضلاً خاصاً من السماء، وكان رجال الشرطة أنفسهم من بين هؤلاء، وهكذا ظل كوتار -حسب تعليل تارو- يتأمل أعراض القلق والهلع على وجوه مواطنينا بذلك النوع من الرضى المتسامح الواعي الذي يمكن أن يعبر عن نفسه بهذه الكلمة:

«مهما قلتم، فإنني قد أصبت به من قبلكم».

وعبثاً حاولت أن أفهمه أن الطريقة الوحيدة لعدم الابتعاد عن الآخرين تنحصر في أن يكون المرء حي الضمير، ولكنه كان ينظر إليّ في خبث، ويقول: «إذا صح ما تقول، فإنه لن يتأتى لأحد مطلقاً أن يكون مع أحد»، ثم يردف قائلاً: «يمكنك أن تأخذ هذا الذي سأقوله لك على أنه قضية مسلمة، فإن الوسيلة الوحيدة لجعل الناس بعضهم مع بعض، هي أن ترسل إليهم الطاعون، ما عليك إلا أن تنظر فيما حولك». والحقيقة أنني كنت أفهم ما يريد أن يقول، وأرى كيف أن حياتنا هذه الأيام كانت تبدو له مريحة، فكيف كان يتأتى له إذن ألا ينساق إلى الاعتراف بما كان يخامره من خواطر، وبالمحاولة التي يبذلها كل واحد منا؛ لكي

يكون الناس جميعًا من حوله، وبروح المجاملة وحب أداء الخدمات اللذان يدوان منا في بعض الأحيان عندما نرشد عابر سبيل ضل طريقه، وبالاستياء الذي نبديه له أحيانًا أخرى، وباندفاع الناس إلى المطاعم الفاخرة، وشعورهم بالارتياح لوجودهم فيها، وميلهم إلى أن يظلوا فيها حتى وقت متأخر، وتدفق الناس على دور السينما، واصطفافهم أمامها بالساعات بحيث تغص بهم قاعات العرض وقاعات الرقص جميعًا، ذلك التدفق ينتشر كموجات المد نحو الأماكن العامة، وكيف لا يعترف بذلك التراجع أمام كل احتكاك، على الرغم من اشتهاى الحرارة البشرية الذي كان يدفع الناس بعضهم نحو بعض، حتى تتلاقى الأذرع بالأذرع والجنس بالجنس؟ لا جدال في أن كوتار قد عرف كل هذا من قبلهم، فيما عدا النساء؛ لأنه -وذلك بالنسبة له... وأحسب أنه لما شعر بأنه يوشك على الاندفاع نحو النساء الساقطات- أبى على نفسه ذلك؛ لكيلا يبدو عليه سوء المسلك مما قد يسيء إليه في المستقبل.

«وباختصار، كان الطاعون ملائمًا له؛ فبعد أن كان شخصًا يعيش وحده في معزل عن الناس، على الرغم من إرادته، جعل منه الطاعون شريكًا له في الجريمة، وشريك مرتاح لهذه الشركة، إنه شريك في كل ما يقع أمام بصره، في الخرافات، والخوف غير المشروع، وفي سرعة تأثر تلك النفوس المرتاعة، شريك في تلك النزوة التي يشعرون بها، نزوة الإقلال بقدر الإمكان من الكلام عن الطاعون، والانسحاق على الرغم من ذلك في عدم الكف عن الكلام عنه، شريك في ارتياحهم وشحوبهم كلما أصابته أبسط حالات الصداع مذ عرفوا أن المرض

يبدأ بالآلام في الرأس، وشريك كذلك في حساسيتهم المرهفة السريعة التأثير، غير الثابتة، التي تؤول أيسر أنواع النسيان على أنه إهانة، وتثور عندما يفقد زر من أزرار سروال».

وكثيراً ما كان يحدث أن يخرج تارو برفقة كوتار في المساء، وهو يقص في مذكراته كيف كانا ينغمران وسط الجموع الزاخرة التي تتجمع في الغروب أو في الليل، وقد التصق الكتف بالكتف، كانا ينغمران فيها ككتلة واحدة بيضاء وسوداء يضيء عليها أحد المصابيح البعيدة لمحة نادرة من الضوء، كانا يرافقان القطيع البشري نحو المتع الحارة التي تحميه من برودة الطاعون. إن هناك الآن شعباً بأسره يتجه إلى ما كان يبحث عنه كوتار منذ أشهر قليلة في الأماكن العامة، في الترف والحياة العريضة، ذلك الشيء الذي كان يحلم به دون أن يستطيع تحقيقه؛ ألا وهو البهجة التي لا شيء يكبح جماحها. وفي الوقت الذي كانت فيه أسعار الحاجيات جميعها في ارتفاع لا يمكن تجنبه، كان الناس يبعثون كما لم يفعلوا من قبل قط. وفي الوقت الذي كانت فيه الضروريات تنقص أغلب الناس، كان أولئك الناس يبددون الكماليات كما لم يفعلوا في أي وقت مضى. وأخذ الناس يشاهدون كل تلك النتائج التي يتمخض عنها الفراغ، وإن لم يكن هذا الفراغ في حقيقة أمره إلا نوعاً من البطالة. وكان يحدث لتارو وكوتار أن يتتبعا للحظات طويلة زوجين من أولئك الأزواج الذين كانوا يحاولون جادين فيما مضى إخفاء الصلة التي تربطهم، ولكنهما أصبحا الآن يسيران خلال المدينة عامدين، وقد التصق كل منهما بالآخر دون أن يشعرا بالجموع التي تحيط بهما أو

تراهما؛ لأنهما قد غرقا في ذلك الشرود الملح الذي يميز ذوي العواطف الملتهبة. وكان كوتار يتأثر بذلك، ويقول:

«يا للسعداء!»، أكان يتكلم بصوت عال وقد انشرح صدره وسط الحمى الجماعية، والعطايا السابغة التي تبعث حوله للخدم، والمؤامرات التي تدبر أمام عينيه.

ومع ذلك، فإن تارو كان لا يرى الكثير من الشر في مسلك كوتار هذا؛ ذلك أن قوله: «لقد مررت بهذا من قبلهم»، يدل على التعاسة أكثر مما يدل على الانتصار، ويقول تارو: «أعتقد أنه قد بدأ يحب أولئك الناس المسجونين بين السماء وجدران المدينة، فقد كان على استعداد لأن يشرح لهم -لو استطاع إلى ذلك سبيلاً- أن الطاعون ليس شيئاً مروّعاً كما يتصورون، وكثيراً ما كان يؤكد لي قوله: «إنك تسمعهم يقولون: بعد الطاعون سأفعل كذا أو كذا، وهكذا تراهم يسممون حياتهم بدلاً من أن يعيشوا في هدوء.

إنهم لا يشعرون بما هم فيه من ميزات، فهل أستطيع أنا مثلاً أن أقول: «بعد القبض عليّ سأفعل كذا أو كيت؟! إن الاعتقال بداية وليس نهاية، أما الطاعون.. أتريد رأيي؟ إنهم تعساء؛ لأنهم لا يستسلمون ويسيروا في طريقهم، وإني لوائق مما أقول»، ويضيف تارو: «والواقع أنه كان يعرف معنى ما يقول، فهو يحكم على المتناقضات التي تميز سكان وهران حكماً حقيقياً، ففي الوقت الذي كان يشعر فيه هؤلاء السكان شعوراً عميقاً بالحاجة إلى الدفء الذي يقرب بعضهم من بعض، لم يكونوا يستطيعون -على الرغم من ذلك- أن يستسلموا لهذا

الدفع بسبب عدم الثقة التي تبعد بعضهم عن بعض، فهم يعرفون جيداً أنه لا يمكن أحد أن يثق في جاره؛ لأنه قادر على أن يمنحه الطاعون دون أن يشعر، ويستفيد من استسلامه إليه لكي يلوّثه بالجراثيم. والحقيقة أنه إذا تأتى للمرء أن يقضي وقته -مثل كوتار- في تفحص الناس، ورأى أن كل من يحب صحبتهم من الناس ليسوا إلا مخبرين، فإنه يستطيع أن يفهم هذا الشعور، لذلك لا يسع المرء إلا أن يشعر بالعطف الكبير نحو أولئك الذين يعيشون في فكرة أن المرض قد يضع يده بين عشية وضحاها على كتفهم، وأن ذلك قد يكون في نفس الوقت الذي يشعرون فيه بالبهجة لأنهم ما زالوا أصحاء، وما دام ذلك ممكناً، فإنه يشعر براحة وسط الإرهاب، ولكنه لما كان قد شعر بكل هذا من قبل غيره؛ فإنه اعتقد أنه لا يستطيع أن يشاركهم مشاركة كلية في القول بقوة هذا الشك.

وباختصار، فإن مثل هذا الشخص كان إذا وجد نفسه بيننا -نحن الذين لم نمت بعد بالطاعون- لم يكف يوماً عن الشعور بأن حرّيته وحياته تبدوان كما لو كانتا على وشك الانهيار، ولكن لما كان هو نفسه قد عاش في الإرهاب، فقد كان يرى من الطبيعي أن يعرف الآخرون بدورهم هذا الإرهاب الذي كان يبدو له في ذلك الوقت أخف حملاً من الإرهاب الذي يحمله بمفرده، وهذا هو وجه الخطأ في مسلكه، وما كان من شأنه أن يجعله أكثر صعوبة على الفهم من غيره، ولكن هذا -بالذات- هو أيضاً ما يجعل من حقه علينا أن نحاول فهمه أكثر من غيره».

وأخيرًا، تنتهي صفحات تارو بقصة يرويها، ويدلل بها على الضمير الغريب الذي نبت لدى كوتار، ولدى المصابين بالطاعون في وقت واحد، وهذه القصة تجعل الجو الصعب الذي ساد تلك الفترة يستقر تقريبًا، ولذلك يوليها الراوي بعض عنايته.

فلقد اتفق أن ذهب كوتار وتارو إلى دار أوبر البلدية، حيث كانت تعرض مسرحية «أورفيه» لجلوك، وكان ذهاب تارو بدعوة من كوتار، وكانت الفرقة قد قدمت المدينة في ربيع الطاعون لتقدم بعض مسرحياتنا على مسرحها، ولما حاصرها المرض رأت -بعد الاتفاق مع دار الأوبرا- أن تعيد عرضها مرة كل أسبوع.

وهكذا أصبح مسرح البلدية عندنا منذ أشهر طويلة، وفي يوم الجمعة من كل أسبوع، يعج بأنات أورفيه الموسيقية وبنداءات أوريديس العاجزة، ومع ذلك فقد استمر هذا المشهد يلاقي نجاحًا من الجمهور، ويحقق يوميًا أرباحًا طائلة، وجلس كوتار وتارو في أعلى الأماكن ثمنًا، وكانا يشرفان من مكانيهما على قاعة غصت حتى آخرها بأكثر مواطنينا أناقة، وكان القادمون يبذلون قصارى جهدهم؛ لكيلا يفوتهم شيء من العرض، وفي وسط الأضواء الأمامية الشديدة، وفي الوقت الذي كان الموسيقيون فيه يضبطون آلاتهم وراء الستار، كانت أشباح الناس تذهب من صف لآخر، وتنحني في خفة، وكان الصخب الخفيف الذي ينشأ عادة من محادثة ودية اللهجة يعيد إلى الناس الثقة التي كانت تنقصهم منذ بضع ساعات خلال شوارع المدينة المظلمة، وعلى هذا النحو كان لباس السهرة يطرد الطاعون.

وخلال الفصل الأول انبرى «أورفيه» ييث شكواه في سهولة ويسر،
بينما وقفت بعض النساء يترجمن برقة عن تعاسته ويتغنن بالحب،
وكان رد الفعل في القاعة حارًا وصامتًا، ولم يكد أحد يشعر أن أورفيه قد
استطاع أن يُدخل في لحن الفصل الثاني رجفة لم تكن فيه، وراح يطلب
-في كثير من المغالاة والافتعال- إلى سيد الجحيم أن يرق لدموعه،
ولما بدرت منه بعض حركات رتيبة، رأى أكثر الناس علمًا أنها نوع من
مؤثرات الإخراج التي تضيف إلى تفسير الغناء ما يزيده وضوحًا.

وكان لا بد من انتظار الفصل الثالث؛ ليستطيع الثنائي الكبير
-المكون من أورفيه وأوريديس (كان ذلك في الوقت الذي تهرب
فيه أوريديس من حبيبها)- أن يسري عن الشهود بنوع من المفاجأة،
ويبدو أن المغني لم يكن ينتظر سوى تلك الحركة من الجمهور، أو لعل
الأصح أن تكون الهمهمة المنبعثة من مقاعد القاعة قد أكدت له ما سبق
أن شعر به، فاختار تلك اللحظة بالذات ليتقدم نحو الحاجز الجانبي
بطريقة مضحكة، وقد تباعدت ذراعه وساقاه كل منهما عن الأخرى،
وهو في زيه العتيق حيث ذرع الأرض بجسمه وسط المقاعد التي يتكون
منها المنظر الخارجي، تلك المقاعد التي لم تكن متناسبة مع زمنها في
يوم من الأيام، وإن كان المشاهدون لم يفتنوا إلى ذلك إلا في هذه
اللحظة لأول مرة وبصورة مروعة؛ وذلك لأنه في نفس الوقت توقفت
الفرقة الموسيقية عن العزف، ونهض متفرجو القاعة، وبدأوا يجلسون
عنها ببطء وسكون في أول الأمر، كما لو كانوا يغادرون إحدى الكنائس
بعد انتهاء القداس، أو المقبرة بعد الزيارة، وكان النساء يجمعن أطراف

ثيابهن وهن يخرجن مطأطئات الرؤوس، والرجال يقودون رفيقاتهم من زنودهن ليجنبوهن الاصطدام بالمقاعد. ولكن الحركة أخذت تزداد عنفاً بالتدريج، وتحول الهمس إلى صيحات تعجب، وتدفقت الجموع نحو أبواب الخروج وهي تتزاحم حتى انتهى بها الأمر إلى التدافع بالأيدي والمناكب، وارتفع صياحها. وكان تارو وكوتار قد نهضا، ولكنهما ظلّا بمفردهما في مكانهما وجهاً لوجه أمام صورة تمثل حياتهم في ذلك الحين؛ ها هو ذا الطاعون على المسرح في صورة ممثل مهرج عديم التوازن، وها هي قاعة المسرح تغص بمظاهر ترف أصبح غير ذي جدوى من مراوح نسيتها صاحباتها، وقطع «دانتلا» تغطي ظهور المقاعد الحمراء.



لقد عمل رامبير خلال الأيام الأولى من شهر سبتمبر بهمة ونشاط إلى جانب ريو، ولم يطلب في مقابل ذلك أن يحصل على عطية في اليوم الذي عزم فيه على مقابلة جونزاليس والشابين أمام مدرسة البنين. وفي ظهر هذا اليوم رأى جونزاليس والصحفي الشابين يقبلان ضاحكين، وقال هذان الأخيران: إن الحظ لم يحالفهما في المرة السابقة، وإن هذا كان أمرًا متوقعًا، وعلى كل حال لم يكن هذا الأسبوع من الأيام التي يتوليان فيها الحراسة، فينبغي الانتظار إلى الأسبوع القادم؛ لكي يبدأ من جديد. وقال رامبير: إن هذا هو التعبير الدقيق عن المسألة، وحينئذ اقترح جونزاليس أن يتقابلوا جميعًا يوم الاثنين التالي، ولكنه رأى أن يقيم رامبير هذه المرة عند مارسيل ولويس إذ قال: «سنضرب موعدًا بيننا نحن الاثنين، فإذا لم أحضر فما عليك إلا أن تذهب رأسًا إلى بيتهما، وسنشرح لك أين يقيمان»، وحينئذ قال مارسيل -أولويس- حينئذ: إنه من الأبسط أن يصحبا رأسًا هذا الرفيق إلى بيتهما، فإنه إذا لم يكن من المرفهين فإن ما عندهما من طعام يكفيهم هم الأربعة، كما أن وجوده بينهما يساعده على أن يكون فكرة واضحة عن الموضوع، وأجاب جونزاليس بأن هذه فكرة جميلة جدًا، وعلى إثر ذلك اتجهوا جميعًا هابطين نحو الميناء.

وكان مارسيل ولويس يقيمان في طرف حي البحرية قرب الأبواب التي تفتح على الكورنيش، وكان بيتهما من تلك البيوت الإسبانية الصغيرة ذات الجدران السمكية والنوافذ الخشبية المطلية، وكانت غرفة عارية ومعتمة، وقد أسرع أم الشابين -وهي إسبانية عجوز ذات وجه باسم مغطى بالتجاعيد- بتقديم شيء من الأرز لهم، ودesh جونزاليس؛ لأن الأرز كان من المواد الغذائية التي لا توجد في المدينة في ذلك الحين، وقال مارسيل: «إننا ندبر أمرنا لدى الأبواب». وأكل رامبير وشرب، وبينما كان جونزاليس يشي عليه قائلاً: إنه رفيق حقيقي، لم يكن الصحفي يفكر إلا في ذلك الأسبوع الذي سيقضيه في هذا المكان.

ولكنه انتظر في الواقع أسبوعين؛ لأن نوبة الحرس كانت قد صارت أسبوعين، وذلك للتقليل من عدد فرق الحراسة. وقد دأب رامبير خلال الخمسة عشر يومًا هذه على العمل المتواصل، وهو شبه مغلق العينين، ابتداء من الفجر حتى حلول الليل، ولم يكن يأوي إلى فراشه إلا في وقت متأخر من الليل، فينام نومًا عميقًا، وكان لانتقاله المفاجئ من البطالة إلى العمل المتواصل أثره في أن يظل عديم الأحلام منهك القوة، كان يتكلم قليلًا عن هربه القادم، ولم يحدث في هذه المرة مما هو جدير بالملاحظة إلا شيء واحد؛ فبعد مضي أسبوع أسر إلى الدكتور أنه كان قد شمل في الليلة الماضية للمرة الأولى، وعندما خرج من الحانة بدا له فجأة أن هناك تضخمًا عند ثنيتي الفخذين، وأن ذراعيه لم تكونا تقويان على الحركة تحت الإبطين إلا بصعوبة، وظن أنه الطاعون، وكان رد

الفعل الوحيد الذي بعث عليه هذا الظن، والذي اتفق هو والدكتور ريو على أنه لم يكن تصرفاً صائباً، هو أن عاد إلى أعلى المدينة، حيث وقف في مكان صغير لا يرى منه البحر، وإن كانت تطل منه بقعة كبيرة من السماء، ودعا زوجته -عبر جدران المدينة- بصرخة كبيرة مدوية. ولما عاد إلى مسكنه، ولم يكتشف على جسمه أي علامة من علامات العدوى، اعتراه الخزي من هذه الأزمة المفاجئة. وأجابه ريو بأنه يقدر جيداً أن يقوم الناس بمثل هذا التصرف، وأضاف قائلاً: «وعلى كل حال قد يحدث أن يجد الناس أنفسهم مندفعين نحو هذا التصرف»، وفجأة استأنف ريو كلامه في الوقت الذي هم فيه رامبير بالانصراف فقال: «لقد كلمني السيد أوتون عنك هذا الصباح، وسألني عما إذا كنت أعرفك، ثم قال لي: انصحه إذن ألا يغشى أوساط المهريين؛ فإن ذلك يلفت أنظار الناس إلى تردده عليهم».

- ما معنى هذا؟

- معناه أنه ينبغي لك أن تسرع.

فأجاب رامبير قائلاً -وهو يشد على يد الطبيب-:

- شكرًا.

وما إن وصل إلى الباب حتى استدار فجأة، فلاحظ ريو أنه يتسم للمرة الأولى منذ بدء الطاعون، ويقول:

- لماذا لا تمنعني من الرحيل، وأنت تملك الوسائل لذلك؟

وهز ريو رأسه بحركة مألوفة منه، وقال: إن هذا من شأن رامبير ما

دام قد اختار السعادة، وإنه -أي ريو- ليس لديه من الحرج ما يجعله يقف في طريقه؛ إذ إنه يشعر بأنه غير قادر على تمييز الخطأ من الصواب في هذا الموضوع.

فسأله رامبير:

- لماذا تطلب مني إذن أن أبادر بالهرب في هذه الظروف؟

وابتسم ريو بدوره، ثم قال:

- قد يكون ذلك لأنني، أنا نفسي، أتوق إلى تقديم بعض الخدمات للسعادة.

وفي اليوم التالي لم يتكلما في أي موضوع، ولكنهما عملاً جنباً إلى جنب، ولم يحن الأسبوع التالي حتى كان المقام قد استقر برامبير في البيت الإسباني الصغير، حيث أعد له سرير في الغرفة المشتركة، ولما كان الشابان لا يعودان إلى البيت لتناول الوجبات، وكانا قد رجوا أن يقلل من الخروج بقدر الإمكان، فقد كان يعيش في البيت بمفرده -في أغلب الأوقات- أو يتحدث مع الأم الإسبانية العجوز، وكانت هذه سيدة جافة نشطة، ترتدي الملابس السوداء، ذات وجه أسمر اللون متجعد تحت شعرها الأبيض النظيف، ولم تكن تتكلم قط، ولكنها كانت إذا نظرت إلى رامبير ابتسمت له بكل ما في عينيها من قوة.

وذات مرة سألته عما إذا كان لا يخشى أن يحمل الطاعون إلى زوجته، فأجابها بأن تصرفه فيه شيء من المخاطرة، ولكنها مخاطرة بعيدة التحقق، وأنه إذا بقي في المدينة فقد يظلان مفترقين إلى الأبد.

وسألته العجوز وهي تبسم:

- أهى لطيفة؟

- لطيفة جدًا.

- وجميلة؟

- أعتقد ذلك.

فقالت: آه! هذا هو السر.

وأخذ رامبير يفكر قائلاً لنفسه: لا شك أن هذا هو السر، ولكن من المستحيل أن يكون هو كل السر.

وعادت العجوز -التي كان من عاداتها أن تذهب إلى الكنيسة كل أسبوع- تسأله من جديد:

- ألا تؤمن بالله؟

واعترف لها رامبير بأنه غير مؤمن، فقالت العجوز مرة أخرى:

- هذا هو السر، يجب أن تلحق بها، إنك محق في ذلك، وإلا فماذا

يبقى لك؟

أما في الأوقات الأخرى، فقد كان رامبير يلف ويدور حول الجدران العارية المتداعية، وهو يتحسس المراوح المثبتة على الحائط بالمسامير، أو يعد كرات الصوف التي تزين أطراف غطاء المائدة، وفي المساء كان الشابان يعودان، فلا يكادان يتكلمان كثيرًا إلا لكي يقولوا له: إن الوقت المناسب لم يحن بعد. وبعد العشاء كان مارسيل يعزف على «الجيتار»، ويشرب شيئًا من كحول الينسون، أما رامبير، فكان يظل مستغرقًا في تفكيره.

وفي يوم الأربعاء، عاد مارسيل إلى البيت وهو يقول: «إن موعدنا غدًا مساءً في منتصف الليل، فاستعد لذلك».

وذلك أن أحد الحارسين اللذين كانا يتوليان الحراسة معهما قد أصيب بالطاعون، أما الآخر، فقد وضع تحت الملاحظة، وهكذا كان مارسيل ولويس سيظلان بمفردهما لمدة يومين أو ثلاثة، فقررا أن يضعا باقي تفاصيل الخطة في أثناء الليل؛ حتى لا يأتي اليوم التالي إلا ويكون كل شيء قد تم. فشكرهما رامبير، وسألته العجوز: «هل أنت مسرور؟»، فأجاب بنعم، ولكنه كان يفكر في شيء آخر.

وفي اليوم التالي كانت الريح ساكنة، والجو حارًا رطبًا خائفًا، وكانت أنباء الطاعون سيئة، ومع ذلك فقد ظلت الإسبانية العجوز محتفظة بصفتها، وكانت تقول: «إن الخطيئة متفشية في العالم، وهذه هي النتيجة الحتمية لذلك».

وكان رامبير، وكذلك مارسيل ولويس، قد جلسوا عاريي الصدور والظهور، ومع ذلك، فقد كان عرقهم يتصبب فيما بين الكتفين، وعلى الصدر، وفي الضوء المعتم في ذلك البيت ذي النوافذ الخشبية المغلقة كان ذلك العرق المتصبب يجعل نصفهم العلوي يبدو قاتمًا لامعًا، وكان رامبير يلف ويدور في البيت دون أن يتكلم، وفجأة في الساعة الرابعة ارتدى ملابسه، وأعلن أنه سيخرج، فقال له مارسيل:

– خذ حذرك فإن موعدنا منتصف الليل، وكل شيء قد أُعِد.

وذهب رامبير إلى بيت الدكتور يسأل عنه، فقالت له أمه: إنه يستطيع أن يعثر عليه في مستشفى أعلى المدينة، وأمام مركز الحراسة كانت

الجموع بعينها تلف وتدور حول نفسها، وكان هناك جاويز مكور المقلتين، يصيح فيهم: «هيا انصرفوا»، فكانوا يسرون ولكن في خط دائري. وصاح الجاويز ثانية -وقد بدت سترته مبللة بالعرق-: «ليس هناك ما يدعو لانتظاركم»، وكان هذا هو رأيهم أيضًا، ومع ذلك فقد ظلوا ينتظرون رغم الحر القاتل.

وأظهر رامبير جواز مروره للجاويز، فدلّه على مكتب تارو، وكان باب المكتب يطل على الفناء، فتقابل في طريقه إليه مع الأب بانلو وهو خارج من المكتب.

في حجرة صغيرة قدرة مطلية باللون الأبيض تنبعث منها رائحة العقاقير والأغطية الرطبة، كان تارو يجلس خلف مكتب من الخشب الأسود، وقد شمر أكمام قميصه، وراح يجفف بمنديله العرق الذي يسيل على ذراعه، وقال حين لمح رامبير:

- أما زلت هنا؟

- نعم، وأريد التحدث إلى ريو.

- إنه في قاعة الكشف، ولكن من المستحسن أن تسوي الأمر من دونه.

- لماذا؟

- لأنه مجهد، وأنا أود أن أجنبه ما أستطيع تجنبه إياه من جهد.

وأخذ رامبير يحدق النظر في تارو، وكان هذا الأخير قد هزل، وغض التعب عينيه وملامحه، وتكورت كتفاه الممتلئتان حتى أصبحتا كالكرتين

الصغيرتين، وفي هذه الأثناء سُمعت دقات على الباب، ثم دخل أحد
المرضين وقد غطى وجهه بقناع أبيض، ووضع على مكتب تارو لفافة
تحتوي على أوراق البطاقات، وقال بصوت يحجبه نسيج القناع:

«إنها ست»، ثم انصرف، ونظر تارو إلى الصحفي، وأراه البطاقات
التي بسطها أمامه كالمروحة، ثم قال:

- إنها بطاقات جميلة، أليس كذلك؟ ولعمري إنها ليست كذلك في
الحقيقة، فهي خاصة بالموتى، موتى الليل.

كان يقول ذلك وقد تجوفت جبهته، ثم أعاد طي لف البطاقات، وهو
يقول:

- إن الشيء الوحيد الذي ينقصنا هو المحاسبة.

ثم نهض وهو يتكئ على المائدة، وسأل:

- هل سترحل قريباً؟

- هذا المساء في منتصف الليل.

فأجاب تارو بأن هذا يسره، وأوصاه بأن يعنى بنفسه.

فقال رامبير:

- أتقول هذا مخلصاً؟

ورفع تارو كتفيه، وقال:

- في مثل سني لا يمكن للمرء إلا أن يكون مخلصاً، فإن الكذب
حملة ثقيل.

وقال الصحفي:

- أرجو معذرتك يا تارو، فإني أريد رؤية الدكتور.

- أعرف ذلك، فالناحية الإنسانية عنده أقوى منها عندي. هيا بنا.

ونظر إليه تارو، وابتسم له فجأة.

وانطلقا في دهليز صغير قد طُليت جدرانها باللون الأخضر الفاتح، وانبعث فيه ضوء خافت، وقبل أن يبلغا بابًا زجاجيًا مزدوجًا تشاهد من خلفه حركة ظلال ملفتة للنظر، أدخل تارو رامبير في غرفة صغيرة جدًا قد غطيت جدرانها جميعًا بدواليب الحوائط؛ ففتح إحداها، وأخرج من إحدى أجهزة التعقيم قناعين من نسيج قطني رقيق، فقدم أحدهما إلى رامبير، ودعاه إلى أن يغطي به وجهه، وسأله الصحفي عما إذا كان ذلك ذا جدوى، فأجابه بالنفي، ولكنه عقب بأن ذلك يوحى بالثقة إلى الآخرين.

ودفعا الباب الزجاجي، فانفرج عن قاعة فسيحة ذات نوافذ قد أُغلقت بإحكام رغم حرارة الجو، وفي أعلى الجدران كان يُسمع حفيف أجهزة التهوية التي كانت مراوحها المعقوبة تدفع الهواء شديد الحرارة فوق صفيين من الأسرة الرمادية اللون، ومن كل ناحية كانت تتصاعد الأنات المكتومة الحادة، فتتجمع مكونة شكوى واحدة ذات نغمة رتيبة، وكان هناك بعض الرجال في ملابس بيضاء يتنقلون ببطء تحت الأضواء الفجة المنصبة من فتحات عادية قد غطيت بالقضبان، وشعر رامبير بالضيق من وطأة الحرارة الخانقة في تلك القاعة، ولم يتعرف على ريو إلا بصعوبة، حينما رآه محنيًا على هيكل يئن؛ فقد كان منهمكًا في فتح خرايج فوق

الفخزين لأحد المرضى، بينما وقف اثنان من الممرضين بجانب السرير، وأمسك كل منهما بإحدى فخذي المريض لإبعادها عن جسمه، وبعد برهة نهض الطبيب واقفاً، وألقى بآلاته على الصحيفة التي كان يمسكها أمامه أحد مساعديه، وبقي لحظة دون حركة ينظر إلى الرجل الذي أخذ المساعدون في تضميد جراحه.

وقال لتارو - وهو يتقدم نحوه -:

- هل من جديد؟

فأجاب:

- إن پانلو قد وافق على أن يحل محل رامبير في بيت الحجر الصحي، وقد بذل حتى الآن مجهوداً كبيراً، فتبقى الفرقة الثالثة الخاصة بالمراقبة حيث يتطلب الأمر إعادة تكوينها من دون رامبير.

وأوما ريو برأسه موافقاً.

وواصل تارو كلامه قائلاً:

- لقد انتهى كاستل من إتمام مستحضراته الأولى، ويقترح القيام بتجربتها.

وصاح ريو:

- آه! هذا حسن.

- وأخيراً، ها هو ذا رامبير.

واستدار ريو، وما إن لمح رامبير حتى تكسرت جفون عينيه من فوق القناع، وقال:

- ماذا تفعل هنا، كان ينبغي أن تكون الآن في مكان آخر.
وأجاب تارو بقوله: «إن الأمر سيتم هذا المساء في منتصف الليل».
فأضاف رامبير: «هذا هو المفروض».

وكانوا كلما تكلم أحدهم، أخذ القناع الرقيق ينتفخ، ويبتل في مكان الفم، وكان ذلك يضيف على المحادثة جواً بعيداً عن جو الحقيقة، كما لو كان الحديث يدور بين تماثيل، وقال رامبير:

- إنني أرغب في التحدث إليك.
- سوف نخرج معاً، لو كنت تريد ذلك حقاً. انتظرني في مكتب تارو.
وبعد قليل كان رامبير وريو قد اتخذا مكانيهما على المقعد الخلفي لعربة الدكتور، بينما تولى تارو القيادة.
وقال هذا الأخير وهو يبدأ سيره:

- لقد نفذ وقود السيارات، وغداً سنطوف سيراً على أقدامنا.
وقال رامبير:

- إنني لن أرحل، بل أريد البقاء معكم.
ولم تهتز خلجة واحدة من خلجات تارو، واستمر في القيادة. وبدأ ريو وكأنه لا يستطيع أن يتغلب على ما يشعر به من تعب، فقال بصوت مكتوم:

- وهي؟
وأجاب رامبير أنه قد فكر في الأمر ملياً، وأياً كانت هواجسه، فإنه

لو رحل لخبجل من نفسه، ولعاقه ذلك عن حب من تركها. ولكن ريو اعتدل في جلسته، وقال بصوت حازم:

- إن هذا عناء، ولا ينبغي له أن يخبجل لأنه فضل السعادة.

وأجاب رامبير:

- نعم، ولكن قد يكون مخجلًا أن يكون المرء سعيدًا بمفرده.

أما تارو الذي كان قد ظل صامتًا حتى تلك اللحظة، ولم يدر رأسه ناحيتهما، فقد قال -ملاحظًا-: إنه لو أراد رامبير اقتسام شقاء الناس، فإنه لن يحصل أبدًا على وقت للسعادة، وأن عليه أن يختار.

وقال رامبير:

- ليست هذه هي المسألة. لقد كنت دائمًا أفكر أنني غريب عن هذه المدينة، وأني لا شأن لي بكم، ولكنني الآن -بعد أن رأيت ما رأيت- عرفت أنني من هنا، سواء رضيت أم لم أرض. إن هذه المسألة تخصنا جميعًا.

ولم يجب أحد بشيء، فشعر رامبير بشيء من نفاد الصبر، وقال:

- وأيًا ما كان، فإنكما تعرفان ذلك، وإلا فماذا تعملان في هذا

المستشفى؟ هل عقدتما أنتما الاختيار وعدلتما عن السعادة؟

ولم يجب كل من ريو وتارو بشيء -للمرة الثانية- وساد الصمت فترة طويلة، حتى اقتربوا من بيت الدكتور، ووجه رامبير سؤاله الثالث بمزيد من القوة، وحينئذ لم يلتفت ناحيته إلا ريو الذي نهض وهو يبذل جهدًا كبيرًا، ثم قال:

- أرجو معذرتك يا رامبير، ولكنني لا أدري. ابقى هنا ما دمت تريد

البقاء.

ودارت السيارة فجأة، فتوقف ريو عن الكلام، ثم استطرد -وهو ينظر أمامه-:

- ليس هناك في الدنيا ما يعوض البعد عما نحب، ومع ذلك فأنا أيضًا أبتعد دون أن أدري سببًا لذلك.

ثم ألقى بنفسه على الوسادة، وقال والتعب يبدو عليه:

- هذه هي الحقيقة. هذا كل ما في الأمر، فلنسجلها ونستخرج منها نتائجها.

وسأل رامبير:

- أي نتائج؟

وأجابه ريو:

- إن المرء لا يستطيع أن يعالج ويعرف في وقت واحد؛ فلنعالج بأسرع وقت ممكن، هذا هو الأمر الملح الآن.

وعند منتصف الليل أعد تارو ورامبير خطة الحي الذي كلف بمراقبته، ولما نظر تارو إلى ساعته، ورفع رأسه التقت عيناه بعيني رامبير، وقال:

- هل أخبرتهم؟

وأدار الصحفي عينيه، وقال بجهد:

- لقد تركت لهم كلمة صغيرة قبل أن أحضر لزيارتكما.

لم تتم تجربة مصل (كاستل) إلا في الأيام الأخيرة من أكتوبر، وقد كان ذلك المصل أمل ريو الأخير من الناحية المهنية، وكان الدكتور مقتنعاً بأنه لو وقع فشل جديد لاستسلمت المدينة لنزوات المرض، سواء امتد أثر الوباء لمدة أشهر طويلة أخرى، أم توقف دون سبب.

وفي عشية اليوم الذي أتى فيه كاستل لزيارة ريو كان ابن السيد أوتون قد أُصيب بالمرض، ولحقت كل الأسرة بالحجر الصحي، وهكذا ألفت الأم نفسها وقد عُزلت للمرة الثانية؛ إذ إنها لم تكن قد غادرت الحجرة إلا منذ قليل، ولما كان القاضي يحترم تعليمات السلطات، فقد سارع إلى دعوة الدكتور ريو بمجرد أن تعرف على علامات المرض بجسم ابنه، ولما حضر ريو كان الأب والأم واقفين عند نهاية الفراش، أما الفتاة الصغيرة، فكانت قد أبعدت. كان الطفل في حالة الإنهاك الأولى، فترك الطبيب يفحصه دون أن تبدر منه أي شكوى، ولما رفع الطبيب رأسه التقت عيناه بعيني القاضي، ومن خلفه وجه الأم الشاحب، وقد وضعت منديلاً على فمها، واتسعت حدقتها، وأخذت تتبع حركات الطبيب.

وقال الأب بصوت فاطر:

- إنه هو، أليس كذلك؟

وأجاب ريو، وهو ينظر إلى الطفل من جديد:
- نعم.

واتسعت عينا الأم، ولكنها ظلت ملازمة للصمت، وصمت القاضي
كذلك برهة، ثم قال بصوت منخفض:

- حسن يا دكتور، ينبغي أن تتبع التعليمات.

وكان ريو يتجنب النظر إلى الأم التي ظلت ممسكة بمنديلها فوق
فمها، فقال بلهجة المتردد:

- إن ذلك يتم في وقت أسرع لو استطعت أن أتحدث بالتليفون.

وقال السيد أوتون إنه سيقوده إلى التليفون، ولكن الطبيب التفت
نحو السيدة، وقال:

- إني آسف، ينبغي أن تعدي بعض الأشياء، وأنت تعرفين ما هي.

ارتج على السيدة أوتون، وغضت بصرها، ونظرت إلى الأرض، ثم
قالت -وهي تهز رأسها-:

- هذا ما سوف أعمله الآن.

وقبل أن يغادرهم ريو لم يستطع أن يمنع نفسه من سؤالهم عما
إذا كانوا في حاجة إلى شيء، وكانت المرأة تنظر إليه في صمت، أما
القاضي، فقد أشاح هذه المرة عنه بنظره، وقال:

- كلا. ثم بلع ريقه وأضاف:

- ولكن انقذ طفلي.

أما الحجر الصحي الذي لم يكن في أول الأمر سوى إجراءات شكلية بسيطة، فقد أتم ريو ورامبير تنظيمه بطريقة غاية في الدقة، وقد وجها اهتمامهما الخاص نحو وجوب عزل أفراد الأسرة الواحدة بعضهم عن بعض، حتى إذا كان أحد هؤلاء الأفراد قد أصيب بالعدوى دون أن يدري، لم يصبح حظ الأسرة من المرض مضاعفًا، وشرح ريو هذه الأسباب للقاضي فوجدها وجيهة، ومع ذلك فقد نظر إلى زوجته، ونظرت زوجته إليه بطريقة جعلت الدكتور يشعر بمدى ما يشعران به من هلع لهذا الفراق، وأمكن إيواء السيدة أوتون وابنتها في الحجر الصحي الذي يديره رامبير، أما القاضي، فلم يكن له مكان سوى معسكر العزل الذي كانت الإدارة في سبيل إقامته على ملعب البلدية بواسطة خيام استعارتها من مصلحة الطرق، وقد اعتذر له ريو عن ذلك، ولكن السيد أوتون أجابه بأنه ليست هناك إلا قاعدة واحدة للجميع، وأنه من العدل أن يطيعها الناس.

أما الطفل فقد نُقل إلى المستشفى المساعد في قاعة قديمة من قاعات الدرس قد صُفت بها عشرة أسرة. وبعد نحو عشرين ساعة حكم ريو على حالته بأنها ميؤوس منها؛ فقد استسلم جسمه الصغير للجراثيم دون أي مقاومة، وأخذت عقد صغيرة مؤلمة تتكون، وتسد مفاصل أطرافه الناحلة، فقد كتبت له الهزيمة مقدمًا. لهذا خطرت لريو فكرة تجربة مصل كاستل عليه. وفي مساء اليوم نفسه -بعد العشاء- تمت تجربة الحقن الطويل على الطفل دون أن يبدو أي «رد فعل»، وفي فجر اليوم التالي حضر الجميع حول الغلام الصغير؛ لكي يشاهدوا مفعول تلك التجربة الفاصلة.

وخرج الطفل من غيبوبته وأخذ يتلوى في تشنج تحت أغطيته. وكان الدكتور كاستل وتارو يجلسان بجواره منذ الرابعة صباحًا وهما يتتبعان -خطوة فخطوة- تقدم المرض أو فترات توقفه. وعند رأس السرير وقف تارو وقد أحنى قامته بعض الشيء، وعند قدم الفراش كان كاستل يجلس قرب ريو الذي ظل واقفًا، وكاستل يقرأ كتابًا قديمًا وقد بدت عليه كل مظاهر الهدوء. ومع تقدم النهار في قاعة الدرس القديمة تلك توالى -شيئًا فشيئًا- حضور الآخرين. وكان أول القادمين پانلو الذي جلس أعلى الطرف الآخر من السرير في مقابلة تارو، وأسند ظهره إلى الجدار، وكان وجهه يعبر عن الألم الدفين، والجهد المضني الذي يبذله من جسمه طوال الأيام الماضية والذي سطر التجاعيد على جبينه المنقبض.

وحضر جوزيف جران بدوره، حيث كانت الساعة قد بلغت السابعة، وأخذ هذا الموظف يعتذر من أنه كان يلهث. لم يكن في نيته أن يمكث سوى لحظة، فقد جاء يسأل عما إذا كانوا يعرفون -في هذا الوقت- معلومات محددة عن الحالة. ودون أن يفوه ريو بكلمة أراه الطفل بوجهه المختلط الملامح، وعينييه المقفلتين، وأسنانه التي كان يضغط عليها بكل ما فيه من قوة، وجسمه الراقد بلا حراك وهو يلف رأسه ويديره من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين على الوسادة العارية. ولما سطع نور النهار أخيرًا، وأصبح في مقدورهم أن يروا السبورة المعلقة في نهاية القاعة، والتي ظلت في مكانها، وأن يتبينوا عليها آثار بعض العلامات الحسابية حضر رامبير، فأسند ظهره إلى ظهر السرير المجاور، وأخرج علبة سجائره، ولكنه ما كاد يلقي نظرة على الطفل حتى أعادها إلى جيبه.

وكان كاستل لا يزال جالسًا ينظر إلى ريو، فسأله من فوق نظارته:

- هل لديك أخبار عن الأب؟

وقال ريو:

- كلا، إنه في معسكر العزل.

وكان الدكتور يضم حاجز السرير الذي يثن فوقه الطفل بقوة ولا يفارق نظره المريض، وقد تصلب المريض فجأة، وضم أسنانه بشدة من جديد وتقوس جسمه عند الوسط، وراحت أطرافه تبتعد عن جسده بالتدريج، وكانت رائحة الصوف المختلط بالعرق تفوح من ذلك الجسد الصغير العاري تحت الغطاء العسكري، ثم أخذ الطفل يسترخي تدريجيًا وأعاد ذراعيه إلى وسط السرير، وظل مغمض العينين مطبق الفم، وبدا أن تنفسه قد ازداد سرعة، وتصادف أن التقت عينا ريو بعيني تارو، فأشاح هذا الأخير بعينه.

لقد شاهدا من قبل أطفالًا يموتون، فإن الهول الذي بدأ منذ أشهر لم يكن يتعب نفسه في الاختيار، ولكن لم يحدث قط لهما أن تتبعا آلام الضحايا دقيقة بدقيقة كما يفعلان الآن منذ الصباح. ولا شك أن الآلام التي صبتها الأقدار على هؤلاء الأبرياء لم تكف يومًا عن الظهور في أذهانهم بمظهرها الحقيقي، أي على أنها فضيحة. ولكنهما -حتى الآن على الأقل- كانا يشعران بتلك الفضيحة بصورة تجريدية على نحو ما؛ لأنهما لم يكونا قد رأيا أبدًا عن قرب ولمدة طويلة احتضار أحد الأبرياء. وفي تلك اللحظة أخذ الطفل يتلوى من جديد، كما لو كانت أفعى

قد عضته في معدته، وراح يئن أنيناً خافتاً.

وظل هكذا ثواني عديدة، غائر الجسم فريسة للعرشة والاهتزازات التشنجية كما لو كان هيكله الواهي ينحني تحت ضغط ريح الطاعون العاتية ويتحطم تحت نوبات الحمى المتكررة. وانتهت تلك الأزمة، وبدأ الطفل يسترخي قليلاً، وبدأ أن موجة الحمى قد انسحبت وتركته يلهث على شاطئ رطب مسمم قد تشابهت فيه الراحة والموت، ولما عاودته موجة الحمى من جديد للمرة الثالثة، وبعثت في جسمه شيئاً من الاضطراب، كور الطفل جسمه، وتراجع إلى نهاية الفراش وسط آلام اللهب الذي يحرقه، وأخذ يهز رأسه في جنون وهو يقذف بغطائه بعيداً عنه، وتدفقت الدموع الغزيرة من بين جفونه الملتهبة، وأخذت تسيل على وجهه الجامد.

وفي نهاية الأزمة كانت قد خارت كل قواه، فضم ساقيه اللتين برز العظم منهما وذراعيه اللتين ذاب ما عليهما من لحم خلال هذه الساعات الثماني والأربعين، وبدأ وسط سريره المخرب كما لو كان مصلوباً غريب الشكل.

وانحنى تارو، ومسح بيده الثقيلة ذلك الوجه الصغير الذي بلله العرق والدموع، وكان كاستل قد أغلق كتابه منذ لحظة، وأخذ ينظر إلى المريض، وبدأ يتكلم، ولكن صوته انحبس فجأة، فراح يتكلف السعال لكي يستعيد قدرته على النطق.

- لم تكن هناك أي هدنة في الصباح يا ريو، أليس كذلك؟

وأجاب ريو بالنفي، ولكنه أضاف قائلاً: إن الطفل قد قاوم مدة

أطول من المعتاد. وكان پانلو يبدو كأنه يتكىء على الجدار، فقال بصوت مكتوم:

- إذا قدر له أن يموت، فإنه سيكون قد عانى من العذاب أكثر مما عانى غيره.

فاستدار ريو نحوه فجأة، وفتح فمه يريد الكلام، ولكنه توقف وبدأ كما لو كان يبذل مجهودًا واضحًا لكي يسيطر على نفسه، ثم أعاد بصره إلى الطفل.

وازداد النور في القاعة، وكان هناك على الأسرة الخمسة هياكل تتحرك وتتن، ولكن بخفوت يشبه أن يكون متفققاً عليه. أما الشخص الوحيد الذي كان يصيح في النهاية الأخرى للقاعة، فكان يرسل -على فترات منتظمة- صيحات صغيرة تعبر عن الدهشة أكثر مما تعبر عن الألم. وبدأ -حتى للمرضى أنفسهم- أن الخوف المروع الذي عرفه الناس في أول الأمر قد اختفى، بل لقد أخذوا يشعرون بنوع من الرضى في طريقة تقبلهم للمرض؛ وذلك فيما عدا الطفل الذي كان يتخبط بكل قواه. وكان ريو، الذي كان بين الفينة والفينة يحس بنبض الطفل حتى ولو لم تكن هناك ضرورة لذلك، بل وربما لم يكن الدافع إليه إلا الخروج من حالة الجمود العاجز التي كان فيها، كان ريو يشعر وهو يغلق عينيه أن اضطراب الطفل يختلط بحركة دمه هو؛ فقد امتزج إذن بالطفل المعذب، وراح يحاول أن يسانده بكل قوته التي احتفظ بها كاملة حتى الآن، ولكن دقائق قلبيهما لم تكن تتحد لحظة حتى تعود للانفصال، فيحس أن قد أفلت منه زمام الطفل

وذهب مجهوده هباء، وحينئذ كان يترك المعصم الضعيف الذي
يمسك به ويعود إلى مكانه.

وكان الضوء يغير لونه من الوردي إلى الأصفر على طول الجدران
المطلية بالجير، فقد بدأ صباح قائظ يتأجج بالحرارة، ولم يكن أحد
يشعر بجرا ن وهو يغادرهم قائلاً: إنه سوف يعود؛ كان الجميع في حالة
انتظار. وبدأ الطفل -الذي ظلت عيناه مغلقتين- كما لو كان قد هدأ
بعض الشيء، وراحت يده اللتان أصبحتا تشبهان المخالب تعبان
بلطف في جوانب السرير، إلى أن صعدتا وأخذتا تحكان الغطاء قرب
الركبتين. وفجأة ثنى الغلام ساقيه وقرب فخذه من بطنه، وتوقف عن
الحركة، وحينئذ فتح عينيه للمرة الأولى، ونظر إلى ريو الذي كان واقفاً
أمامه، ثم فتح فمه في تجويف وجهه الذي غدا بلون الطفل الرمادي،
وفي الحال خرجت منه صيحة واحدة مستمرة لا يكاد يقطع تنفسه
من رتابتها، فملأت القاعة بنوع من الاحتجاج الرتيب -غير منسجم
النبرات- الذي لا يكاد يشبه الاحتجاج البشري حتى بدا كما لو كان
صادرًا من جميع بني البشر. وعض ريو على أسنانه، وأشاح تارو بوجهه
عن الغلام، واقترب رامبير من الفراش قرب كاستل الذي أغلق الكتاب
بعد أن كان يحتفظ به مفتوحًا فوق ركبتيه، ونظر پانلو إلى فم الطفل
وقد تلوث بالمرض وامتلاً بصيحة، هي صيحة الناس جميعاً من جميع
الأعمار، وترك نفسه ينزلق جاثياً على ركبتيه. وكان من الطبيعي أن
يتوقع الجميع أن يسمعه ينادي بصوت مختنق بعض الشيء وإن كان
واضح النبرات، ويقول -من خلف الشكوى العامة التي لا تنقطع-:

«إلهي ! أنقذ هذا الطفل».

ولكن الطفل استمر يصرخ، وبدأ الاضطراب يسود المرضى من حوله. أما هذا الشخص الذي لم تنقطع صيحاته في الطرف الآخر للقاعة، فقد تلاحقت نعمة شكواه، وازدادت سرعة حتى تحولت هي الأخرى إلى صرخة، في حين أخذ الآخرون يئنون بصوت يزداد حدة. وهكذا اجتاحت القاعة موجة من الصراخ غطت على صلاة پانلو. وكان ريو يقف متعلقاً بحاجز السرير، فأغلق عينيه وقد أثمله التعب والاشمئزاز، وحينما فتح عينيه وجد تارو بجواره، وقال له:

- ينبغي أن أذهب، فلم أعد أحتمل.

وفجأة صمت المرضى الآخرون، وعرف الطبيب حينئذ أن صرخة الطفل قد ضعفت، واستمرت تضعف بالتدريج، وأنها قد توقفت الآن. وعادت الأنات من حوله ثانية، ولكن بصوت مكتوم كما لو كانت صدى بعيداً لذلك الصراع الذي انتهى الآن. ذلك أن الصراع قد انتهى.

وكان كاستل قد انتقل إلى الناحية الأخرى من السرير، وقال: «لقد انتهى الأمر». وكان الطفل يرقد في تجويف الأغشية المبعثرة وقد فغر فمه الصامت، وضمّر حجمه فجأة، بينما بقيت بعض آثار الدموع على وجهه.

واقترب پانلو من الفراش، وقام بحركات التبريك، ثم جمع أطراف ثوبه وخرج من الممر الرئيس. واتجه إلى كاستل، وسأله قائلاً: «هل يجب البدء من جديد؟».

وهز الطبيب الهرم رأسه، وقال بابتسامة كلها غصون:

- ربما، إنه على أي حال قد قاوم طويلاً.

وكان ريو قد غادر القاعة بخطى سريعة، وقد بدا في هيئته ما جعل پانلو يمسك بذراعه وهو يمر به، ويقول له:

- هيا، يا دكتور.

والتفت إليه ريو في نفس هذه الحركة المحمومة، وألقى في وجهه بهذا الكلام العنيف:

- أما هذا، على الأقل، فإنه كان بريئاً؛ وأنت تعرف ذلك جيداً!

ثم استدار من جديد، وعبر باب القاعة قبل پانلو، وواصل سيره حتى نهاية فناء المدرسة. وهناك جلس على مقعد بين الأشجار الصغيرة المغبرة ومسح العرق الذي تصبب على عينيه، وكانت به رغبة في الصراخ لكي يفك العقدة التي تطحن قلبه. وفي هذه الأثناء كان القيظ يهبط ببطء بين أغصان الأشجار، وتغطت السماء -التي بدت زرقاء في ذلك الصباح- بسحابة مبيضة جعلت الجو أشد خنقاً للنفوس. وترك ريو لنفسه العنان على مقعده، وأخذ ينظر إلى الأغصان وإلى السماء حتى عاد إليه تنفسه الطبيعي بالتدريج، واستطاع شيئاً فشيئاً أن يزدرد ما يشعر به من نصب، وفجأة سمع صوتاً من خلفه يقول:

- لماذا خاطبتني بهذه اللهجة الغاضبة؟ إن هذا المشهد كان فوق احتمالي أنا أيضاً.

واستدار ريو ناحية پانلو، وقال:

- هذا صحيح، أرجو معذرتك، ولكن التعب نوع من الجنون، وإنه لتمر بي ساعات في هذه المدينة لا أشعر فيها إلا بالثورة التي تملأ نفسي. وتمتم پانلو:

- إني أفهمك جيدًا. إن هذا يدعو للثورة؛ لأنه يتجاوز إدراكنا، ولكن قد يكون من الضروري أن نحب ما لا نستطيع فهمه. وهنا انتصب ريو مرة أخرى، وأخذ ينظر إلى پانلو بكل ما لديه من قوة وعاطفة، وراح يهز رأسه ويقول:

- لا أيها الأب، إن فكرتي عن الحب بعيدة عن ذلك، وسأظل حتى الممات أرفض أن أحب هذا العالم الذي يُلقي فيه بالأطفال تحت عجلات التعذيب.

ومرت بوجه پانلو سحب مضطربة من الظلال، وقال في نغمة حزينة:
- آه يا دكتور، لقد فهمت الآن فقط ما يسمونه بالفضل الإلهي.

ولكن ريو ألقى بنفسه من جديد على مقعده، وأجاب من أعماق الشعور بالتعب الذي عاد إليه، وبصوت أكثر رقة:

- وهذا ما لم يوهب لي، إني أعرف ذلك. ولكني لا أرغب في مناقشة هذا الأمر معك؛ فنحن نعمل معًا في أمر يجمعنا على ما هو أهم من الابتهال والتجديف، وهذا فقط هو المهم.

وحينئذ جلس پانلو بجوار ريو والتأثر بادِّ عليه، ثم قال له:

- نعم، فأنت أيضًا تعمل من أجل خلاص الإنسان.

وحاول ريو أن يتسّم، وهو يقول:

- خلاص الإنسان! هذه كلمة كبيرة جدًا بالنسبة لي، فأنا لا أذهب بعيدًا إلى هذا الحد. إن صحته فقط هي التي تهمني، صحته أولاً وقبل كل شيء.

وتردد پانلو بعض الشيء، ثم بدأ يقول:

- يا دكتور...

ولكنه توقف عن الكلام، وبدأ العرق يتصبب على جبينه هو الآخر، ثم تمتم قائلاً:

«إلى اللقاء». ونهض والبريق ينبعث من عينيه، وقد هم بالانصراف عندما نهض ريو بدوره -بعد أن كان مستغرقًا في التفكير- وخطا خطوة نحوه، وقال:

- أرجو معذرتك مرة أخرى، فهذا الانفجار لن يتجدد مرة ثانية.

ومد له پانلو يده بحزن، وقال:

- ومع ذلك فياني لم أتمكن من إقناعك.

وأجاب ريو:

- هذا لا يهم؛ فإن ما أكرهه هو الموت والشر، وأنت تعرف ذلك جيدًا، وسواء أردت ذلك أم لم ترده، فنحن هنا جنبًا إلى جنب لنقاسي منهما، ونقاومهما.

وظل ريو ممسكًا بيد پانلو، وقال وهو يتحاشى التقاء نظريتهما:

- ها أنت ترى جيدًا، إن الله نفسه لا يستطيع الآن أن يفرق بيننا.

منذ أن التحق پانلو بالمنظمات الصحية، لم يغادر المستشفيات، ولا الأماكن التي يلتقي الناس فيها بالطاعون، وقد اتخذ مكانه بين رجال الإنقاذ في الصف الذي رأى أنه جدير به وهو الصف الأول، ولم تكن مشاهد الموت حوله بالقليلة، كما أنه كان من المفروض أنه حصن ضد المرض بالمصل الواقى، ولكن فكرة احتمال موته هو أيضًا، لم تكن غريبة عنه على الرغم من ذلك. وكان قد ظل محتفظًا بهدوئه الظاهري حتى ذلك اليوم الذي وقف فيه طويلاً يشاهد الطفل وهو يصارع الموت، فمنذ ذلك الحين بدا عليه شيء من التغيير؛ فكانت تُقرأ على وجهه علائم التوتر المتزايد.

وفي ذات يوم قال لريو -وهو يتسم -: إنه يعد الآن بحثًا قصيرًا موضوعه «هل لرجل الدين أن يستشير الطبيب؟»، فخيل إلى الدكتور أن الأمر يتعلق بما هو أكثر خطورة مما عبر عنه پانلو، ولما أبدى ريو رغبته في أن يطلع على هذا البحث، أعلن له پانلو أنه سوف يلقي وعظًا في قداس الرجال، وبهذه المناسبة سوف يعرض على الأقل بعض وجهات نظره، وقال:

- إنني أود أن تحضر هذا الوعظ يا دكتور، فإن الموضوع يهكم.

والقى الأب وعظه الثاني هذا في يوم ربح عاصف. والحقيقة أن صفوف الحاضرين كانت أقل ازدحامًا منها في يوم الوعظ الأول؛ ذلك لأن هذا النوع من المشاهد لم يعد له رونق الجدة في أعين مواطنينا. هذا إلى أن صفة «الجدة» كانت قد فقدت في الظروف العسيرة التي كانت تجتازها المدينة، وأيًا ما كان، فإن معظم الناس -إذا لم يكونوا قد هجروا واجباتهم الدينية هجرانًا كليًا، أو إذا كانت تلك الواجبات نفسها لم تعد تنسجم مع الحياة الشخصية الشديدة العبث التي راحوا يحيونها- كانوا قد أحلوا الخرافات محل الفرائض الدينية العادية، فكانوا يفضلون عن طيب خاطر أن يلبسوا الأحجية الحافظة، أو تعاويز القديس روش على أن يذهبوا للمشاركة في القداس.

ومن أمثلة ذلك مبالغتهم في اللجوء إلى التنبؤات، فقد حدث في الربيع أن انتظر الناس نهاية المرض من لحظة لأخرى؛ لذلك لم يحاول أحدهم أن يطلب أي معلومات دقيقة عن مدة بقاء الوباء، ما دام الناس جميعًا قد اقتصروا بأنه لم يعد له بقاء، ولكن مع مرور الأيام بدأ الناس يخشون ألا تكون له نهاية حقًا، وحينئذ غدا توقف الوباء موضوع آمالهم جميعًا، فكنتم تراهم يتداولون -من يد إلى أخرى- كتب النبوءات المختلفة التي ينسبونها إلى الأولياء أو القديسين التابعين للكنيسة الكاثوليكية، وتنبه بعض الناشرين في المدينة إلى الفائدة التي يمكنهم جنيها من بيع هذه النبوءات، فطلبوا على الفور نسخًا عديدة من الكتب المتداولة، ولما لاحظوا أن الاستطلاع لدى الجمهور لا يرتوي،

أخذوا يبحثون في مكتبات البلدية عن كل وثيقة من هذا القبيل يمكن أن تدلهم عليها أخبار التاريخ العامي لكي ينشروها في المدينة، ولما نضب معين التاريخ نفسه عن تقديم هذه النبوءات لجأ الناشرون إلى استكتاب الصحفيين الذين أثبتوا أنهم في هذا الموضوع -على الأقل- لا يقلون جدارة عن أقرانهم في العصور الماضية.

بل لقد نشرت بعض هذه النبوءات في الصحف بطريقة سلسلة وكان الناس يقرأونها بلهفة لا تقل عن تلهفهم على قراءة القصص العاطفية التي يتلهف الناس عليها في الصحف أيام الصحة، وكانت بعض هذه النبوءات تستند إلى عمليات حسابية غريبة يدخل فيها تاريخ السنة التي وقع فيها الوباء، وعدد ضحاياه، وعدد الأشهر التي مرت عليهم تحت عهد الطاعون. وأخذ آخرون يعقدون المقارنات بين هذا الوباء وأوبئة الطاعون الأخرى التي يذكرها التاريخ ويبينون ما بينهما من وجه الشبه (الذي تسميه النبوءات وجه الشبه الثابت)، وبعمليات حسابية لا تقل غرابة عن سابقتها يدعون استنباط معلومات تتعلق بالتجربة التي يمرون بها حاليًا، ولكن النبوءات التي حظيت بتقدير الجمهور أكثر من غيرها كان دون جدال تلك التي تعلن -في لغة غامضة- سلسلة من الأحداث التي يستطيع أي واحد منها أن ينطبق على الحدث الذي يهز المدينة، ويساعد ما يحويه من تعقيد على قبول جميع التأويلات، وهكذا راحوا يستشيرون نبوءات «نوستراداموس»^(١)، والقديسة أوديل» يوميًا، وفي كل يوم كانوا يحصلون على نتائج طيبة،

(١) منجم مشهور، وصاحب مؤلف في النبوءات المترجمة (١٥٠٣-١٥٦٦).

وكان الطابع الغالب على هذه النبوءات أنها كانت جميعاً مطمئنة، ولم يكن هناك شيء غير مطمئن سوى الطاعون.

أصبحت هذه الخرافات تحتل مكان الدين عند مواطنينا، ولذا لم يشغل الجمهور الذي حضر وعظ پانلو من قاعة الكنيسة غير ثلاثة أرباعها، وقد حضر ريو في ليلة الوعظ هذه حيث كان الهواء يمر في صورة شباك من خلال أبواب الدخول (المواربة) ويتجول بين الحاضرين كما يشاء. وهكذا اتخذ ريو مكانه في كنيسة باردة صامتة وسط جمع من الحاضرين كلهم من الرجال، وقد رأى الأب پانلو يصعد المنصة، وأخذ هذا الأخير يتكلم بلهجة أكثر هدوءاً أو تروياً مما كانت عليه في المرة الأولى. وقد لاحظ الحاضرون عدة مرات أن طريقة كلامه يشوبها شيء من التردد، وأغرب من ذلك، أنه لم يكن يقول: «أنتم»، بل «نحن».

ومع ذلك، فقد أخذ صوته يزداد ثباتاً بالتدرج، وقد بدأ بأن ذكر الناس أن الطاعون يقيم بيننا من أشهر طويلة، وأننا الآن قد عرفناه أكثر من ذي قبل؛ لأننا رأيناه مراراً يجلس إلى مائدتنا، أو بجانب فراش من نحبه، ويسير بجوارنا، وينتظر قدومنا إلى مقر عملنا. والآن إذن يمكننا أن نتلقى بصدر أرحب ما يوسوس به إلينا دون انقطاع، ذلك الذي قد لا نكون قد أحسنا الاستماع إليه لأول وهلة عندما فاجأنا المرض. إن ما دعا إليه الأب پانلو من قبل في نفس هذا المكان قد ظل حقيقة ثابتة، أو على الأقل هذه كانت عقيدته، ولكنه -وهذا مما يحدث لنا جميعاً وندهش له- ربما يكون قد فكر فيه وقاله دون أن تكون إرادة الخير هي التي دفعته إليه.

ومع ذلك فإنه من الحقائق الثابتة أيضًا أن كل شيء يمكن أن يقدم لنا جديدًا نتعلمه، كما أن أقسى أنواع البلاء ينطوي على الكثير من الفائدة بالنسبة للمسيحي. والأمر الذي ينبغي للمسيحي أن يبحث عنه في هذه الحال ينحصر بالذات في تلك الفائدة، وممّ تكون هذه الفائدة، وكيف يحصل عليها.

وفي هذه اللحظة أخذ الناس من حول ريو يعتدلون في جلستهم بين أذرع مقاعدهم؛ لكي يريحوا أجسامهم إلى أقصى حد ممكن، وفي هذه الأثناء كان أحد أبواب الدخول المبطنة يتأرجح فيدق دقًا خفيفًا، فكلّف أحدهم نفسه مشقة تثبيته، وساعدت هذه الحركات ذهن ريو على الشroud، فلم يستمع إلى بانلو الذي استأنف وعظه. وكان يقول -ما معناه على وجه التقريب-: إنه لا ينبغي لنا أن نحاول تفسير ظاهرة الطاعون، ولكن يجب علينا أن نلج في استنباط ما تنطوي عليه من دروس.

وفهم ريو -بشكل غامض- أن الأب بانلو يريد أن يقول: إنه ليس هناك ما يمكن تفسيره. ثم ركز اهتمامه حين سمع بانلو يقول بقوة: إنه توجد أشياء من الممكن تفسيرها بالنسبة لله وأخرى لا يمكن تفسيرها؛ فالخير والشر موجودان قطعًا، ومن السهل على وجه العموم أن نفسر لأنفسنا الفرق بينهما. ولكن الصعوبة تبدأ حينما يتعلق الأمر بالشر وحده؛ فهناك مثلًا الشر الذي يبدو ضروريًا، والشر الذي يبدو عديم الفائدة. هناك مثلًا دون جوان الغارق في الجحيم كما أن هناك موت أحد الأطفال، فإذا كان من العدل أن يصعق الرجل الماجن، فليس هناك ما يبرر تعذيب الطفل، والحقيقة أنه ليس هناك على ظهر الأرض ما هو

أهم من تعذيب طفل ولا من الشفاعة التي يجرها وراءه هذا التعذيب، أو البحث عن المبررات التي ساقته إليه. أما فيما عدا ذلك من أمور الحياة، فإن الله قد يبرر لنا كل شيء، ولذا لم يكن للدين أي فضل في هذا المجال. أما هنا فإن الله -على العكس من ذلك- قد وضعنا وجهًا لوجه أمام البلاء. وها نحن الآن أمام سور الطاعون السامق، وينبغي لنا أن نعثر في ظلاله المميته على فائدتنا، ورفض الأب بأننا أن يخلع على نفسه من المميزات الرخصية ما يسمح له بتسليق السور. وكان من اليسير عليه أن يقرر أن النعيم الخالد الذي ينتظر الطفل يمكن أن يعوضه عما لحق به من عذاب، ولكنه في الواقع لم يكن يدري عن ذلك شيئًا، فمن ذا الذي يستطيع أن يؤكد أن خلود إحدى المتع يمكن أن يكون عوضًا عن لحظة من عذاب البشر؟ لا شك أن من يقول هذا لن يكون من أولئك المسيحيين الذين عرف ربهم كيف تألموا في أطرافهم وفي نفوسهم. كلا، فسيبقى الأب وجهًا لوجه أمام المشكلة وفاء لتلك المفارقة التي يعتبر الصليب رمزًا لها، سيبقى وجهًا لوجه أمام عذاب طفل وسيقول، دون أي وجل، لأولئك الذين ينصتون إليه في ذلك اليوم: «يا إخوتي لقد حانت اللحظة الحاسمة، فإما أن نؤمن إيمانًا مطلقًا أو نكفر كفرًا مطلقًا. ومن ذا الذي يستطيع منكم أن يكفر بكل شيء؟».

ولم يكدهم الظن يتطرق إلى ذهن ريو بأن الأب قد اقترب من حدود التجديف، حتى استطرد هذا الأخير يؤكد بقوة أن هذا الأمر الصارم، هذه الطاعة العمياء هي الميزة الحقيقية للمسيحي، وهي أيضًا فضيلته. وقد كان الأب على تمام البيئة من أن ما في الفضيلة التي يتحدث عنها

من عنف قد يصطدم ببعض العقول التي اعتادت الأخلاق التقليدية السمحة. ولكن الدين في زمن الطاعون لا يمكن أن يكون هو نفسه دين كل زمان. وإذا كان في مقدور الله أن يسلم، بل أن يحض الناس على الركون إلى الراحة أو المتعة في أيام السعادة، فإنه يريد منهم التطرف في الفضيلة عندما يشتد الشقاء. إن الله قد أسبغ اليوم على مخلوقاته نعمة إغراقهم في ذلك النوع من الشقاء الذي لا بد لهم فيه من الإيمان بتلك الفضيلة القائلة:

« إما كل شيء، وإما لا شيء ».

منذ عدة قرون ادعى مؤلف جاهل أنه قد كشف عن سر الدين حين أكد أن المطهر لا وجود له، وكان يومئذ بذلك إلى أنه ليس هناك أنصاف أوضاع، ليس هناك إلا الجنة والنار، ولا يمكن للمرء إلا أن ينجو أو يُدان حسب ما يختار. وقد قرر بانلو أن ذلك ضرب من الإلحاد لا يمكن أن يولد إلا في نفس فاجرة؛ ذلك لأن المطهر موجود، ولكن أغلب الظن أن هناك عهدًا لا يصح للناس فيها أن يعلقوا آمالًا كبيرة على هذا المطهر، عهدًا لا يصح لهم فيها أن يعتقدوا في وجود خطايا تافهة، بل تصبح كل الخطايا من الكبائر، وكل تهاون ضربًا من الإجرام، فإما كل شيء، وإما لا شيء.

وهنا توقف بانلو. وفي تلك اللحظة استطاع ريو أن يسمع جيدًا من تحت الأبواب أنات الرياح التي يبدو أن قوتها كانت قد تضعفت في الخارج، وحينئذ استأنف الأب كلامه قائلاً: إن فضيلة التسليم المطلق التي يتكلم عنها لا يمكن أن تفهم بمعناها الضيق التي يفسرونها به في

المعتاد، وأن المسألة ليست تسليمًا مبتدلاً، ولا حتى خضوعاً يصعب على النفس القيام به، وإنما هي استكانة، ولكنها استكانة يرضاها لنفسه المستكين، ومن المؤكد أن عذاب الطفل أمر يفرض الاستكانة على العقل والقلب. ولهذا السبب ينبغي أن نزرع تحت هذا العذاب، وهنا حذر بانلو مستمعيه من أن ما سيقوله ليس من السهل قوله، ثم لهذا السبب أيضاً نريده؛ لأن الله قد أراده. بهذا فقط يكون المسيحي قد عمل كل ما عليه، بهذا فقط يتجه رأساً إلى الاختيار الأساسي بعد أن يرى كل المخارج قد أغلقت أمامه. إنه يختار الاعتقاد في كل شيء لكيلا يضطر إلى إنكار كل شيء، وإذا كان هناك من النساء الصالحات من علمن بأن الخراج هي الطريق الوحيد الذي يقذف منه الجسم ما فيه من تلوث، فرحن يترددن على الكنيسة في هذه الأيام ويدعون قائلات: «يا إلهي أكثر من الخراج». فإنه يجب على المسيحي أن يكون مثلهن ويعرف كيف يكل أمره إلى الإرادة السماوية حتى ولو لم يكن في وسعه فهمها؛ فليس من الصواب أن نقول: «إني أفهم هذا، ولكن ذلك لا أقبله». بل يجب أن نسارع إلى خضم ذلك الذي لا يمكن قبوله، والذي أرسلته إلينا الأقدار؛ لأنه هو وحده الذي يمكننا من الاختيار. إن آلام الأطفال خبزنا المر، ولكن لو لم يوجد هذا الخبز لكان من الممكن أن تلقى نفوسنا حتفها المعنوي.

وهنا كانت الحركة التي تحدث كلما توقف الواعظ عن الكلام قد بدأت تُسمع عندما استأنف الواعظ كلامه بقوة وهو يتظاهر -بدلاً من مستمعيه- بالتساؤل عن المسلك الذي ينبغي أن نسلكه على

وجه العموم، ودار بخاطره أن مستمعيه يكادون ينطقون بتلك الكلمة المروعة، كلمة الحرية، ولكنه لم يكن ليتراجع هو عن النطق بها لو سمحوا له بأن يضيف إليها صفة «الإيجابية». ومن المؤكد أنه لم يكن يعني تقليد مسيحيي الحبشة الذين تحدث عنهم، بل ولا التفكير في محاكاة مرضى الطاعون الفرس الذين كانوا يسلطون جموع كلابهم على الدوريات الصحية المسيحية، وهم يدعون السماء بصوت مرتفع أن تبعث بالطاعون إلى هؤلاء الكفار الذين يريدون مقاومة إرادة الله بمحاربة المرض الذي أرسلته إليهم السماء - ومن جهة أخرى لم يكن يطلب إليهم محاكاة رهبان القاهرة الذين كانوا -إبان أوبئة القرن الماضي- إذا أرادوا مناولة الرعايا أمسكوا الخبز المقدس بملقط لكي يتجنبوا الاحتكاك بالأفواه الرطبة الدافئة التي قد تكون مثوى للعدوى؛ ذلك أن كلا الفريقين -مرضى الطاعون الفرس ورهبان القاهرة- كان على خطأ؛ فالأولون لم يحسبوا أي حساب لعذاب الأطفال، أما الآخرون فإن خوف الألم الذي هو من طبيعة البشر قد طغى عندهم على كل شيء، وفي كلتا الحالتين أهملت المشكلة الحقيقية، إذ ظل الجميع صمًا أمام صوت الله. وكانت أخرى ود بانلو أن يذكرهم بها، فيحكي ذلك المؤرخ -الذي سجل تاريخ طاعون مرسيليا الكبير- أنه لم ينبج من الحمى من بين رجال دير هناك أمثلة الرحمة الواحد والثمانين سوى أربعة فقط، ومن هؤلاء الأربعة ثلاثة كانوا قد لاذوا بالفرار.

هكذا قال المؤرخون، ولم يكن في مهمتهم أن يقولوا أكثر من ذلك، ولكن لا شك أن الأب ما كاد يقرأ هذا الخبر حتى انتجه بكل فكره

إلى ذلك الذي بقي رغم الجثث السبعة والسبعين، وعلى الأخص على الرغم من المثل الذي ضربه إخوانه الثلاثة. وصاح الأب -وهو يضرب بقبضته حافة المنصة-: «إخوتي، ينبغي أن نكون هذا الذي بقي».

ولم يكن پانلو يدعو إلى رفض الاحتياطات الوقائية، ذلك النظام الواعي الذي أدخله المجتمع على فوضى الوباء. لم يكن يريد اتباع أولئك الذين كانوا يدعوننا أن نجثو على ركبتينا وأن نتخلى عن كل شيء. وإنما كان يراد فقط أن نبدأ في السير إلى الأمام خلال الظلام وعلى غير هدى إلى حد كبير، ونحاول أن نفعل الخير، وفيما عدا ذلك كان لا بد لنا أن نظل في مكاننا، وأن نسلم أمرنا لله -حتى فيما يخص موت الأطفال- دون أن نحاول اللجوء إلى أي وسيلة من وسائلنا.

وهنا أشار الأب پانلو إلى المثل الذي ضربه الأسقف «بلزونس» أثناء وباء مرسيليا، فذكر الناس أنه قبيل نهاية الوباء كان الأسقف قد قام بكل ما يمكن أن يقوم به من عمل، وظن أنه لم يعد هناك أي علاج للحالة، فحبس نفسه في منزله ومعه بعض المأكولات، وأقام سورًا دون المنزل. وهنا انعكس شعور الأهالي الذين كانوا يعبدونه، كما هي الحال دائمًا عند الآلام الشديدة، وغضبوا منه وأحاطوا بمنزله بالجثث لكي يلوثوه بالعدوى، بل وقد بلغ بهم الغضب أن ألقوا إليه ببعض الجثث من فوق الجدران؛ وذلك لكي يتأكدوا من أنه سوف يموت.

وهكذا ظن الأسقف في فترة ضعف أخيرة أنه قادر على أن يعزل نفسه عن دنيا الموت، فتساقط الموتى من السماء على رأسه، وهذه هي حالتنا أيضًا، فيجب أن نتنعم بأن بحر الطاعون ليس به جزر، كلا ليس

هناك وسط، يجب أن نتقبل هذه الفضيحة لأن علينا أن نختار بين أن نكره الله وأن نحبه. ومن منا يجرؤ على أن يكره الله؟

وأخيراً قال الأب بانلو وهو يعلن أنه يختم كلامه: «إخوتي، إن حب الله حب شاق؛ فهذا الحب يستلزم أن ننكر ذاتنا نكراناً تاماً، وأن نحترق أشخاصنا، ولكنه هو وحده الذي يستطيع أن يمحو عذاب الأطفال وموتهم، وهو وحده الذي يستطيع أن يقضي بضرورة ذلك. وبما أن من المستحيل أن نفهم هذه الشرور فليس أمامنا إلا أن نريدها. هذا هو الدرس الصعب الذي أردت اقتسامه معكم، وهذا هو الإيمان القاسي في نظر الناس، وهو الإيمان الحاسم في نظر الله الذي ينبغي أن تقترب منه، فأمام هذه الصورة المروعة يجب أن نتساوى جميعاً، وعلى هذه القمة سوف يختلط كل شيء ويتساوى كل شيء، ومن ينبوع الظلم الظاهري سوف تتفجر العدالة. وهكذا في كثير من كنائس جنوب فرنسا يرقد كثير من ضحايا الطاعون -منذ قرون- تحت بلاط المكان الذي يقف فيه الشماسة. ويتكلم القسس فوق قبورهم مستمددين الروح التي ينشرونها من هذا الرماد الذي أسهم في تكوينه بعض الأطفال أيضاً».

وعندما غادر ريو الكنيسة كانت هناك ريح باردة قد اندفعت من الباب الموارب، وأخذت تلسع المصلين في وجوههم، وأدخلت معها إلى الكنيسة رائحة المطر، ورائحة الرصيف المبلل، مما جعلهم يتخيلون منظر المدينة قبل أن يخرجوا من الكنيسة. وأمام الدكتور ريو كان هناك قسيس عجوز، وشماس شاب قد خرجا لتوهما أيضاً، وكانا يبذلان مجهوداً ضخماً للاحتفاظ بغطائي رأسيهما، ولكن ذلك لم يمنع

الأكبر من التعليق على الوعظ. وقد حيا في پانلو فصاحته، ولكنه أبدى قلقه لما في الأفكار التي عرضها من جرأة، وكان رأيہ أن هذا الوعظ ينم عن القلق أكثر مما ينم عن القوة، وأنه لا يحق للقس -في سن پانلو- أن يشعر بالقلق. أما الراهب الصغير فقد أكد وهو يحني رأسه ليحميه من الرياح، أنه كثيرًا ما يزور الأب، وأنه على بينة مما طرأ عليه من تغير، وأن البحث الذي يعده قد يكون أكثر جرأة من خطابه، ولذلك فقد لا يمنح إذن الطبع.

وسأل القس العجوز:

- ما هي إذن فكرته؟

وهنا كانا قد وصلا ساحة الكنيسة الخارجية، وحاصرتهما الرياح من كل جانب وهي تزار، فقطعت على الشماس الشاب كلامه، وعندما تمكن من الكلام لم يزد على أن قال:

- إذا استشار القس الطبيب كان متناقضًا مع نفسه.

ولما حدث ريو تارو بما سمعه من پانلو، أجابه تارو بأنه يعرف قسيسًا فقد إيمانه أثناء الحرب عندما شاهد وجه شاب مفقوء العينين، ثم أضاف قائلاً:

- إن پانلو على حق؛ فعندما تفقأ عيني بريء يفقد المسيحي إيمانه، أو يقبل فقأ عينيه، وپانلو لا يريد أن يفقد إيمانه، ويصمم على السير حتى النهاية، هذا هو ما أراد أن يقوله.

ولكن، هل تستطيع تلك الملاحظة التي أبداه تارو أن توضح لنا

-بعض الشيء- الحوادث التعسة التي تلت ذلك، وكان مسلك پانلو إزاءها غير مفهوم لمن حوله؟ ذلك ما سوف نحكم عليه فيما بعد.

وبعد بضعة أيام من الوعظ، قام پانلو بتغيير مسكنه، وكانت هذه هي اللحظة التي أدى فيها تطور المرض إلى حركة دائمة في تغيير المساكن في المدينة، وكما أن تارو قد اضطر إلى ترك فندقه والإقامة عند ريو، كذلك اضطر الأب إلى إخلاء الشقة التي كانت الطريقة التي ينتمي إليها قد أنزلته فيها، وذهب ليقيم عند سيدة عجوز من مرتادي الكنيسة ظلت حتى الآن بعيدة عن عدوى الطاعون، وكان الأب قد شعر في أثناء نقل حاجاته بأن تعبهُ وقلقه في ازدياد، وكان من وراء هذا أن فقد احترامه في نظر السيدة التي آوته؛ فقد حدث أن أطرت له هذه السيدة بحرارة فضائل نبوءة القديسة أوديل، وأبدى لها القس شيئاً طفيفاً من الضيق، وربما كان ذلك يرجع إلى ما كان يشعر به من إنهاك، فأصبح كل ما يبذله بعد ذلك من جهد لكي يحصل من السيدة العجوز ولو على مجرد الحياد المتسامح لا يجدي فتيلاً، ذلك أن الفكرة التي أخذتها عنه كانت سيئة، فكان كلما جاء في المساء ليأوي إلى غرفته المليئة بستائر الدانتلا المشغولة بالإبرة لم ير من صاحبة البيت الجالسة في غرفة الاستقبال إلا ظهرها، ولم يحمل معه من ذكرياتها إلا عبارة «مساء الخير يا أبي» التي كانت ترد بها على تحيته في جفاف، ودون أن تلتفت إليه.

وفي إحدى هذه الأمسيات شعر الأب في اللحظة التي آوى فيها إلى فراشه بأن الحمى التي يحتضنها منذ أيام طويلة في معصميه وصدغيه قد انطلقت من عقالها.

أما ما تلا ذلك فلا نعرف عنه شيئاً إلا مما روته مضيفته، فقد استيقظت في الصباح مبكرة كعادتها، ومر بعض الوقت دون أن يخرج الأب من غرفته، فاعتراها بعض الدهش، وبعد كثير من التردد قررت أن تدق على بابه، فوجدته ما زال راقداً في فراشه بعد ليلة كلها أرق. كان يشكو من ضغط على جسمه، ويبدو محتقن الوجه أكثر من المعتاد، وتقرر المضيغة أنها عرضت عليه في كثير من اللطف أن ترسل في استدعاء أحد الأطباء، ولكنه رفض عرضها بعنف رأت هي أنه مؤسف. ولم تجد أمامها سوى أن تنسحب، وبعد ذلك بقليل دق الأب الجرس وطلب حضورها إليه، واعتذر لها عن زلاته غير المقصودة، وصرح لها بأن مرضه لا يمكن أن يكون الطاعون؛ لأنه لا يبدو عليه أي عرض من أعراضه، وإنما هي وعكة زائلة. وأجابته السيدة العجوز بكل وقار أن عرضها لم يكن مبنياً على قلق من هذا النوع، وأنها لم تكن تقصد سلامتها الشخصية؛ لأنها بين يدي الله، ولما لم يبد الأب أي رغبة عادت تلك المضيغة التي كانت تحرص - حسب قولها - على أن تؤدي واجبها نحوه كاملاً، فعرضت عليه مرة أخرى أن تستدعي له الطبيب. ومن جديد رفض الأب عرضها معزراً رفضه بمبررات رأت السيدة العجوز أنها مضطربة، وكل ما فهمته منها أن الأب رفض هذه الاستشارة لأنها لا تتفق مع مبادئه؛ وهذا بالذات هو الأمر الذي لم تفهمه، واستتجت من كل ذلك أن الحمى كانت قد أصابت تفكير ضيفها بالاضطراب، فاكتفت بأن قدمت له بعض المنقوعات الحارة.

ولما كانت قد عقدت العزم على أداء الالتزامات التي خلقتها لها الظروف بكل دقة، فقد ظلت تزور المريض بانتظام مرة كل ساعتين، وكان يروعها ذلك الاضطراب المتزايد الذي اعترى الأب طيلة يومه، فكان يبعد أعطيته، ثم يعود فيسحبها نحوه، وهو لا يكف عن المسح بيده على جبهته المنداة. وكثيراً ما كان ينهض وهو يحاول أن يسعل سعالاً مخنوقاً خشناً رطباً يحدث صوتاً يشبه صوت التمزق.

وكان يبدو -في ذلك الوقت- كأنما يحاول عبثاً أن يخرج من أعماق حلقة قطعاً من القطن قد تسببت في اختناقه، وفي نهاية كل أزمة من تلك الأزمات كان يترك جسمه يتهاوى إلى الخلف، وتبدو على قواه كل مظاهر الخور. وبعد كل ذلك كان يهب من جديد جالساً نصف جلسة، ويظل لمدة قصيرة يحدّق أمامه بصورة أكثر عنفاً وإلحاحاً مما كان عليه في حالة الاضطراب السابق. ولكن السيدة العجوز ظلت مترددة في استدعاء الطبيب خوفاً من إغضاب مريضها، معتقدة بأن الأمر قد لا يعدو أن يكون حمى شديدة، وإن بدت تطوراتها في غاية الغرابة.

ومع ذلك فقد حاولت في فترة العصر أن تتكلم مع الأب، ولكنها لم تتلق من رد على سؤالها سوى بضع كلمات مختلفة، غير أنها ما كادت تجدد عرضها حتى نهض الأب من جديد وهو نصف مختنق، وأجابها بوضوح بأنه لا يريد طبيباً. وحينئذ قررت المضيئة أن تنتظر حتى صباح اليوم التالي مصممة على أنه إذا لم تتحسن صحة الأب، فسوف تطلب الرقم التليفوني الذي كانت تردده وكالة «رانسدوك» عشرات المرات كل يوم بالراديو. ولما كانت دائمة الحرص على واجبها، فقد فكرت

في زيارة ضيفها أثناء الليل والسهر عليه. ولكن لما أقبل المساء أعطته منقوعاً بارداً، وأرادت أن ترقد قليلاً، غير أنها لم تستيقظ إلا في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، وحينئذ جرت إلى غرفته.

كان الأب في هذه اللحظة يرقد بلا حراك، وكان الاحتقان الشديد الذي اعتراه بالأمس قد ترك على وجهه نوعاً من الزرقة ظل بادياً على ملامحه، وكان الأب يحدق في النجفة التي كانت تتدلى فوق السرير بلائها الصغيرة المتعددة الألوان، وعندما دخلت السيدة العجوز أدار رأسه ناحيتها. وتقول المضيضة: إنه كان يبدو في هذه اللحظة وكأنما قد انهال عليه أحد الأشخاص ضرباً طول الليل، ومن ثم فقد كل قدرة على المقاومة. ولما سألته عن حاله أجاب بصوت استطاعت تمييز ما به من غرابة، وقال: إن حالته سيئة، ولكنه ليس في حاجة إلى طبيب، بل يكفي أن ينقل إلى المستشفى حيث يتم كل شيء حسب القواعد المتبعة، فبدا الارتياح على وجه السيدة العجوز، وجرت من فورها إلى التليفون.

وصل ريو ساعة الظهر، وبعد أن استمع إلى حكاية المضيضة لم يجب إلا بأن پانلو على حق، وأن الأوان ربما يكون -فعلاً- قد فات. واستقبله الأب بنفس التعبير الفاتر، ولما فحصه ريو دهش لعدم العثور على أي عرض من الأعراض الرئيسة للطاعون ذي العقد أو الرئوي على السواء، فيما عدا الاختناق وضغط الرئتين.

وعلى كل حال كان النبض ضعيفاً، والحالة العامة تنذر بالخطر، ولذا كان الأمل ضئيلاً، وقال ريو لپانلو:

- لا يبدو عليك أي عرض من الأعراض الرئيسة للمرض، ولكن الحالة تدعو حقيقة للشك، ويجب عليّ أن أعزلك.

وابتسم الأب ابتسامة غريبة كأنها ابتسامة مجاملة، ولكنه ظل صامتاً، وخرج ريو ليتكلم بالتليفون، ثم عاد وأخذ ينظر إلى الأب، وقال له بركة:
- سوف أظل بجانبك.

وهنا بدا پانلو كما لو كان قد استرد روحه، وأدار ناحية الطبيب عينين كأنهما قد استعادتا نوعاً من حرارتهما، ثم تكلم بصعوبة، فقال دون أن تنم نبراته عما إذا كان يتحدث بحزن أم لا:

- شكراً، ولكن ليس لرجال الدين أصدقاء، فقد وضعوا كل شيء في يد الله.

ثم طلب الصليب الذي كان موضوعاً على رأس السرير، ولما أحضروه، استدار لينظر إليه.

وفي المستشفى لم يفرج پانلو عما بين أسنانه، واستسلم للعلاج الذي فُرض عليه، كما لو كان قطعة من جماد، ولكنه لم يترك الصليب قط. ومع ذلك فقد ظلت حالة القس غامضة، واستمر الشك يعبث بذهن ريو: هل هو الطاعون أو مرض غير الطاعون؟ وأيّاً ما كان، فإن الوباء قد بدأ منذ حين يرفه عن نفسه بتضليل ضروب التشخيص. أما بالنسبة لحالة پانلو، فقد أثبت ما حدث بعد ذلك أن هذا الشك لم يكن ذا أهمية.

فقد استمرت الحمى في الصعود، وازداد السعال خشونة،

واستمرت آلام المريض طيلة النهار، وفي المساء تقيأ الأب أخيراً تلك القطعة من القطن التي كانت تخنقه، لقد كانت حمراء اللون. ووسط هذيان الحمى ظل يأنلو محتفظاً بنظراته غير المكترثة... وفي صباح اليوم التالي وجدوه ميتاً، وقد تدلى منتصف جسمه خارج الفراش، ولكن نظرتهم لم تكن تعبر عن شيء، فكتبوا على بطاقته: «حالة مشكوك فيها».



لم يكن عيد «جميع القديسين» هذا العام كما كان فيما سبقه من الأعوام، ومن المؤكد أن الجو كان مناسباً للموسم؛ إذ إنه كان قد انقلب فجأة واجتاحت المدينة موجة حر قضت على الجو البارد -نوعاً ما- الذي كان سائداً. وبعد ذلك أخذت الرياح الباردة تهب بصفة مستمرة كما حدث في السنوات الأخيرة، وأخذت السحب الكثيفة تجوب الأفق من ناحية إلى أخرى، وتغطي المنازل بالظلال، ثم تعود سماء نوفمبر ذات الضوء الذهبي إلى الظهور من جديد بعد انقشاع تلك السحب، وبدأت المعاطف الواقية من المطر تظهر، وقد لاحظ الناس ظهور عدد مدهل من المنسوجات ذات البريق المصنوعة من المطاط، ذلك أن الصحف كانت قد ذكرت أنه كان قد حدث منذ مائتي عام في إبان أوبئة الطاعون الكبيرة في الجنوب، أن ارتدى الأطباء منسوجات مدهونة بالزيت لكي يقوا أنفسهم من العدوى، وانتهزت المحلات هذه الفرصة لتطرح للبيع ما كانت تخزنه من منسوجات أصبحت عتيقة، وأقبل الناس عليها أملاً في التحصن ضد الوباء.

ولكن جميع دلائل الموسم هذه لم يكن باستطاعتها أن تنسي

الناس أن المقابر كانت مهجورة، ففي السنوات الماضية كانت عربات الترام المليئة برائحة زهور الأقحوان الباهتة، وبأفواج النساء تتوجه إلى الأماكن التي دفن فيها أقاربهن؛ لكي ينثرن الزهر على قبورهم، كان الناس يفعلون ذلك يوم عيد القديسين؛ لتعويض الموتى عما ظلوا مغمورين فيه شهورًا طويلة من عزلة ونسيان، ولكن في هذه السنة أراد الناس ألا يفكروا في الموتى، ومعنى هذا على وجه التحديد أنهم كانوا يسرفون في التفكير فيهم، فلم يعد الأمر يتعلق بزياراتهم بعد طول الغياب مع قليل من الأسف وكثير من الوجوم؛ ذلك أنهم لم يعودوا أولئك المهجورين الذين نزورهم مرة كل عام لنبرر هجراننا لهم، بل أصبحوا أولئك الدخلاء الذين نريد نسيانهم. ولهذا كان عيد الموتى هذا العام بلا احتفال؛ ذلك أن كل الأيام أصبحت أعيادًا للموتى على حد تعبير كوتار الذي لاحظ تارو أن كلامه يتسم بالسخرية المتزايدة.

والحقيقة أن نيران الفرحة التي كان يشعلها الطاعون في سعادة، لم تكن تفتأ تزداد احتراقًا في فرن إحراق الكائنات البشرية الكبير. نعم إن عدد الموتى لم يعد في ازدياد، ولكن كان يبدو أن الطاعون قد استقر به المقام في عليائه، ولذلك أصبح يحوط جرائم القتل التي يرتكبها كل يوم بكل أنواع الدقة والنظام التي تليق بموظف نشيط. وكان ذلك من العلامات الطيبة من حيث المبدأ وفي رأي الخبراء؛ فمثلاً كان الدكتور ريشار ينظر إلى الرسم البياني لتقدم المرض فيراه يمثل خطأ متصاعداً صعوداً مستمراً، ثم يسير في صورة خط مستعرض طويل، وعندئذ يقرر أن الحالة مطمئنة، ويقول: «إنه رسم طيب، رسم رائع»، وكان يرى أن

المرض قد وصل إلى ما سماه الخط الثابت، وأنه من الآن فصاعدًا لا يمكن إلا أن يأخذ في النزول، وراح يعزو الفضل في ذلك إلى مصل كاستل الذي حقق في الواقع بعض النجاح غير المتوقع منذ قليل. ولم يكن كاستل الهرم يعارض ذلك، ولكنه كان يرى أنه لا يمكن لأحد في الحقيقة أن يتنبأ بشيء؛ لأن تاريخ الأوبئة ينطوي على قفزات غير متوقعة.

أما المديرية التي كانت تتمنى -منذ مدة طويلة- أن تدخل بعض الطمأنينة على نفوس الناس، ولم يعطها الطاعون فرصة لذلك، فقد أخذت تفكر في عقد اجتماع للأطباء؛ لكي تطلب منهم تقريرًا عن هذا الموضوع، وفي هذا الوقت اختطف الطاعون الدكتور ريشار بدوره من فوق خطه الثابت بالذات.

أمام هذا المثل الذي -رغم ما أحدثه من إثارة لا ريب فيها- لم يكن ليقدم أو يؤخر، عادت الإدارة إلى التشاؤم غير المتريث الذي كان قد صاحبها في تفاؤلها، أما كاستل، فقد اكتفى بالاستمرار في تحضير مصله بكل ما يستطيع من عناية، ولم يعد هناك أي مكان عام لم يتحول إلى مستشفى أو حجر صحي. وإذا كانوا -حتى الآن- قد تركوا مبنى المديرية في حاله؛ فذلك لأنه لم يكن لهم بد من مكان يجتمعون فيه. ولكن بصفة عامة، ونتيجة للاستقرار النسبي الذي وصلت إليه حالة الطاعون في هذا الوقت، لم تر هنا حاجة لتجاوز حد التنظيم الذي كان ريو قد ارتآه من قبل، ولم يضطر الأطباء والمساعدون الذين كانوا يبذلون جهودًا مضنية إلى تخيل مجهودات أكبر من تلك. ولم يكن أمامهم إلا

أن يستمروا بانتظام في بذل هذا الجهد الذي يفوق طاقة البشر، وأخذت الحالات الرئوية للوباء التي كانت قد ظهرت من قبل تنتشر الآن في أركان المدينة الأربعة، كما لو كانت هناك ريح تشعل الحرائق في الصدور وتزيدها ضرامًا، فكان الوباء يختطف المرضى بأسرع من ذي قبل وسط ما يتقيئون من دم، وتعرضت نسبة انتشار العدوى للزيادة من هذه الصورة الجديدة للوباء، ولكن الأخصائيين في الحقيقة يرون غير ذلك. ومع كل هذا فقد رُئيَ -من باب الاحتياط- أن يستمر أعضاء المنظمات الصحية في التنفس تحت أقنعة من المنسوجات الخفيفة المعقمة.

وعلى كل حال، كان من المتوقع في بادئ الأمر أن يزيد انتشار المرض، ولكن لما كانت حالات الطاعون العقدي قد أخذت في التناقص، فقد ظل الميزان متعادلاً.

ومع ذلك، فقد ظهرت هناك أسباب أخرى أثارت قلق الناس، وهي أسباب تتعلق بصعوبات التموين التي كانت غير موجودة في السوق العادية، وتعرض بأثمان خيالية.

وهكذا وجدت العائلات الفقيرة نفسها في موقف عسير للغاية، بينما ظلت الأسر الغنية لا ينقصها تقريباً أي شيء. وفي الوقت الذي كان ينبغي فيه للطاعون -مع ما تميز به من عدم التحيز في أحكامه- أن يقوي روح العدالة بين مواطنينا، حدث على العكس من ذلك أن زاد من حدة الشعور بالظلم في قلوب الناس؛ وذلك لما للأثرة من مفعول طبيعي. أما المساواة أمام الموت -وهي مساواة لا غبار عليها- فقد ظلت على حالها، ولكن

لم يعد هناك من يرغب في هذا النوع من المساواة، فكان الفقراء الذين يقاسون من الجوع يسرحون خيالهم في نوع من الحنين المضني نحو المدن والحقول المجاورة، حيث الحياة الحرة، والخبز الرخيص.

ولما كانت السلطات عاجزة عن إعطائهم كفايتهم من الطعام، فقد كانوا يشعرون بأنه من واجب هذه السلطات نفسها أن تدعهم يرحلون، وكان هذا منهم شعورًا غير حكيم. ونتيجة ذلك سرت في الناس كلمة أصبحت كالشعار كانوا يكتبونها أحيانًا على الجدران، ويصيحون بها أحيانًا أخرى لدى مرور المدير، وهي: «الخبز أو الهواء»، وكان هذا التعبير الساخر نذيرًا ببعض المظاهرات التي ما لبثت أن قُمعت، ولكن طابعها الخطير لم يخف على أحد.

أما الصحف، فقد كان من الطبيعي أن تستجيب للأمر بالدعوة إلى التفاؤل الذي تلقتة من الجهات العليا، وكان من يقرؤها لا يملك إلا أن يعتقد أن الهدوء والاتزان المثاليين اللذين يلوذ بهما السكان هما العلامة المميزة للموظف. ولكن مهما أحكم إغلاق مدينة من المدن على نفسها، لا يمكن لأي شيء فيها أن يظل سرًا، فلم يخدع أحد بذلك «المثل» الذي يضربه عامة الناس. ولكي نكوّن فكرة صحيحة عن هذا الهدوء وهذا الاتزان اللذين كانوا يتحدثون عنهما، كان يكفي أن ندخل أي حجر صحي أو معسكر من معسكرات العزل التي أعدتها الإدارة. ولكن الراوي لم ير هذه المحاجر الصحية والمعسكرات؛ لاضطراره في ذلك الحين إلى مغادرة المكان، ولذلك نراه يعتمد في الكلام عنها على شهادة تارو.

نعم، يذكر تارو في مفكرته قصة زيارته مع رامبير للمعسكر الذي كان قد أقيم على ملعب البلدية، وهذا الملعب يقع تقريباً عند أبواب المدينة، ويطل من ناحية على الشارع الذي يمر فيه الترام، ومن الناحية الأخرى على الأرض الخلاء التي تمتد حتى حافة الهضبة التي بنيت عليها المدينة، وهو محاط عادة بجدران مرتفعة من الأسمنت، ولذا يكفي أن يوضع الحراس على أبوابه الأربعة؛ لكي يصبح الهرب منه متعذراً. كما أن هذه الجدران كان من شأنها أن تمنع الناس في الخارج من أن يضايقوا بفضلهم أولئك التعساء الذين حُجزوا في الداخل. أما هؤلاء الأخيرون، فإنهم لطول سماعهم ضجيج عربات الترام -وإن لم يروها- قد أصبحوا يتعرفون على ساعات ذهاب الناس المكاتب وعودتهم منها، وذلك بفضل ازدياد الضوضاء التي يحدثها هؤلاء الناس وانخفاضها. وهكذا كانوا يدركون أن الحياة التي أبعدها عنها لا تزال مستمرة على بعد أمتار منهم، وأن جدران الأسمنت تلك تفصل عالمين اختلف كل منهما عن الآخر كما لو كانا في كوكبين مختلفين.

وقد اختار تارو ورامبير فترة ما بعد الظهر من أحد أيام الأحاد لزيارة الملعب، وكان برفتهمما جونزاليس لاعب كرة القدم الذي كان رامبير قد عثر عليه من جديد، وانتهى به الأمر إلى أن قبل القيام بمراقبة الملعب بالمناوبة، وكان على رامبير أن يقدمه إلى مدير المعسكر، وكان جونزاليس قد قال للرجلين لحظة التقائهما به: إن هذه هي الساعة التي كان يقوم فيها -قبل الطاعون- بلبس ملابس اللعب استعداداً لبدء الجولة، أما الآن وقد تم الاستيلاء على الملاعب، فلم يعد هذا ممكناً؛

ولذا كان جونزاليس يشعر بالفراغ، وكان هذا الشعور بادياً عليه. وهذا هو أحد الأسباب التي دعت به إلى قبول تلك المراقبة، على شرط ألا يزاولها إلا في نهاية كل أسبوع، وفي هذا الوقت كانت السماء نصف مغطاة بالسحب، ولاحظ جونزاليس بكثير من الأسف، وهو يرفع أنفه إلى أعلى، أن هذا الوقت -الذي لا هو بالحر ولا هو بالممطر- يعتبر أنسب الأوقات لمباراة طيبة. وأخذ يستعيد في نفسه بقدر المستطاع ذكرى رائحة الشحم في غرف الملابس، والمنصات المتداعية، وملابس اللعب ذات الألوان الزاهية الملقاة على الأرض الصفراء، وعصير الليمون أو المياه الغازية التي كانوا يتناولونها بين شطري اللعب، والتي كانت تحدث في الحلق الجاف تأثيراً كتأثير ألف إبرة منعشة. هذا إلى أن تارو قد سجل هو الآخر في مفكرته أن هذا اللاعب لم يكف خلال سيرهم في شوارع الحي الخارجي المتداعية عن قذف الأحجار التي كان يصادفها في الطريق بقدمه.

وكان يحاول أن يصوبها مباشرة نحو فتحات المجاري، وعندما كان ينجح في ذلك كان يقول: «واحد لصفير»، ولما انتهى من تدخين سيجارته ثفل عقبها أمامه، وسارع يحاول التقاطه بقدمه، وبالقرب من الملعب رأى جونزاليس جمعاً من الأطفال يلعبون بالكرة، فقذفوها نحو جماعتهم، فإذا به يكلف نفسه عناء إعادتها لهم بدقة في التصويب. وأخيراً دخلوا الملعب، فرأوا المنصات غاصة بالناس، أما أرض الملعب، فكانت مغطاة بمئات من الخيام الحمراء التي يلمح بداخلها من بعد بعض الأسرّة وسرر الحاجيات، وقد احتفظ بالمنصات حتى

يستطيع حبسو المعسكر الاحتماء بها من الحر والمطر؛ إذ لم يكن يسمح لهم بدخول الخيام إلا ساعة المغرب، وقد أعدت صنادير رشاشة تحت المنصات. أما غرف الملابس السابقة التي كانت مخصصة للاعبين، فقد تحولت إلى مكاتب وعيادات، وكان أغلب المحجوزين في المعسكر في هذه الآونة فوق خطوط الملعب، كما أن بعضهم يجلسون القرفصاء لدى مدخل خيمتهم، وهم يسرحون نظراتهم الغامضة في كل ما يحيط بهم. أما أولئك الذين آووا إلى المنصات، فقد كان الكثيرون منهم يرقدون كما لو كانوا في حالة انتظار وترقب.

وسأل تارو رامبير بقوله:

- ماذا يعمل هؤلاء أثناء يومهم؟

- لا شيء.

والواقع أنهم كانوا جميعًا تقريبًا خاويي الأيدي يطوحون أذرعهم من الفراغ، كما كان هذا الجمع الغفير من الناس يجلسون في صمت جد مثير للانتباه. وقال رامبير:

- في الأيام الأولى لم يكن من الممكن أن تسمع صوت نفسك هنا، ولكن بمرور الأيام أخذ كلامهم يتناقص شيئًا فشيئًا. ويذكر تارو في مذكرته -ويبدو أنه كان يفهمهم جيدًا- أنه كان يراهم في أول الأمر رقودًا في خيامهم يشغلون أنفسهم بالإنصات إلى طنين الذباب، أو بحك جلودهم، فإذا وجدوا أذنًا مجاملة تصغي إليهم راحوا يصرخون من الغضب أو من الخوف، ولكن منذ اللحظة التي غص فيها المعسكر بالنزلاء، أخذت هذه الآذان المجاملة تقل شيئًا فشيئًا، ولم يعد أمامهم إلا أن يلودوا بالصمت،

ويركنوا إلى الارتباب. والواقع أنه كان هناك نوع من الارتباب يهبط على هذا المعسكر الأحمر من السماء الداكنة رغم سطوعها.

نعم، كان الارتباب يبدو عليهم جميعاً؛ ذلك أنهم إذا كانوا قد عزلوا عن الآخرين، فلا بد أن يكون ذلك لسبب، لذا كانت تبدو على وجوههم سيما الخائفين الذين يبحثون عن أسباب، وكان تارو كلما نظر في عين واحد منهم رآها تنم عن الفراغ، وكان يبدو على جميعهم أنهم يقاسون آلام فراق شامل عن كل ما كان يكون حياتهم، ولما كانوا لا يستطيعون التفكير في الموت طيلة الوقت، فقد أصبحوا لا يفكرون في شيء... كانت أذهانهم في عطفة. ويقول تارو:

«ولكن أسوأ ما في الأمر أنهم قد أصبحوا منسيين، وأنهم كانوا يعرفون ذلك، فلقد نسيهم من كانوا يعرفونهم؛ لأنهم صاروا يفكرون في أشياء أخرى، وهذا من الأمور التي لا يصعب فهمها. أما من يحبونهم، فقد نسوهم بدورهم؛ لأنهم كان عليهم أن ينهكوا أنفسهم في المساعي وتدبير المشروعات التي تهدف إلى إخراجهم من معزلهم، وكان من شأن طول تفكيرهم في هذا الإخراج أن أنساهم التفكير في أولئك الذين يعملون على إخراجهم، وهذا أيضاً أمر طبيعي، وفي النهاية لاحظ الناس أنه لم يعد أحد يقدر على التفكير في أحد حتى في أسوأ حالات الشقاء، ذلك أن التفكير في أحد معناه أن نفكر فيه الدقيقة تلو الدقيقة، دون أن يشغلنا شيء عن هذا التفكير، من أعمال منزلية أو ذبابة تطير أو وجبات طعام أو حكة جلدية، ولكن كان هناك ذباب وحكّات جلدية، ولذا كان من العسير على الناس أن يحيوا حياتهم، وكان هؤلاء يعرفون ذلك تمام المعرفة».

وقد أقبل عليهم المدير يخبرهم بأن شخصًا يُدعى السيد أوتون يطلب رؤيتهم، ثم قاد جونزاليس إلى مكتبه، أما هما، فقد قادهما إلى ركن منعزل من المنصة كان يجلس فيه السيد أوتون، وما إن رآهما هذا الأخير حتى نهض واقفًا لاستقبالهما، وقد كان يرتدي ملابسه بنفس طريقته المعهودة، ويضع نفس الياقة المنشأة، وكل ما لاحظته عليه تارو من تغير أن شعر صدغيه كان أكثر تشعثًا من ذي قبل، وأن أحد رباطي حذائه كان مفكوكًا. وكان التعب بادياً على القاضي، كما لوحظ أنه لم ينظر مرة واحدة إلى محدثيه في وجهيهما، وقد قال لهما: إنه سعيد لرؤيتهما، وأنه يكلفهما بشكر الدكتور ريو على ما قام به.

وصمت الآخران.

وبعد فترة من الوقت أردف القاضي قائلاً:

- أنعشم ألا يكون جاك قد تعذب طويلاً.

كانت هذه هي المرة الأولى التي سمعه فيها تارو ينطق باسم ابنه، ولذا أدرك أن شيئاً ما كان قد تغير في هذا الرجل، وفي هذا الوقت كانت الشمس قد أخذت تهبط وراء الأفق، وأخذت أشعتها تتسلل من بين السحب إلى المنصة فتطلي وجوه الرجال الثلاثة بطلاء ذهبي.

وقال تارو:

- كلا، كلا، إنه في الواقع لم يتعذب.

وعندما نهضا منصرفين، كان القاضي لا يزال ينظر إلى الجهة التي تأتي منها الشمس.

وقد ذهباً ليودعا جونزاليس، فوجداه منهمكاً في دراسة جدول من جداول مناوبات المراقبة، وضحك اللاعب وهو يشد على يديهما، وقال:

- لقد رجعت على الأقل إلى غرف الملابس، وهذا بعض ما كنت أريد.

وبعد قليل عاد المدير فشيخ تارو ورامبير، وفي تلك اللحظة سمع أزيز هائل داخل المنصات، ثم صاحت مكبرات الصوت التي كانت تستعمل في الأوقات الطيبة لإعلان نتائج المباريات، أو لتقديم الفرق، فأعلنت في صوت كأنه صادر من الأنف: أنه ينبغي للمعزولين أن يعودوا إلى خيامهم حتى يتسنى توزيع وجبة المساء عليهم، وغادر الناس المنصات في بطء عائدين إلى الخيام وهم يجرون سيقانهم جرّاً. ولما استقر بهم المقام، مرت خلال الخيام عربتان كهربائيتان صغيرتان من تلك التي تُرى في محطات القطارات، وكانتا محمليتين بقدر كبير، وأخذ الرجال يمدون أيديهم، وكانت هناك مغرقتان كبيرتان تغمران في القدرين، ثم تخرجان، لتصبا ما بهما في وعاءين من الصفيح، وبعد ذلك تواصل العربتا سيرها، وتبدأ من جديد عند الخيمة التالية.

وقال تارو للمدير:

- إن الأمر يسير هنا طبقاً للقواعد العلمية.

وأجاب المدير قائلاً - وهو يشد على أيديهما -:

- نعم، إنه يسير حسب القواعد العلمية.

كان الغسق قد خيم على المكان، وكشفت السماء غطاءها، وأخذ نوع من الضوء الهادئ المنعش يغمر المعسكر، وفي هدوء المساء أخذ صوت الملاعق والصحون يتصاعد من كل مكان، وراحت الخفافيش تحوم فوق الخيام، ثم اختفت فجأة. وفي الناحية الأخرى من الجدران، كانت هناك عربة ترام تصر لدى نقطة من نقط التحويل.

وتتمم تارو قائلاً - وهو يعبر الأبواب -:

- يا للقاضي المسكين! ينبغي أن نعمل شيئاً من أجله.

ولكن كيف السبيل إلى مساعدة قاض؟



وكان في المدينة معسكرات أخرى كثيرة مثل هذا المعسكر لا تسمح
أمانة الراوي، وقلة ما لديه من معلومات مباشرة عنها، أن يذكر عنها أكثر
من ذلك، ولكن ما يستطيع أن يقوله هو أن وجود هذه المعسكرات،
ورائحة الرجال التي كانت تتصاعد منها، وأصوات المكبرات الضخمة
ساعة الغروب، ولغز هذه الجدران، والخوف من هذه الأماكن المنكرة،
كل هذا كان شديد الوطأة على حالة مواطنينا المعنوية، وقد ساعد على
ازدياد الهرج والاستياء الذي عم الجميع، فتعددت ضروب الاحتكاك،
والخلاف مع الإدارة.

وفي نهاية نوفمبر كان جو الصباح قد صار شديد البرد، وهطلت
الأمطار كأنها الطوفان، فغسلت الطرق بالماء الغزير، وجعلتها تبدو
خالصة نقية مبرأة من السحب فوق الشوارع اللامعة، وكانت الشمس
الشاحبة تنثر على المدينة في كل صباح ضوءاً خافتاً بارداً كالثلج.
أما قبيل المساء، فكان الهواء على العكس من ذلك يصير فاتراً من
جديد، وكانت تلك هي اللحظة التي اختارها تارو لكي يطلب بعض
الاستفسارات من الدكتور ريو.

ففي حوالي الساعة العاشرة من ذات يوم، وبعد نهار طويل حافل بالعمل المجهد، رافق تارو ريو في زيارته المسائية لمريض الربو العجوز. وكانت السماء تلمع بلطف فوق منازل الحي القديم، وأخذ النسيم يتناوح في سكون خلال الميادين المظلمة، وقد شعر الرجلان القادمان من الشوارع الهادئة بالارتياح لثرثرة العجوز، فقد أخبرهم أن هناك بعض المتذمرين، وأن صحن الزبد لا يقدم إلا لأشخاص معينين، وأنه ما في كل مرة تسلم الجرة، ثم أخذ يفرك يديه وهو يقول: إنه من المحتمل أن يحدث بعض الصخب، واستمر الطبيب في إجراء علاجه عليه دون أن يكف هو عن تفسير الحوادث.

وفي هذه الأثناء سُمع وقع أقدام على السطح من فوقهم، ولما لاحظت المرأة العجوز اهتمام تارو بذلك، أخبرتهما أن هناك بعض الجارات اللاتي يسكن على السطح، وعلمتا في نفس الوقت أن المنظر الذي يشاهد من هذا السطح منظر رائع، وأنه لما كانت أسطح المنازل تتلاقى عادة من إحدى جهاتها، فإنه من الممكن لنساء الحي أن يتزاورن دون أن يخرجن من منازلهن.

وقال العجوز:

- نعم، اصعدا إذن، ففي أعلى يوجد الهواء الطيب.

وألفيا السطح خاليًا ليس به إلا ثلاثة كراسي، ولاحظا أنه مهما يمد الإنسان بصره من إحدى الجهات فلن يرى سوى أسطح منازل تنتهي بمتاخمة كتلة حجرية مظلمة، تبينا فيها أول تلال المدينة. أما من الجهة الأخرى، فكان الناظر يرى -فيما وراء بعض الشوارع والميناء

غير المرئي - أفاقاً تختلط فيه السماء بالبحر في نوع من الخفقان غير المتميز، وكان هناك وراء ما يعلمان أنه الشاطئ الضحل ضوء لا يريان مصدره، ولكنه يظهر بصورة منتظمة، إنه فنار المرور الذي استمر يعمل منذ الربيع من أجل هداية سفن تولي هاربة إلى موانئ أخرى.

وفي سماء تجوبها الرياح وتجميلها كانت النجوم تتلألأ، ثم يأتي بريق الفنار بين الفينة والفينة فيضيف إلى تلالئها نوعاً من الرماد العابر، وكان النسيم يحمل رائحة التوابل والحجارة، وكان السكون يخيم على الكون. وقال ريو وهو يهم بالجلوس:

- إن الجو جميل كأن الطاعون لم يصعد هنا أبداً.

وكان تارو حيثنذ يدير له ظهره، وينظر إلى البحر، فأجابه بعد برهة:

- نعم، إن الجو جميل.

ثم أتى وجلس بالقرب من الطبيب، ونظر إليه بانتباه، وفي هذه الأثناء ظهر النور ثلاث مرات في السماء، وقد تصاعد من أعماق الشارع صوت أوان منزلية يصطدم بعضها ببعض، وقرع آذانهما صوت باب يصفق داخل البيت.

وقال تارو بصوت جد طبيعي:

- ألم تحاول أبداً، يا ريو، أن تعرف من أكون؟ أتكّن لي شيئاً من

الصدّاقة؟

وأجاب الطبيب:

- نعم، إنني أكنّ لك شعور الصداقة، ولكن الوقت كان أماناً

شحيحاً حتى الآن.

- حسن، إن هذا يطمئني، أتريد أن تكون هذه الساعة هي ساعة

الصدّاقة؟

ولم يجب ريو بأكثر من ابتسامة.

- حسن. ها هي ذي.

وفي هذه اللحظة سمعا ضوضاء إحدى العربات تنزلق فوق الأسفلت المبلل على مسيرة بضعة شوارع منهما، ثم تلتها بعض صيحات بعيدة غير واضحة، فقطع عليهما كل ذلك ما كان يحيط بهما من سكون مرة أخرى، ثم ما لبث السكون أن عاد -بما يحتمل من سماء ونجوم- فخيم على الرجلين. ونهض تارو ليطل من سور السطح ووجهه تجاه ريو الذي ظل مسترخياً على مقعده، ولم يكن يرى من تارو سوى كتلة واحدة بارزة في فراغ السماء، لقد تكلم طويلاً، وهذا مجمل حديثه على وجه التقريب:

«لكي نبسط الأمر يا ريو أبادر فأقول: إنني كنت أعاني من الطاعون قبل أن أعرف هذه المدينة وهذا الوباء، وهذا يعني أنني مثل غيري من الناس، ولكن هناك من الأشخاص من لا يعرفون ذلك أو من يستمرئون هذا الوضع، وهناك من يعرفون ذلك ويعملون على الخروج منه. أما أنا فقد كنت دائماً أريد الخروج.

فعندما كنت شاباً، كنت أعيش بفكرة براءة تي، أي أنه لم يكن لدي أفكار على الإطلاق، ولم أكن من النوع القلق، فقد بدأت بداية مناسبة، وكان كل شيء ينجح في يدي، كنت على وفاق مع الذكاء، في حالة طيبة مع النساء، كانت تداهمني بعض المشاغل، ولكنها سرعان ما

كانت تذهب من حيث أتت، وذات يوم بدأت أفكر، الآن...

«ينبغي أن أقول لك: إنني لم أنشأ مثلك نشأة فقيرة، فقد كان أبي محامياً عاقماً، وهو منصب كبير، ومع هذا لم يكن يبدو عليه ذلك؛ لأنه كان رجلاً سليم الطوية. أما أمي، فكانت بسيطة لا شخصية لها، وإذا كنت لم أكف يوماً عن حبها، فإني مع ذلك أفضل عدم الحديث عنها. كان أبي يهتم بي ويحبني، بل وأعتقد أنه كان يحاول أن يفهمني، وقد كانت له مغامرات خارج المنزل، وأنا الآن متأكد من ذلك، إلا أن هذا الأمر أصبح الآن أبعد من أن يغيظني، وكما كان متوقعاً منه كان في مسلكه هذا لا يؤدي شعور أحد، ولكي لا أطيل عليك الحديث لم يكن كثير الشذوذ، واليوم وقد مات فإني أدرك أنه إذا لم يكن قد عاش عيش القديس، فإنه أيضاً لم يكن بالرجل الشرير، كان بين بين. هذا كل ما هنالك، وكان من هذا النوع الذي يجعلك تشعر نحوه بود معتدل، بهذا النوع من الود الذي يحملك على الاستمرار فيه.

«ومع ذلك فقد كانت له خصلة مميزة؛ فإن كتابه المفضل الذي كان يقرؤه قبل أن ينام هو دليل القطارات لشيكس، وليس معنى هذا أنه كان كثير الأسفار، فلم يكن يسافر إلا في الإجازات، حيث يذهب إلى مقاطعة «بريتانيا» التي كان يملك فيها ضيعة صغيرة، ولكنه كان يستطيع أن يذكر لك ساعات قيام قطار باريس - برلين وعودته، وجميع الطرق التي يمكنك من السفر بين ليون وفارسوفيا، كما كان يستطيع أن يذكر لك بدقة عدد الكيلومترات بين العواصم التي تختارها، هل تستطيع أن تذكر كيف نسافر من بيانسون إلى شامونيكس؟ لا شك أن ناظر المحطة

نفسه لا بد أن يرتبك إذا ما طلبت منه ذلك. أما أبي فلم يكن يرتبك، فقد كان يتدرب كل مساء تقريبًا على إزادة معلوماته في هذه النقطة، وكان فخورًا بذلك. وأما أنا، فقد كان هذا مدعاة لتسلتي، وكثيرًا ما كنت أوجه إليه الأسئلة، وأشعر بغبطة كبيرة عندما أراجع إجاباته على دليل شيكس، وأجد أنه لم يخطئ، ولقد ربطت هذه التمرينات الصغيرة بيننا برباط وثيق، فقد كنت بالنسبة له جمهورًا من المستمعين يقدر همته ونشاطه. وقد كنت من ناحيتي أرى أن تفوقه فيما يختص بالسكك الحديدية يعادل أي تفوق آخر.

«ولكن يبدو لي أنني أترك العنان لنفسي، وقد يجرنني ذلك إلى أن أولي هذا الرجل الطيب أكثر مما يستحق من الأهمية، ولكنني ذكرت ذلك لكي أنتهي منه إلى أن تأثيره على مصيري لم يكن إلا تأثيرًا غير مباشر، فهو - على أكثر تقدير - قد منحني إحدى الفرص، فعندما بلغت السابعة عشرة، دعاني إلى الذهاب للاستماع إليه في المحكمة، وكان الأمر يتعلق بمسألة مهمة في محكمة الجنايات، ومن المؤكد أنه كان يظن أنه سيبدو في أحسن مظهره، بل وأعتقد أنه كان يعتمد أيضًا على هذه المظاهر الرسمية التي تبهر خيال صغار الشبان، وذلك لكي يحثني على الدخول في المهنة التي اختارها هو من قبل، ولقد قبلت دعوته لأدخل السرور إلى قلبه، ولكي أشبع عندي حب الاطلاع الذي كان يدفعني إلى رؤيته، والاستماع إليه في دور غير الدور الذي كان يلعبه في بيتنا، لم أكن أفكر في شيء أكثر من هذا. وكان ما يدور في المحكمة يبدو لي دائمًا طبيعيًا، ولا يمكن تفاديه كأحد استعراضات عيد ١٤

يوليو، أو حفلة توزيع الجوائز، كانت فكرتي عن هذا الموضوع جد غامضة، ولم يكن تفكيري فيه يسبب لي أي ضيق.

ومع ذلك فلم تعلق بذهني من ذلك اليوم إلا صورة واحدة، هي صورة أبي كمنذب، ولكن هذا الرجل القصير الفقير ذا الشعر الأحمر الذي كان يبلغ الثلاثين من عمره، كان يبدو لي وكأنه مصمم على الاعتراف بكل شيء، وكما لو كان يشعر برعب حقيقي مما فعل ومما سيفعلون به، حتى إنه لم تكد تمر بضع دقائق حتى كنت لا أقدر على تحويل بصري عنه. كان يبدو كبومة أذعرها الضوء القوي، لم تكن عقدة رباط عنقه تتفق تمامًا مع زاوية الرقبة، وكان يقرض أظافر إحدى يديه، يمناها، وباختصار، لن أطيل عليك، فقد فهمت طبعًا أنه كان حيًّا.

«أما أنا، فلم أكن قد أدركت ذلك إلا فجأة، إنني لم أكن قد فكرت فيه حتى الآن إلا على أساس أنه ينتمي إلى طائفة «المذنبين». ولا أستطيع أن أقول إنني كنت قد نسيت أبي في هذا الوقت، ولكن شيئًا ما قد قبض أحشائي، وانتزع مني كل انتباه آخر سوى ذلك الذي أوليته للمتهم. كنت لا أكاد أنصت إلى شيء، بل كنت أشعر أنهم يريدون قتل هذا الرجل الحي، ومررت بي لحظة هائلة حملتني كأنها الموج إلى جواره في عماية شديدة المراس، ولم أستيقظ إلا على مرافعة الاتهام يليقها أبي.

«لقد غيره الرداء الأحمر من الضد إلى الضد، ولم يعد ذلك الرجل الطيب الودود، وإنما راح فمه يهدر بالجمل والألفاظ الفخمة التي كانت تخرج منه تسعى دون توقف كأنها الأفاعي، وفهمت أنه يطلب الموت

لهذا الرجل باسم المجتمع، بل وأنه يطلب أن تقطع عنقه. نعم، إنه لم يقل سوى «هذا الرأس ينبغي أن يسقط»، ولكن الفرق ليس كبيراً على أي حال، والنتيجة واحدة ما دام قد حصل على هذا الرأس، وكل ما هنالك أنه لم يكن هو الذي يقوم بهذا العمل في ذلك الوقت. أما أنا -الذي تتبععت المسألة فيما بعد حتى خاتمتها- فقد نشأ عندي نحو هذا التعس تجاوب داخلي بلغ حدًا من العمق لم يعرف أبي مثله قط، وحسب العادة المتبعة، كان على أبي أن يحصر ما يسمونه -بتعبير مهذب- بالدقائق الأخيرة للمتهم، والذي ينبغي أن يسمى أشنع جرائم القتل.

«ومنذ تلك اللحظة لم أعد أستطيع رؤية دليل «شيكس» دون أن يعتريني امتعاض مروع، منذ تلك اللحظة صرت أهتم بالعدالة اهتمامًا يشوبه الاشمئزاز، كما صرت أهتم بأحكام الإعدام وتنفيذها، وتبين لي -والدوار يذهب بي كل مذهب- أن أبي لا بد أن يكون قد حضر مرارًا جريمة القتل هذه، وأن ذلك على وجه التحديد كان في الأيام التي يستيقظ فيها مبكرًا. نعم، فقد كان في هذه الحال يضبط ساعته المنبهة، ولم أستطع التحدث عن هذا إلى أمي، ولكنني رحت أراقبها مراقبة أكثر دقة من ذي قبل، ففهمت أنه لم يعد بينها وبينه أي علاقة شخصية، وأنها تحيا معه حياة العزوف. وقد ساعدني هذا -كما كنت أقول حينئذ- على إغذارها، ثم علمت فيما بعد أنه لم يكن ثمة ما أغفره لها؛ لأنها كانت قد عاشت حتى زواجها فقيرة، وأن الفقر قد علمها الخضوع والامثال.

«لعلك تتوقع بلا شك أن أقول لك إنني رحلت عنه بعد ذلك مباشرة. كلا، فقد بقيت معه عدة أشهر، بل قرابة العام، ولكن قلبي كان

قد أصبح مريضاً. وذات مساء طلب أبي ساعته المنبهة بحجة أنه يريد أن يصحو مبكراً، ولم أنم طوال الليل، ولما عاد في اليوم التالي، كنت قد غادرت البيت. ولنبادر بذكر أن أبي قد أرسل من يبحث عني وأني ذهبت لزيارته، ولكنني أخبرته في هدوء -دون أن أشرح له السبب- بأنني سوف أقتل نفسي لو اضطرني للعودة، وانتهى بي الأمر إلى الرضوخ لأنه كان هادئ الطبع، بعد أن ألقى عليَّ خطابه عن سخف ما يسمونه «أن يحيا كل إنسان حياته الخاصة» (وهكذا كان يفسر لنفسه تصرفي ولم أحاول أنا نكران ذلك)، ثم أعقد عليَّ آلاف النصائح، وكنتم الدموع الحقيقية التي كانت توشك أن تنهمر من عينيه، ومع ذلك فقد ظلت زمناً طويلاً أعود إلى البيت بانتظام لرؤية أمي، فكنت أقابله خلال تلك الزيارة، وأعتقد أنه اكتفى من ناحيته بهذه الصلة، أما من ناحيتي أنا، فلم أكن ناقماً عليه، ولكن كنت أشعر ببعض الحزن يحز في قلبي. ولما مات أخذت أمي معي، ولو لم تمت بدورها لظلت معي حتى هذه اللحظة.

«وإذا كنت قد تحدثت عن هذه البداية بكثير من التفصيل، فما ذلك إلا لأنها كانت في الحقيقة بداية كل شيء، أما الآن فسوف أجمل حديثي. لقد عرفت الفقر في الثامنة عشرة من عمري بعد أن كنت في يسر، ومارست مئات المهن لأكسب عيشي، وقد نجحت في ذلك إلى حد كبير. ولكن الأمر الذي كان يستولي على كل انتباهي هو أمر حكم الإعدام. كنت أريد أن أسوي حسابي مع البومة الحمراء، ونتيجة لذلك مارست السياسة كما يقولون، وكل ما هنالك أنني لم أكن أرغب في الإصابة بالطاعون، ولكنني اعتقدت أن المجتمع الذي أعيش فيه مجتمع

يقوم على أحكام الإعدام، وأناي إذا قاومت هذا المجتمع، كنت قد قاومت القتل. اعتقدت في ذلك كما أسر إليّ بعض الآخرين بمثله، ولكي أنتهي من هذه النقطة أقول: إن ذلك كان صحيحًا إلى حد كبير، فانضمت إذن إلى الآخرين الذين كنت أحبهم، والذين ما زلت أحبهم وبقيت معهم زمانًا طويلًا، وليس هناك من بلد في أوروبا لم أشاركه في كفاحه.

ولكن ما علينا.

«كنت أعرف طبعًا أننا نحن أيضًا كنا نصدر أحكامًا بالإعدام. ولكن كان يقال: لا بد من بعض الضحايا لكي نصل إلى عالم لا يقوم فيه أحد بقتل أحد، وكان هذا صحيحًا إلى حد ما، ولكن لعلني أنا لم أكن لأنوي الاستقرار في مثل هذا النوع من الحقيقة. أما أنني كنت مترددًا، فقد كان هذا مؤكدًا، ولكني بقيت أفكر في البومة، ومن ثم فقد أمكن لهذا الوضع أن يستمر، حتى كان ذلك اليوم الذي رأيت فيه حكمًا بالإعدام يُنفذ (وكان ذلك في المجر)، وإذا بنفس الدوار الذي أصابني وأنا طفل يتتأبني وأنا رجل، وأظلمت عيناي.

«ألم تر أبدًا رجلًا يموت رميًا بالرصاص؟ كلا، بكل تأكيد، فهذا يتم بناء على دعوة سابقة، ويختار له جمهور المشاهدين مقدمًا، والنتيجة أنك بقيت غارقًا في الكتب والصور المطبوعة، إن الأمر في مخيلتك لا يعدو عصابة للأعين، وعمودًا، وبعض الجنود الذين يقفون على بعد. كلا، فالأمر ليس كذلك، هل تعرف أن فيلق الجنود المكلفين بإطلاق النار يقف على بعد متر ونصف من المحكوم عليه؟ وهل تعرف

أن المحكوم عليه لو تقدم خطوتين إلى الأمام لاصطدم صدره بالبندق؟ وهل تعرف أنه على هذه المسافة القصيرة يصوب الرماة قذائفهم على منطقة القلب، فيحدثون فيها برصاصهم الكبير ثقباً تستطيع أن تدخل فيه قبضة يدك؟ كلا! إنك لا تعرف شيئاً من هذا؛ لأنه لا أحد يروي مثل هذه التفاصيل. إن نوم البشر أكثر قداسة من حياة المصابين بالطاعون؛ ذلك أنه لا يصح منع الناس الطيبين من النوم، فإن منعهم منه يدل على سوء الذوق، والذوق معناه عدم الإلحاح، هذا ما يعرفه الناس جميعاً. أما أنا، فلم أُنم منذ هذه اللحظة، وقد بقي ذلك المذاق الرديء في فمي، ولم أكف عن الإلحاح أي عن التفكير في ذلك.

«ولقد فهمت حينئذ أنني، أنا على الأقل، لم أكن قد كففت عن كوني مصاباً بالطاعون خلال تلك السنين الطويلة، على حين كنت أعتقد أنني أناضل بكل ما في وسعي ضد الطاعون، وعرفت أنني قد أسهمت بطريق غير مباشر في إعدام آلاف الأشخاص، بل وأنني قد تسببت في موتهم عندما أقررت الفعال والمبادئ التي جرتهم حتماً إلى حتفهم. أما الآخرون، فلم يكن يبدو عليهم الضيق لذلك، أو على الأقل، لم يكونوا يتحدثون عنه أبداً من تلقاء أنفسهم. ولكنني -أنا- أصبت بعقدة في حلقي، كنت معهم، ومع ذلك كنت وحدي... ولما كان يحدث لي أن أعبر عما يقلق ضميري، فقد كانوا يقولون لي: إنه ينبغي التفكير فيما هو موضع الفعل، ويدلون إليّ بحجج -أخاذاً في غالب الأحيان- لكي يجعلوني أزدرد ما أجد صعوبة في ازدراده، ولكنني كنت أجيبهم بأن كبار المصابين بالطاعون -هؤلاء الذين يلبسون «العباءات» الحمراء-

يدلون هم أيضًا بمثل تلك الحجج البديعة في مثل هذه الحالات، وأنني إذا قبلت قانون القوة القاهرة، وضروب الضرورة التي يذكرها صغار المصابين بالطاعون لم يعد في إمكاني رفض حجج الكبار، فكانوا يجيئونني بأننا إنما نعتبر قابلين لطريقة ذوي العباءات الحمراء، إذا تركنا لهم وحدهم حق إصدار أحكام الإعدام.

ولكني كنت أقول حينئذ لنفسي: إننا لو سلمنا مرة واحدة لما كان هناك داع للتوقف بعد ذلك. ويخيل إليّ أن التاريخ قد برهن على صواب رأيي؛ فها هم أولاء الناس في هذه الأيام يتسابقون في القتل. إنهم جميعًا قد شعروا بحمي القتل، وليس في مقدورهم أن يفعلوا غير ذلك.

«وأيًا ما كان، فإن ما يشغلني أنا لم يكن الإدلاء بالبراهين، بل المغامرة القذرة حيث تغدو بعض الأفواه المصابة بالطاعون تعلن لرجل مصفد بالسلاسل أنه سوف يموت، ويدبر كل شيء بحيث يموت حقيقة بعد ليال وليال من الاحتضار ينتظر خلالها أن يُقتل وهو مفتوح العينين، إن ما يهمني كان ذلك الثقب في صدره. وكنت أقول في نفسي: أما فيما يختص بي - وإلى أن يوجد حل لذلك - فإنه يجب عليّ أن أمتنع عن أن أؤيد، ولو مرة واحدة - واحدة فقط - تلك المجزرة المموجة، نعم لقد اخترت هذا العمى المتعمد انتظارًا لذلك اليوم الذي أرى فيه الأمور بمزيد من الوضوح.

«ومنذ تلك اللحظة لم يطرأ عليّ أي تغيير، وقد مر عليّ زمن طويل وأنا أشعر بالخجل، الخجل المميت؛ لأنني كنت - كنت أنا الآخر قاتلاً، ولو من بعيد، ولو بحسن نية. وبمرور الوقت لاحظت ببساطة

أنه حتى هؤلاء الذين كانوا خيرًا من غيرهم أصبحوا اليوم يعجزون عن منع أنفسهم من القتل أو من ترك غيرهم يقتلون؛ لأن ذلك كان جزءًا من المنطق الذي يعيشون فيه، وأنه لا يمكننا القيام بأي إشارة في هذا العالم دون أن يكون فيها مجازفة بالدفع إلى القتل، نعم لقد ظلمت أشعر بالخل من أننا جميعًا نعيش في الطاعون، ومن ثم فقدت سلام النفس وطمأنيتها. هذا ما قد تعلمته، وما زلت أبحث اليوم عن هذا السلام وتلك الطمأنينة محاولًا أن أفهمهم جميعًا وألا أكون العدو اللدود لأحد. وكل ما استطعت أن أعرفه هو أنه ينبغي لنا أن نعمل كل ما يمكن عمله حتى نكف عن أن نكون مصابين بالطاعون، وأنه بهذا - بهذا فقط - يمكننا أن نأمل في السلام، فإن لم يتيسر ذلك، كان لنا أن نأمل في الموت الهادئ، إن هذا هو ما يمكن أن يهدئ من روع الناس، وإذا لم يكن في ذلك إنقاذ لهم، فإنه يحد من الضرر الذي يلحق بهم وينزل به إلى أقل قدر ممكن، بل وقد يسمح لهم ببعض الخير، ولهذا قررت أن أرفض كل ما يسبب موت أحد من قريب أو بعيد، وكل ما يبرره سواء أكان ذلك لأسباب وجيهة أم سخيفة.

«ولهذا أيضًا لا أعلمني هذا الوباء شيئًا، اللهم إلا وجوب مقاومته بجانبك. إنني أعلم علم اليقين - نعم يا ربو فأنا أعرف كل شيء عن الحياة كما ترى جيدًا - أن علينا حمل الطاعون في جوفه لأنه لم يطعم؛ نعم، لم يطعم في هذا العالم بما يقيه من عدواه، وأنه ينبغي لنا أن نلاحظ أنفسنا باستمرار حتى لا يحدث في لحظة سهو أن نتنفس في وجه أحد الأشخاص فنلصق به العدوى. فالأمر الطبيعي هو الميكروب، أما ما

عدا ذلك من صحة ونزاهة وطهارة، فلست -إذا أردت- إلا أثرًا من آثار الإرادة، الإرادة التي ينبغي أن تتوقف لحظة واحدة. والرجل الشريف -أي الذي لا يكاد ينقل العدوى لأحد- هو ذلك الذي يبذل ما في جهده لكي لا يقع في السهو. والمرء يحتاج لكثير من الإرادة والتوتر حتى لا يصاب بالسهو، نعم يا ريو، إنه أمر شاق أن يصاب المرء بالطاعون، ولكن أشق منه أن يرفض المرء الإصابة به. ولذلك ترى المشقة الآن بادية على الجميع؛ لأن الجميع في يومنا هذا مصابون به إن قليلًا وإن كثيرًا. وهذا هو السبب في أن بعض الناس الذين يرغبون في الكف عن أن يكونوا مصابين به يقاسون أقصى درجات المشقة التي لم يعد يستطيع إخراجهم منها غير الموت.

«وإني لأعلم -في انتظار هذه اللحظة- بأنني لم أعد أساوي شيئًا بالنسبة لهذا العالم نفسه، وأني قد حكمت على نفسي بالمنفى المؤبد ابتداء من اللحظة التي عدلت فيها عن القتل، وأن الآخرين هم الذين سيصنعون التاريخ. وليس في وسعي أن أحكم -فيما يبدو- على هؤلاء الآخرين، فهناك صفة تنقصني لكي أكون قاتلاً عاقلاً. إن موقفي إذن ليس فيه شيء من التفوق؛ ولكنني الآن راض بأن أكون أنا، فقد تعلمت التواضع، وكل ما أقوله هو أنه توجد على هذه الأرض أوبئة وضحايا وأنه ينبغي لنا أن نرفض -ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً- أن نكون في صف الوباء. وهذا قد يبدو لك أمرًا بسيطًا، ولكني أدري أنه حق. ولقد سمعت الكثير من الحجج التي كادت تخدعني، والتي أفلحت في خداع عدد كاف من الرؤوس الأخرى، وجعلتها تقبل القتل، وعرفت الآن كل ما

يصيب الناس من شقاء سببه أنهم لا يتكلمون كلامًا واضحًا، ولذلك قررت أن أتكلم وأتصرف بوضوح؛ لكي أبلغ طريق الجادة، ومن ثم أقول: إنه توجد أوبة وضحايا، ولا شيء غير ذلك، فإذا كنت أقول ذلك، ثم أصبحت -أنا نفسي- وباء، فلا أقل من أن يكون هذا على غير قبول مني؛ ذلك أنني أحاول أن أكون قاتلاً بريئًا، ومن هنا ترى أنني لست بالكثير الطموح.

«ومما لا جدال فيه أنه ينبغي أن تكون هناك طائفة ثالثة، طائفة الأطباء الحقيقيين، ولكن الواقع أنهم قليلو العدد، فلا بد أن يكون ذلك أمرًا عسيرًا؛ ولذلك قررت أن أنضم إلى جانب الضحايا في كل مناسبة حتى أقلل من الخسائر؛ إذ إنني بين هذه الضحايا أستطيع -على الأقل- أن أبحث عن طريق للوصول إلى الطائفة الثالثة، أي إلى السلام».

وكان تارو -وهو يختم كلامه- يطوح ساقه ويضرب الأرض بقدمه ضربًا خفيفًا، وبعد فترة صمت نهض الطبيب قليلًا، وسأل تارو عما إذا كانت لديه فكرة عن الطريق الذي ينبغي اتباعه للوصول إلى السلام، فأجاب قائلاً:

- نعم.. إنه التعاطف.

ورن من بعيد جرس عربتين من عربات الإسعاف، وبالقرب من التل الحجري في أقصى المدينة كانت قد تجمعت الصيحات التي كانت منذ برهة غير واضحة، وفي الوقت نفسه سمع شيء ما يشبه الفرقة، ثم عاد الصمت يخيم من جديد عليهما. ولاحظ ريو تتابع ومضتين من ومضات الفئار، وبدت النسمات وكأنها قد اشتدت. وكان مصداق ذلك

أن هبت في نفس اللحظة نسمة من البحر تحمل معها رائحة الملح،
وصار الرجلان يسمعان الآن بوضوح صوت تكسر الموج على الشاطئ
الضحل، وقال تارو ببساطة:

- ومهما يكن من شيء، فإن الذي يهمني هو معرفة الطريقة التي
تجعل من الإنسان قديسًا.

- ولكنك لا تؤمن بالله.

- بالضبط، فإن المشكلة المشخصة الوحيدة التي تواجهني اليوم،
هي معرفة ما إذا كان من الممكن أن يكون هناك قديس دون إله.

وفجأة انبثق نور كبير من الناحية التي صدرت منها الصرخات،
وقرعت آذانهما هتافات غامضة جاءت إليهما مع تيار الريح، ثم أظلم
النور فجأة، ولم يبق من أثره سوى بعض الاحمرار فوق حافات الأسطح
البعيدة، وتوقفت الرياح قليلًا، فتمكننا من سماع صرخات بشرية واضحة،
تلاها صوت طلقات داوية، ثم هتافات جمهرة من الناس، ونهض تارو
وأخذ يرهف أذنيه للإنصات، ثم لم يعودا يسمعان شيئًا، وقال تارو:

- لقد وقع أيضًا بعض القتال عند أبواب المدينة.

وأجاب ريو:

- لقد انتهى الآن.

وتمتم تارو قائلاً: إن الأمر لم ينته في يوم من الأيام، وإنه سيقع
ضحايا جدد؛ لأن هذه طبيعة الأشياء.

وأجاب الطبيب:

- ربما، ولكنك تعرف أنني أشعر في نفسي بأني أقدر على التضامن مع المهزومين مني مع القديسين، فإني على - ما أعتقد - أميل إلى البطولة والقداسة. كل ما يهمني أن أكون إنسانًا. ورد تارو بقوله:

- نعم، فكلانا يبحث عن نفس الشيء، ولكنني أقل منك طموحًا. وظن ريو أن تارو كان يمزح، ولكنه نظر إليه، فرأى تحت ذلك الضوء الخافت الذي كانت تبعث به السماء وجهًا حزينًا صارمًا، وهبت الريح من جديد، وشعر بها ريو دافئة على بشرته، وانتفض تارو، وهو يقول:

- أتعرف ماذا ينبغي لنا فعله لنبارك صداقتنا؟

وقال ريو:

- كما تريد.

- أخذ حمام بحر. إن تلك متعة تستحق العناء، حتى بالنسبة لمن سيصبح قديسًا.

وابتسم ريو، وقال:

- إن تصرّيات المرور التي نحملها تخول لنا الذهاب إلى الشاطئ.

- ومن الحق ألا نعيش إلا في الطاعون، فمن الطبيعي أنه يجب على المرء أن يقاتل من أجل الضحايا، ولكنه إذا ما كف عن حب أي شيء آخر خارج ذلك النطاق، فما جدوى القتال؟

وأجاب ريو:

- نعم، لنذهب!

وما هي إلا لحظة حتى كانت السيارة تتوقف قرب أسوار الميناء، وكان القدر قد ارتفع وأخذت السماء الصافية تلقي بالظلال الشاحبة على كل مكان، ومن خلفهما كانت تتدرج المدينة، وكانت تهب منها عليهما ريح ساخنة مريضة فتدفعهما إلى البحر دفعاً، وأبرزتا أوراقهما لأحد الحراس الذي ظل يفحصهما مدة طويلة نسبياً. ومرا وسط رائحة النيذ والسّمك عبر كومة مغطاة بالبراميل، واتجها في طريق الشاطئ، وقبل أن يصلا إليه بقليل، كانت رائحة اليود والأعشاب البحرية تعلن إليهما أنهما قد اقتريا منه، وما لبثا أن سمعا خرير مياهه.

كان البحر يرسل صفيراً هادئاً عند أقدام كتل الحاجز الضخمة، وكان يبدو لهما -وهما ينحدران نحوه- سميك القوام كالمخمل مرناً ناعماً كجسم الدابة، واستقر بهما المقام فوق الصخور المتجهة نحو عرض البحر، وكانت المياه تعلو ثم تعود فتهبط ببطء. وكان البحر يتنفس بهدوء، فينشأ عن ذلك ضوء زيتي على صفحة الماء ثم يعود فيختفي، وكان الليل أمامهما لا حدود له. وراح ريو يتحسس بأطراف أصابعه محيا الصخور المتأكلة، ووجهه يطفح بالسعادة، والتفت ناحية تارو، فتبين في وجه صديقه الهادئ الصارم نفس السعادة التي لا تنسى شيئاً، حتى ولا القتل. وخلعا ملابسهما، وكان ريو أول من ألقى بنفسه في الماء الذي بدا بارداً، ولكنه كان يبدو لهما دافئاً وهما يغادرانه، وعرف ريو بعد بضع ضربات من ذراعيه أن البحر هذا المساء دافئ دفء بحار الخريف التي تمتص من الأرض الحرارة التي اختزنتها خلال شهور طويلة. كان يسبح سباحة منتظمة، وكانت ضربات قدميه تترك خلفها زبداً يفور، وكأن الماء

ينزلق على امتداد ذراعيه لكي يلتصق بساقيه، ثم ما لبث أن وصل إلى سمعه صوت شيء ثقيل يسقط في الماء عرف منه أن تارو قد ألقى بنفسه إلى البحر. واستلقى ريو على ظهره، وظل ساكنًا ووجهه نحو السماء المعكوسة أمام ناظره، وقد غصت بالقمر والنجوم، ثم أخذ نفسًا عميقًا، وبعد ذلك أخذ يسمع ضوضاء خبطات على الماء تزداد شيئًا فشيئًا، وتتميز بوضوح وسط سكون الليل ووحشته، ذلك أن تارو كان يقترب منه، وبعد قليل وصل إلى سمعه صوت أنفاسه، والتفت ريو إليه في غير وضعه حتى صار في مستوى صديقه، وأخذ يسبح في تناسق معه، وكان تارو يتقدم بقوة تفوق قوته، فاضطر إلى أن يسرع الخطى، وما هي إلا دقائق حتى كانا يسبحان -بنفس الوتيرة ونفس القوة- وحدهما بعيدين عن العالم، وقد تحررا أخيرًا من المدينة ومن الطاعون، وكان ريو أول من توقف، وعادا أدراجهما ببطء لم يقطعاه إلا عندما دخلا منطقة تيار شديد البرودة، فحينئذ حثا سيرهما -هما الاثنان- دون أن ينبسا بكلمة، وقد ألهتهما سياط تلك المفاجأة البحرية.

وارتديا ملابسهما من جديد، وسارا دون أن يتفوها بكلمة، ولكن كانا متحدي القلبين، وكانت ذكرى هذه الليلة في نفسيهما كلها حلاوة. ولما لاحت لهما دورية الحراسة الخاصة بالبواب على بعد، كان ريو يعرف أن تارو يقول في نفسه نفس ما يقوله هو، من أن الممرض كان قد نسيهما هذه اللحظة، وأن ذلك لم يكن إلا عين الخير، وأن عليهما الآن أن يبدأ من جديد.

نعم، ينبغي أن يبدأ من جديد، فالطاعون لا ينسى أحدًا لمدة طويلة، وفي خلال شهر ديسمبر احتدمت نار الطاعون في صدور مواطنينا، وأشعل أتونه، وملأ المعسكرات بظلال خاوية الأيدي، ولم يكف عن التقدم بمشيته الرتيبة وصبره الطويل، وكانت السلطات تعتمد على الأيام الباردة لإيقاف هذا التقدم، ومع ذلك فقد سار الطاعون خلال الأيام الأولى لموسم البرد القارس دون ملل أو كلال؛ فكان علينا إذن أن نواصل الانتظار، ولكن طول الانتظار يولد عدم الانتظار، وهكذا كانت مدينتنا بأجمعها تعيش بلا مستقبل.

أما لحظة السلام والصداقة الخاطفة التي فاز بها الطبيب، فقد كانت بلا غد. لقد افتتح مستشفى جديد، ولم يعد ريو يخلو إلا إلى المرضى، ومع ذلك، فقد لاحظ في هذه المرحلة من مراحل الوباء، حيث كان الطاعون يتحول إلى الشكل الرئوي يومًا بعد يوم بدا المرضى وقد أخذوا يعاونون الطبيب بصورة ما، فبدلاً من أن يستسلموا إلى ضروب التخبط والحماقة التي عرفت عنهم في البداية، ظهروا بمظهر من يفهمون مصلحتهم حق فهمها، فقد راحوا هم أنفسهم يطلبون أن تطبق عليهم الإجراءات التي يمكن أن تعود عليهم بالفائدة؛ كانوا يطلبون شرب الماء دون انقطاع، كما كانوا جميعاً يطلبون الدفء، وعلى الرغم من أن الطبيب قد ظل مرهقاً مكدوداً، فقد كان يشعر بأنه أصبح في هذه

الظروف أقل وحدة من ذي قبل.

ونحو نهاية شهر ديسمبر تسلم ريو من أوتون قاضي التحقيق الذي ما برح يعيش في المعسكر خطابًا يقول: إن مدته في الحجر قد انقضت، ولكن إدارة المعسكر قد فقدت تاريخ دخوله، ولذا فمن المؤكد أنهم لا يزالون يستبقونه خطأ في معسكر الحجر. وقد قدمت زوجته التي خرجت منذ حين اعتراضًا إلى المديرية، ولكنها استقبلت استقبالا جافًا، وقيل لها: إنه لا يمكن أن يقع خطأ ألبته، وطلب ريو من رامبير التدخل في هذه المسألة، وما هي إلا بضعة أيام حتى رأى السيد أوتون قادمًا نحوه؛ فقد كان هناك في الواقع خطأ، وقد اغتاز ريو لذلك بعض الشيء، ولكن السيد أوتون الذي كان قد ازداد تحولًا عن ذي قبل، رفع إليه يدًا رخوة وقال -وهو يلوك كلماته-: إن كل إنسان معرض للوقوع في الخطأ، ولاح للطبيب أن هناك شيئًا فيه كان قد تغير، وقال:

- ماذا تنوي أن تفعل يا سيدي القاضي؟ إن ملفاتك في انتظارك.

وأجاب القاضي:

- لا، لا. إنني أريد أن أطلب إجازة.

- الواقع أنك في حاجة إلى الراحة.

- ليس هذا هو السبب، ولكنني أرغب في العودة إلى المعسكر.

ودهش ريو لهذا الأمر، وقال:

- ولكنك خارج منه الآن!

- لعلني لم أحسن التعبير عما أريد. لقد قيل لي: إن هناك متطوعين من الإدارة في هذا المعسكر.

وأخذ القاضي يدير عينيه المستديرتين، وهو يحاول أن يسوي إحدى خصل شعره، ثم واصل كلامه قائلاً:

- على هذا النحو سأجد لي عملاً يشغلني كما ترى، ثم بذلك - وقد يبدو لك هذا سخيًّا - سوف أشعر أنني أقل بعدًا عن ولدي الصغير.

وجعل ريو ينظر إليه.. لم يكن من الممكن أن تحل الرقة فجأة في هاتين العينين القاسيتين، ولكنهما كانتا قد أظلمتا بعض الشيء، وفقدتا صفاءهما المعدني.

وقال ريو:

- بكل تأكيد، سوف أهتم بهذا الأمر؛ ما دمت ترغب فيه.

ولقد اهتم الطبيب بذلك فعلاً، واستمرت الحياة في مدينة الطاعون كما هي حتى عيد الميلاد، وظل تارو يلف في كل مكان يصحبه هدوءه الواقعي. وذات يوم أسر رامبير إلى الطبيب أنه استطاع أن يجد طريقة للمراسلة مع زوجته عن طريق الحارسين الصغيرين، وأنه أصبح يتلقى منها الرسائل على فترات بعيدة، ثم عرض على ريو أن يستفيد هو الآخر من هذه الطريقة، وقبل ريو ذلك. وللمرة الأولى منذ أشهر طويلة كتب ريو، ولكن بصعوبة لا حد لها، فقد كانت لديه لغة ثم فقدتها، وسافر الخطاب، وتأخر وصول الرد. أما كوتار، فقد استمرت أحواله في ازدهار وصار غنيًّا بفضل مضارباته الصغيرة، وأما جران، فإنه لم يكن

سعيد الطالع خلال فترة الأعياد.

كان عيد الميلاد في تلك السنة عيد الجحيم أكثر منه عيد الإنجيل؛ فقد كانت الدكاكين خاوية ومحرومة من الأنوار، و«الشوكولاتة» إما زائفة وإما علبًا فارغة من محتوياتها وضعت في الواجهات الزجاجية. أما عربات الترام، فقد كانت تغص بالوجوه المظلمة، ولم يكن هناك شيء يذكرنا بأعياد الميلاد السابقة؛ ففي هذا العيد الذي كان يتقارب فيه الجميع - من غني وفقير فيما سلف - لم يعد هناك مكان إلا لبعض المتع الفردية المشينة التي كان المحظوظون يحصلون عليها بسعر الذهب في القسم الخلفي من دكان قدر. كانت الكنائس مليئة بالأنات لا بصلوات الشكر. أما شوارع المدينة القاتمة الباردة، فكان يجري فيها بعض الأطفال وهم في جهل مما يهددهم، ولكن لم يكن أحد ليجرؤ على أن يعلن إليهم قدوم رب السنين السالفة المحمل بالهدايا، والذي هو قديم قدم الآلام البشرية، ولكنه جديد جدة الأمل الشاب. لم يعد هناك مكان في قلوب الناس إلا لأمل شيخ متوغل في الشيخوخة مفرط في الوجوم، وهو ذلك الأمل الذي كان يمنع الناس من أن يلقوا بأنفسهم إلى الموت، والذي لم يكن سوى مجرد تصميم على الحياة.

وفي ليلة العيد لم يحضر جران في الموعد المحدد، وقلق ريو من أجله، فمر بمنزله في الصباح ولم يجده، وعم القلق الجميع، وفي حوالي الساعة الحادية عشر حضر رامبير إلى المستشفى ليخبر ريو بأنه شاهد جران من بعيد يطوف في الشوارع، وقد تغيرت ملامح وجهه، ثم

ما لبث أن حاد عن بصره. واستقل الطبيب السيارة وبرفقتة تارو، وذهبا معاً للبحث عنه.

وفي ساعة الظهيرة القارسة البرد، نزل ريو من سيارته ليرى جران من بعيد، وهو يكاد يلتصق بإحدى الواجهات الزجاجية المليئة باللعب المحفورة في الخشب حفرًا رديئًا.. كانت الدموع تسيل على وجه ذلك الموظف العجوز دون توقف. واضطرب ريو لرؤية هذه الدموع؛ لأنه كان يفهمها ويحسها في تجويف حلقه، وعاد بذاكرته هو الآخر إلى يوم خطبة هذا التمس، عاد بذاكرته أمام أحد الحوانيت في يوم من أيام عيد الميلاد، وإلى جان وقد ارتمت عليه لتقول له: إنها سعيدة، فمن أغوار السنوات البعيدة حيث صميم تلك المغامرة كان صوت جان النضر قد عاد إلى جران، وهذا مما لا شك فيه. نعم، لقد كان ريو يعرف ما يجول بخاطر ذلك الرجل الهرم الباكي، وكان مثله يفكر في أن هذا العالم الخالي من الحب أشبه شيء بعالم ميت، وأنه لا بد من أن تمر بنا ساعة نملّ فيها السجن والعمل والشجاعة، ونسترجع فيها وجهًا حبيبًا إلينا، قلبًا مبهورًا يفيض بالحنان.

ولكن جران لمحه في المرأة، فاستدار إليه دون أن يكف عن التشيج، وأسند ظهره على الزجاج؛ لينظر إليه وهو يتقدم نحوه، وأخذ يردد:

— آه يا دكتور! آه يا دكتور!

وراح ريو يهز رأسه موافقًا؛ لأنه عجز عن الكلام.

ذلك أن هذا الحزن كان حزنه هو أيضًا، وذلك الذي كان يعصر قلبه في تلك اللحظة لم يكن إلا الغضب الهائل الذي يجتاح الإنسان أيام

الألم الذي يتقاسمه الناس جميعًا، وأخيرًا قال له:

- نعم يا جران.

وواصل جران كلامه قائلاً:

- أتمنى أن أجد الوقت الذي أستطيع فيه أن أكتب لها خطابًا لكي تعرف... حتى تستطيع أن تكون سعيدة دون أن يعذبها تأنيب الضمير.

وبنوع من العنف، أخذ ريو يدفع جران أمامه، واستجاب جران لدفعه، وترك له تقريبًا زمام أمره، وهو يتمتم بأطراف جمل، ويقول:

- منذ مدة طويلة جدًا وأنا أعاني هذا الألم.. بودي أن أستسلم، لا بد من ذلك. آه يا دكتور! يبدو أن عليّ الاطمئنان على النحو الذي تراه، ولكنني كنت أبذل أقصى مجهود لمجرد أن أبدا طبيعياً. أما الآن، فقد بلغ السيل الزبى.

ثم توقف، وقد ارتفعت جميع جوارحه، وزاغت عيناه.

وأمسك ريو بيده، لقد كانت ملتفة، ثم قال:

- ينبغي أن نعود إلى البيت.

ولكن جران أفلت منه وعدا بضع خطوات، ثم توقف وأخذ يترنح إلى الأمام وإلى الخلف، ويدور حول نفسه، ثم سقط على الإفريز، وقد صار جسمه في برودة الثلج، واتسخ وجهه بتأثير الدموع التي استمر انهمارها. وكان المارة يراقبون المشهد من بعيد، وقد توقفوا فجأة دون أن يجرؤ أحدهم على الاقتراب. واضطر ريو إلى أن يأخذ الرجل الهرم بين ذراعيه.

وأصبح جران هو الآخر طريق الفراش يكاد يختنق فيه؛ لقد التقطت رثاه العدوى، واسترق ريو في التفكير، وراح يقول في نفسه: إن هذا الموظف لا عائلة له، فما فائدة نقله؟ سوف أقوم بعلاجه هنا أنا وتارو. وكان جران يُرى غائصاً في تجويف وسادته وقد اخضر لون بشرته، وانطفأ بريق عينيه، وأخذ يحدق النظر في النار الصغيرة التي أشعلها تارو في المدفأة ببقايا أحد الصناديق القديمة، وقال: إن الحالة سيئة.

وكان ينبعث من أعماق رثتيه الملتهبتين نوع غريب من الأزيز يرافق كل ما يقول، ونصحه ريو بأن يلوذ بالصمت، ثم همّ بالخروج قائلاً: إنه سوف يعود. ولاحت ابتسامة غريبة على وجه المريض ممزوجة بنوع من الحنان، وافترت شفثاه بعد مجهود كبير، ثم غمز بعينه، وقال: «لو خرجت من ذلك سالمًا، لكان علينا أن نرفع قبعاتنا احترامًا يا دكتور»، ولكنه لم يكده يقول ذلك حتى خارت قواه.

وبعد بضع ساعات أقبل ريو وتارو، فألفيا المريض جالسًا نصف جلسة في سريره، وارتاع ريو لما قرأ على وجهه من تقدم المرض الذي كان يحرقه حرقًا، ومع ذلك فقد كان يبدو أكثر صفاء من ذي قبل، ولم يكده يلمحهما حتى نطق بصوت فيه عمق غريب يرضوهما أن يحضرا له المخطوط الذي كان قد وضعه في أحد الأدراج، وناولوه تارو الأوراق فضمها إليه دون أن ينظر إليها، ثم أعادها إلى الطبيب، وهو يدعو بحركة منه إلى قراءتها. كان مخطوطًا صغيرًا في نحو خمسين صفحة، وتصفح الطبيب هذه الأوراق، فوجد أنها لا تنطوي إلا على جملة واحدة، قد أعيت كتابتها مرات لا حصر لها، كانت تُعدّل، وتارة يزداد

عليها، وتارة أخرى يحذف منها. وباستمرار كانت الفارسة وممرات الغابة تتلاقيان بأساليب مختلفة، وكانت المخطوطة تحوي -فضلاً عن ذلك- بعض الشروح التي كان بعضها يطول طويلاً غير مناسب، وكذلك بعض الفقرات المُعادَة كتابتها بصور مختلفة، وقد كتب جران في نهاية الصفحة الأخيرة بخط معتنى به وبحبر حديث هذه الجملة: «عزيزتي جان، إن اليوم يوم عيد الميلاد»، وفوق ذلك سطر بخط جميل آخر نسخة من جملته.

وقال جران: «اقرأ»، وقرأ ريو:

«في يوم جميل من أيام مايو، كانت فارسة جميلة تمتطي صهوة جواد أشهب رائع، وتجوب ممرات الغابة وسط الزهور»، وقال العجوز بصوت تصارعه الحمى:

- هل هو هذا؟

ولم يرفع ريو عينيه نحوه.

وقال جران وقد بلغ به الاضطراب كل مبلغ: «إنني أعرف جيداً أن «جميلة» ليست هي الكلمة المناسبة.

وأمسك ريو بيده من فوق الغطاء، فقال:

- اتركني يا دكتور، لم يعد أمامي وقت كاف.

وأخذ صدره يعلو بصعوبة، وفجأة صرخ قائلاً:

- أحرقه.

وتردد الطبيب، ولكن جران كرر أمره بلهجة صارمة وصوت ينم

عن ألم هائل، فاضطر ريو إلى أن يلقي بالأوراق في النار التي كانت في سبيل الخمود، وبسرعة عاد الضوء إلى الغرفة، وانتشرت فيها حرارة عابرة. ولما عاد الطبيب إلى المريض، كان هذا الأخير يدير له ظهره ووجهه يكاد يلامس الجدار، وأخذ تارو ينظر من النافذة، كما لو كان المشهد لا يهمه. وبعد أن حقنه ريو بالمصل، قال لصديقه: إن هذه الليلة لن تنقضي على جران وهو حي، فعرض تارو أن يظل بجواره، ووافق الطبيب على ذلك.

وظلت فكرة موت جران تلاحقه طوال الليل، ولكن لم يكد صباح اليوم التالي يبرز، حتى رأى ريو جران جالساً في فراشه يتحدث إلى تارو؛ لقد انقشعت الحمى، ولم يبق عليه من علائم المرض إلا الإجهاد العام.

فقال له الموظف الهرم:

- آه يا دكتور، لقد أخطأت، ولكنني سأبدأ من جديد... إنني ما زلت أذكر كل شيء، وسوف ترى ذلك.

وقال ريو لتارو:

- لنتنظر.

ولكن الظهر أقبل ولم يتغير شيء، وفي المساء كان من الممكن اعتبار جران قد جاوز نطاق الخطر، ولم يستطع ريو تعليل هذا البعث. وفي هذه الفترة ذاتها -تقريباً- أحضرت إلى ريو مريضة رأى أن حالتها تدعو إلى اليأس، ولذا أمر بعزلها فور وصولها المستشفى.

كانت الفتاة تهذي في غيوبتها، وقد ظهرت عليها كل أعراض الطاعون الرئوي، ولكن في صباح اليوم التالي كانت الحمى قد انخفضت، وظن الدكتور أن هذه هي فترة الانتعاش الصباحي، كما حدث في حالة جران، وكانت التجارب قد علمته أن هذا الانتعاش يعتبر نذيراً سيئاً، ومع ذلك، ففي وقت الظهيرة لم تعد الحرارة إلى الارتفاع من جديد، وفي المساء لم تزد سوى بضعة خطوط قليلة فقط، وفي صباح اليوم التالي كانت قد اختفت. وراحت الفتاة، رغم الضعف البادي عليها، تتنفس براحة في سريرها. وقال ريو لتارو: إنها نجت خلافاً لكل القواعد، ومع ذلك، ففي خلال هذا الأسبوع وردت أربع حالات مماثلة إلى المستشفى التي يعمل بها الدكتور ريو.

وفي نهاية الأسبوع نفسه استقبل الرجل الهرم المريض بالربو الطبيب وتارو بكل مظاهر الاضطراب الشديد، وهو يقول:

- لقد انتهى الأمر، إنها ما زالت تخرج.

- من؟

- ومن تكون غير الفئران!

ومنذ بدأ شهر أبريل لم يكتشف أحد وجود فأر نافق.

وقال تارو لريو:

- هل معنى هذا أننا سنبدأ من جديد؟

وأخذ الرجل الهرم يفرك يديه، وهو يقول:

- ينبغي أن تراها تجري! إنه منظر سار.

لقد رأى فأرين حيين يدخلان عنده من باب المنزل، وأخبره بعض جيرانه أن هذه الحيوانات قد عادت للظهور في منازلهم، وفي بعض مخازن الأخشاب بدأ الناس يسمعون حركتها، بعد أن كانوا قد نسوها منذ أشهر، وانتظر ريو إعلان الإحصاء العام الذي يتم في بداية كل أسبوع، وقد كشف هذا الإحصاء عن تراجع المرض.



وعلى الرغم من أن مواطنينا لم يكونوا يأملون في هذا التراجع المفاجئ للمرض، فإنهم لم يندفعوا إلى الابتهاج؛ ذلك أن الأشهر المنصرمة، وإن كانت قد قوّت فيهم الرغبة في التحرر، فإنها علمتهم الحذر، وعودتهم على مر الأيام ألا يعولوا كثيرًا على نهاية قريبة للوباء، ومع ذلك فإن هذا الحدث الجديد كان حديث الناس جميعًا، وقد تولد في أعماق القلوب أمل كبير راح ينبض فيها دون أن يعلن عنه أحد.

أما ما عدا ذلك من أمور، فقد تراجع إلى الدرجة الثانية من الأهمية. وأما ضحايا الوباء الجدد، فقد قلت قيمتهم أمام هذا الحدث البالغ؛ لقد هبطت الإحصائيات. وكان من العلامات الدالة على توقع الناس عودة عهد الصحة - وإن لم يعلقوا على ذلك آملًا صريحة - أن مواطنينا كانوا قد أخذوا منذ تلك اللحظة يتحدثون بحرية، يشوبها مع ذلك شيء من عدم الاكتراث، عن الطريقة التي سوف يعاد بها تنظيم الحياة بعد الطاعون.

كان الجميع متفقون على أن متع الحياة القديمة لن تعود كلها طفرة واحدة؛ لأن الهدم أسهل من البناء. كانوا يرون أنه من الممكن أن يتحسن التموين ذاته، وكان من شأن هذا التحسن أن يخلصهم من أكثر مشاغلهم إلحاحًا، ولكن الواقع أنه كان وراء هذه الملاحظات المسكنة أمل جامح انطلق من عقاله فجأة، حتى إن مواطنينا كانوا في بعض الأحيان يتنبهون من ذات أنفسهم إلى هذا الغلو، فيسارعون إلى

التأكيد بأنه مهما كانت الحال، فإن الخلاص لن يكون في اليوم التالي.

وفي الواقع لم يتوقف الطاعون في اليوم التالي، ولكن كان من الواضح أنه يضعف بأسرع مما كانوا يأملون. وقد طغى البرد في الأيام الأولى من يناير بشكل ملح لم يتعوده الناس من قبل، كما لو كان قد تبلور في سماء المدينة، ومع ذلك لم يحدث قط أن كانت السماء أكثر زرقة مما كانت في هذه الأيام؛ كان جمالها الثلجي الجامد يغرق مدينتنا أياً ما بطولها في ضوء لا ينقطع، وفي هذا الجو النقي المصفى، استمر الطاعون ثلاثة أسابيع، يلاقي الكبوة بعد الكبوة، وكان كأنه ينزف قواه في صفوف الجثث التي كان يرصها، والتي أخذ عددها في التناقص شيئاً فشيئاً. وفي مدة وجيزة فقد الجانب الأكبر من قواه التي كان قد ظل يعبئها شهوراً طويلة، وكان يرى الضحايا تتفلت من قبضته مثل جران ومريضة ريو، أو وهو يستشري لمدة يومين أو ثلاثة في بعض الأحياء، في حين يختفي اختفاء تاماً من أحياء أخرى، أو وهو يضاعف عدد ضحاياه يوم الإثنين، ثم يراها تفلت منه جميعاً تقريباً يوم الأربعاء. كان الناس يرونه على هذا النحو لاهثاً أو مندفعاً، فلا يسعهم الاقتناع بأن الوباء يتفكك لتوتر أعصابه، أو لإنهاك قواه، وأنه إذا بدأ يفقد سيطرته على نفسه، راح في نفس الوقت يفقد نظامه الرياضي الناجح الذي كان السبب في قوته.

ولاقى مصل كاستل -فجأة- سلسلة من النجاح كان الوباء قد ضمن بها عليه حتى الآن، وبدا أن كل إجراء من تلك الإجراءات التي كانت من قبل لا تؤدي إلى نتيجة، قد صار الآن يصيب هدفه بكل دقة. كان واضحاً أن الطاعون قد أصبح بدوره مطاردًا، وأن ضعفه المفاجئ كان

السبب في قوة الأسلحة المغلولة التي كانت توجه إليه حتى الآن، ولكنه كان من حين لآخر يستعيد شيئاً من قوته فيودي -فيما يشبه القفزات العشواء- بثلاثة أو بأربعة من المرضى الذين كان شفاؤهم مأمولاً. كان هؤلاء هم التعساء الذين قتلهم الطاعون والأمل يحيط بهم، وكان من هؤلاء القاضي أوتون الذي اضطر القوم إلى إخراجه من معسكر الحجر الصحي، وقد قال عنه تارو: إنه في الواقع كان سيئ الحظ، ولا ندري ما إذا كان يعني بذلك موت القاضي أم حياته.

ومهما يكن من شيء، فقد أخذت العدوى تتراجع على طول الخط، أما بلاغات الإدارة التي كانت تثير في أول الأمر أملاً خفياً يتعثر خجلاً، فقد انتهت بأن أكدت في ذهن الجماهير الاعتقاد بأن النصر قد أصبح مضموناً، وأن المرض أخذ يخلي مراكزه، ولقد كان الأمر يتعلق بانتصار حقيقي. وعلى أي حال، كان الناس مضطرين إلى الاقتصار على القول بأن المرض يبدو كما لو كان قد رحل إلى حيث أتى، ولم تكن خطة المقاومة التي رسمت له منذ البداية قد تغيرت، ولكنها أصبحت الآن ناجحة بعد أن كانت بالأمس غير ذات جدوى، كان يخيل إلى الناس أن المرض قد خارت قواه من تلقاء نفسه، أو أنه أخذ يتراجع بعد أن حقق كل أهدافه، إن مهمته كانت قد انتهت بشكل ما.

ومع ذلك، فقد كان من الممكن أن يظن بأنه لم يتغير شيء في المدينة؛ فقد ظلت ساكنة بالنهار، أما في المساء، فكانت الشوارع تغص بالجموع ذاتها التي تسود فيها المعاطف والتلافيح، وأما دور السينما والمقاهي، فقد ظلت على حالها. هكذا كنا كلما نظرنا إلى الأمور من

قرب أمكننا أن نلاحظ أن الوجوه قد زال عنها الانقباض بعض الشيء،
وأنها تبسم أحياناً، وبهذه المناسبة كان الناس يلاحظون أنه لم يكن
هناك حتى ذلك الحين من يتسم في الطرقات؛ فلقد حدث في الواقع
بعض التمزق في الحجاب الكثيف الذي كان يحيط بالمدينة منذ أشهر،
وأصبح كل منا يستطيع في أيام أن يلاحظ من أخبار الراديو أن التمزق
يزداد اتساعاً، وأن الناس سوف يتمكنون أخيراً من التنفس. نعم، لقد
كان كل ذلك فرحاً سلبياً لم يأخذ بعد شكله الصريح، ولكن إذا كان
الناس من قبل يسمعون بأن قطاراً قد غادر المدينة، أو أن سفينة قد
وصلت، أو أن السيارات سوف يسمح لها من جديد بالمسير، ارتابوا
في صدق الخبر، فإن إعلان مثل هذه الأنباء حوالي منتصف شهر يناير
لم يكن على النقيض من ذلك ليحدث أي دهشة. لا شك أن هذا التغير
ليس بالكثير، ولكنه مهما كان طفيفاً في صورته العامة، كان يدل دلالة
واضحة على التقدم الضخم الذي أحرزه مواطنونا في طريق الأمل؛ ذلك
أنه ابتداء من هذه اللحظة أصبح أضعف الآمال محتمل التحقق بالنسبة
للسكان، ومن ثم يمكننا القول بأن العهد الفعلي للطاعون كان قد انتهى.
ومع ذلك، فقد ظل رد فعل مواطنينا طيلة شهر يناير متناقضاً؛
فكانوا يتنقلون بين حالتي الانتقاض والانهيار، ولذلك كنا نرى حدوث
محاولات جديدة للهروب، في الوقت الذي كانت فيه الإحصاءات قد
وصلت إلى أحسن صورها، وكان هذا مما يدهش السلطات ومراكز
الحراسة ذاتها؛ إذ إن أغلب حالات الهرب كانت قد نجحت. ولكن
الحقيقة أن أولئك الذين كانوا يهربون في هذه الأوقات، كانوا ينزلون

على حكم إحساسي طبيعي؛ فإن الطاعون قد زرع في نفوس البعض شكًا عميقًا لم يستطيعوا منه خلاصًا، ولم يعد للأمل أي سلطان على نفوسهم. وفي الوقت الذي انصرم فيه زمن الطاعون، ظل هؤلاء يعيشون في نفس الحياة التي كان قد عودهم عليها الطاعون. لقد كانوا متأخرين في متابعة مجرى الأحداث، وعلى العكس من ذلك، كانت الحال لدى البعض الآخر، وجلهم كانوا من أولئك الذين عاشوا حتى الآن بعيدين عن الأشخاص الذين يحبونهم، فإن ربح الأمل التي هبت عليهم بعد هذا الوقت الطويل من الحبس والانهيار، قد أشعلت فيهم من الحمى وعدم الصبر ما انتزع منهم كل سيطرة على أنفسهم، فقد استولى على هؤلاء نوع من الذعر حين فكروا أنهم -وقد أصبحوا قاب قوسين من غايتهم- قد يموتون دون أن يروا أولئك الذين يحبونهم، وبذلك تذهب كل الآلام الطويلة التي تحملوها هباء. فبينما هم قد ثابروا وصبروا شهورًا طويلة، وقاوموا السجن والنفي بنوع من التصميم الغامض، نرى أن أول أمل لاح كان كافيًا لتحطيم ما لم يستطع الخوف واليأس تحطيمه، وهكذا اندفعوا كالمجانين يريدون أن يسبقوا الطاعون بدلًا من اتباع خطاه حتى اللحظة الأخيرة.

وأيا ما كان، فقد ظهرت في نفس الوقت بعض علامات التفاؤل المفاجئة؛ فقد سُجل انخفاض محسوس في الأسعار، وكان هذا حدثًا لا يمكن تفسيره من الناحية الاقتصادية الخالصة، ذلك أن الصعوبات كانت قد ظلت كما هي، واستمرت إجراءات الحجر الصحي سارية عند الأبواب، كما بقيت حالة التموين بعيدة عن التحسن. لقد كنا نمر

إذن بظاهرة معنوية خالصة، كما لو كان لتراجع الطاعون صدى يتردد في كل مكان. وفي الوقت ذاته، أدرك التفاؤل أولئك الذين كانوا يعيشون من قبل مجتمعين، ثم قضى عليهم الطاعون بالافتراق. وهكذا بدأ الديران المقامان في المدينة في إعادة تنظيمهما، واستطاعت الحياة المشتركة أن تعود إلى مجاريها، وهذا ما حدث أيضًا بالنسبة للعسكريين، حيث تم تجميعهم من جديد في الثكنات التي كانت قد ظلت حتى الآن خاوية، وهناك استأنفوا من جديد حياة الثكنات العادية، ولقد كان لهذين الحدثين الصغيرين مغزى كبير.

عاش السكان في هذا الاضطراب الخفي حتى الخامس والعشرين من يناير، وفي ذلك الأسبوع انخفضت الإحصائيات انخفاضًا شديدًا لدرجة أن الإدارة أعلنت بعد استشارة اللجنة الطبية، أنه يمكن أن يعتبر الوباء شبه منته. نعم، لقد أضاف البلاغ أنه من باب الحذر الذي لن يعدم السكان أن يوافقوا على مقتضياته، تقرر البلدية أن أبواب المدينة ستظل مغلقة لمدة أسبوعين آخرين، وأن الإجراءات الوقائية ستظل سارية المفعول لمدة شهر آخر، وخلال تلك الفترة -إذا ظهرت في هذه الأثناء أي إشارة تدل على عودة الوباء- فإن حالة الطوارئ ستظل باقية، وتُمد الإجراءات إلى ما بعد المدة المقررة في البلاغ، ولكن الناس كانوا كلهم مجمعين على اعتبار هذه الإضافات ضربًا من الروتين البحت. وفي مساء اليوم الخامس والعشرين من يناير، كانت شوارع المدينة تمتلئ بالهرج الذي مبعثه البهجة، وأراد المدير أن يشارك الناس في فرحهم، فأصدر أمره بإعادة الإضاءة إلى ما كانت عليه أيام الصحة. وهكذا راح مواطنونا

يتدفقون في جماعات صاحبة ضاحكة في الشوارع المتلائة بالأنوار.

ومن المؤكد أنه كانت هناك بيوت كثيرة ظلت نوافذها الخشبية مغلقة، كما لو كانت هناك أسر قضت في صمت تلك السهرة التي ملأها آخرون بالضجيج. ومع ذلك فإن الكثيرين من هؤلاء الذين كانوا يعيشون في حداد، كانوا في حالة ارتياح عميق، إما لأن خوفهم من فقد أقارب جدد قد هدأ، وإما لأنهم هم أنفسهم لم يعودوا في خطر، ولكن الأسر التي ظلت أكثر من غيرها بعداً عن البهجة العامة، كانت دون شك تلك التي تضم في هذه اللحظة مريضاً ما زال يناضل الطاعون في أحد المستشفيات، أو تنتظر -إما في بيوت الحجر الصحي، أو في منازلها- أن يزول عنها الوباء كما زال عن غيرها. لا شك أن هذه الأسر كانت تشعر بشيء من الأمل، ولكنها كانت تجعل منه زاداً تحتفظ به لوقت الحاجة، وتمتنع عن أن تنهل منه قبل أن يصير لها فعلاً هذا الحق، وكان هذا الانتظار، هذه السهرة الصامتة في منتصف المسافة بين الاحتضار والفرح، تبدو لهم أشد قسوة وسط الابتهاج العام.

ولكن هذه الحالات الاستثنائية لم تكن لتذهب بشيء من رضى الآخرين، وأغلب الظن أن الطاعون لم يكن قد انتهى بعد، وقد قام هو نفسه بتقديم الدليل على ذلك.

ولكن جميع هذه الأذهان التي تعجلت الأمر بضعة أسابيع كانت ترى القطارات تسافر مرسلّة صفيها في طرق لا نهاية لها، والسفن ترسم خطوط سيرها على سطوح بحار مشرقة، وفي اليوم التالي كان لا بد لهذه الأذهان أن تزاد هدوءاً، أو أن تقع فريسة للشك من جديد.

ولكن المدينة كانت في الوقت الحاضر في هرج، فغادرت تلك الأماكن المغلقة المظلمة الجامدة التي أنشبت فيها جذورها الحجرية، وأخذت تسير حاملة ما تبقى لها من أحياء. وفي هذا المساء، أخذ تارو وريو ورامبير والآخرين يسرون وسط الجماهير، وكانوا يشعرون هم أيضًا بالأرض وكأنها تميد تحت أقدامهم، وبعد أن غادر تارو وريو الشوارع الكبيرة بمسافة بعيدة، كانا لا يزالان يسمعان هذه البهجة تلاحقهما، في نفس اللحظة التي كانا فيها يمران في شوارع مقفرة تحت نوافذ خشبية مغلقة. ولم يكن في وسعهما -وربما كان ذلك بسبب ما يشعران به من تعب- فصل هذه الآلام التي ما برحت قائمة خلف النوافذ الخشبية المغلقة عن تلك البهجة التي كانت تملأ الشوارع على بعد ليس بالكبير. إن الخلاص المقرب كان ذا وجه تختلط فيه الضحكات بالدموع.

وفي اللحظة التي بلغ فيها الضجيج أقصى مداه وأبهى درجاته، توقف تارو؛ فقد رأى هناك شبحًا يجري بخفة وسط الشارع المعتم، وكان شبح قطة، أول قطة تُرى منذ الربيع، وقد توقفت القطة لحظة وسط الشارع، وبدأ عليها التردد، وراحت تلعق قدمها وملست بها بخفة على أذننها اليمنى، ثم عادت إلى سيرها الصامت، واختفت في ظلمة الليل، وابتسم تارو، ومن المحتمل أن يكون الهرم القصير قد سر هو الآخر لهذا المنظر.



ولكن في اللحظة التي بدا فيها أن الطاعون سيتعد ليعود أدراجه إلى الجحر المجهول الذي خرج منه في صمت، كان هناك شخص في المدينة يشيع هذا الرحيل بالوجوم، ولم يكن هذا الشخص إلا كوتار، كما تقول مفكرة تارو.

والحقيقة أن هذه المفكرة تتسم بالغرابة منذ اللحظة التي بدأت فيها الإحصائيات في الهبوط. فهل يرجع السبب في ذلك إلى التعب؟ لقد صار خطها لا يُقرأ إلا بصعوبة، وكثيراً ما تقفز من موضوع إلى آخر، هذا إلى أن تلك المفكرة أضحت لأول مرة بعيدة عن الموضوعية التي استعاضت عنها بالملاحظات الشخصية. وهكذا ترانا إذ نقرأ فقرات طويلة عن حالة كوتار، نعثر في وسطها على تقرير صغير عن الرجل الهرم صديق القطط. ويعترف تارو نفسه بأن الطاعون لم يقلل من اعتباره لهذه الشخصية التي استمرت تهمه بعد الوباء، كما كانت تهمه من قبل، وإن لم يصبح من الممكن -لسوء الحظ- أن يتابع هذا الاهتمام، رغم أن استعداد الطيب لمتابعته لم يكن له دخل في ذلك؛ ذلك لأنه قد سعى فعلاً لرؤيته، فلم تمض بضعة أيام على سهرة الخامس والعشرين من يناير، حتى كان قد وقف في ركن الشارع الصغير، وكانت القطط هنالك تصطلي في تلك الرقع الصغيرة من الشمس التي حافظت على اتخاذها مكاناً لموعدها، ولكن حانت الساعة المعهودة، وظلت النوافذ الخشبية مغلقة في إصرار، وبعد ذلك تعاقبت الأيام دون أن يراها تارو

تفتح مطلقاً، واستنتج من ذلك بصورة غريبة أنه لا بد أن يكون العجوز الضئيل الجسم معتل المزاج، أو أن يكون قد مات، وأنه إذا كان معتل المزاج، فذلك لأنه كان يرى أنه على حق وأن الطاعون قد كذب رأيه. أما إذا كان قد مات، فلا بد من التساؤل في هذه الحالة - كما في حالة العجوز المريض بالربو - عما إذا لم يكن قديساً. ولم يكن تارو يظن أنه قديس، ولكنه كان يرى في حالة العجوز «دلالة ما»، فتقول المفكرة: إنه «قد لا يكون هناك إلا صورة تقريبية من القداسة، وفي هذه الحالة ينبغي أن نكتفي بنوع متواضع خير من الشيطانية».

ونجد كذلك في المفكرة ملاحظات أخرى عديدة، مبعثرة - في غالب الأحيان - بعضها عن جران الذي يقضي الآن فترة النقاهة، بعد أن عاد إلى عمله، كما لو لم يكن قد حدث شيء، وبعضها يدور حول أم الدكتور ريو، ولكنها جميعاً مختلطة بملاحظات عن كوتار؛ فلقد دوّن تارو فيها بعناية شديدة بعض المحادثات - التي سمح له الاشتراك في المسكن - تبادلها مع السيدة ريو، كما تكلم عن حركات هذه السيدة العجوز وابتسامتها وملاحظات الخاصة بالطاعون، ويهتم تارو اهتماماً خاصاً بتلاشي شخصية السيدة ريو، وبطريقتها في التعبير عن كل شيء بجمل بسيطة، وبالميل الخاص الذي كانت تظهره نحو نافذة معينة تطل على الشارع الهادئ، حيث كانت تجلس خلفها في المساء مستقيمة القامة بعض الشيء، ساكنة اليدين متيقظة النظرات، وتظل كذلك حتى يسود الغروب الغرفة، ويحيلها إلى ظل أسود وسط الضوء القاتم الذي تزداد حلكته شيئاً فشيئاً، حتى يذوب فيها ذلك الظل الجامد. كما تهتم

المفكرة أيضًا بخفة حركتها في التنقل من حجرة لأخرى، وبطيئة قلبها التي لم تقدم عنها أي دليل واضح أمام تارو، ولكنه كان يلوح ويمضها في كل ما تقوم به من عمل وكل ما تفوه به من قول، وتقول المفكرة إنها - في رأيه - كانت تعرف كل شيء دون تفكير، وأنها - رغم كل ما كان يحيط بها من صمت وظل - كانت تستطيع الصمود في مستوى أي ضوء حتى ولو كان ضوء الطاعون، وهنا يأخذ خط تارو يبين عن اختلال غريب... هذا إلى أن السطور التي تتلو ذلك قد أصبحت صعبة القراءة، وكأن تارو يريد أن يقدم لنا دليلًا جديدًا على هذا الاختلال، فجعل الكلمات الأخيرة من هذه السطور أولى الكلمات التي يتحدث فيها عن شخصه؛ إذ يقول:

«هكذا كانت أُمي، كنت أحب فيها هذا التلاشي نفسه، وهي التي كنت أحب دائمًا أن ألحق بها. ولا يمكنني - منذ ثماني سنوات - أن أقول إنها قد ماتت، ولكنها قد تلاشت أكثر من المعتاد، وعندما عدت لم تكن هناك».

ولكن ينبغي أن نعود إلى كوتار؛ فمنذ أن هبطت الإحصائيات ازدادت زيارته لريو، وكان يبدي لذلك مختلف الحجج، ولكن الحقيقة أنه كان كلما زاره طلب منه بعض التكهّنات عن سير الوباء، فيقول مثلاً: «أتظن أنه من الممكن أن يتوقف هكذا دفعة واحدة دون إرهاب؟»، لقد كان في شك من هذه النقطة، أو على الأقل هذا ما كان يصرح به، ولكن الأسئلة المتجددة التي كان يوجهها كانت تدل - على ما يبدو - على قلة الاقتناع. وفي منتصف شهر يناير كان ريو متفائلاً بعض الشيء

في إجاباته، وكان رد فعل هذه الإجابات على كوتار يختلف في كل مرة باختلاف الأحوال، ولكنه كان يتأرجح بين الشعور بالضيق والانهيار، وإزاء ذلك اضطر الدكتور إلى أن يقول له: إنه على الرغم من أن الدلائل التي تقدمها لنا الإحصائيات تؤيد فكرة انتهاء الوباء، إلا أنه يجدر بنا -حتى الآن- ألا نسارع بإعلان النصر.

فأضاف كوتار قوله:

- أو بمعنى آخر، أننا لا نعرف شيئاً، فقد يعود الوباء من جديد بين يوم وآخر؟

ورد ريو قائلاً:

- نعم، كما أنه من المحتمل أيضاً أن يسير الشفاء بأسرع مما يفعل الآن.

ويبدو أن هذا الريب الذي كان من شأنه أن يقلق الناس جميعاً كان ينزل برذاً وسلاماً على كوتار. ولقد حدث ذات مرة -على مشهد من تارو- أن كان كوتار يتكلم مع بعض تجار حيه، وانتهاز الفرصة ليزيع رأي ريو. نعم، لم يكن من الصعب أن ينجح في ذلك؛ إذ إنه لم تكد تمضي حمى الانتصار الأولى حتى عاد إلى كثير من الأذهان شك كان قد بقي مستقرّاً فيها، رغم موجة المرح التي سببها بلاغ المديرية، والحقيقة أن كوتار كان يشعر بمزيد من الاطمئنان إزاء مشهد هذا القلق، ولكنه كان في أحوال أخرى يفقد شجاعته، ومن ذلك أنه كان يقول لتارو في بعض الأحيان:

«نعم، سوف يأتي -في نهاية الأمر- ذلك اليوم الذي نفتح فيه

الأبواب، وحينئذ سوف ترى أن الجميع سيتخلون عني».

وكان الجميع يلاحظون عليه عدم استقرار الطباع حتى اليوم الخامس والعشرين من يناير، فكان يعمل على التقرب من أهل حيه ومعارفه، ثم لا يلبث بعد ذلك أن يعتزلهم فجأة، ويظل على هذه الحال أيامًا طويلة، كان في هذه الحال يعتزل الناس -في الظاهر على الأقل- ما بين عشية وضحاها ويحيا في وحشة تامة، ولا يعود أحد يراه في المطعم أو في المسرح أو في المقاهي التي يفضلها. ومع ذلك لم يكن يبدو عليه أنه قد عاد إلى الحياة الرتيبة الكثيبة التي كان يحياها قبل الوباء. كان يعيش في عزلة تامة في مسكنه، ويبعث في استحضار وجبات طعامه من مطعم مجاور. وفي المساء فقط كان يخرج خفية لبيتاع حاجياته، حتى إذا ما خرج من الحوانيت اندفع إلى شوارع مقفرة. وكان تارو إذا صادفه في هذه الأثناء لم يحصل منه إلا على مقاطع كلمات، وبعد ذلك، ودون أي مرحلة انتقالية، يرى وقد عاد اجتماعيًا يتحدث مليًا عن الطاعون، ويطلب بإلحاح رأي كل فرد فيه، ويعود إلى الانغماس في غمار الناس كل ليلة. وفي اليوم الذي أصدرت فيه المديرية بلاغها، اختفى كوتار عن الأنظار اختفاءً تامًا. وبعد يومين قابله تارو وهو يهيم في الشوارع، فطلب كوتار منه أن يصحبه إلى الحي الخارجي، وتردد تارو؛ لأنه كان يشعر بتعب شديد إثر يوم مرهق، ولكنه اضطر إلى القبول تحت إلحاح صاحبه، كان الاضطراب بادئًا على كوتار، وكان يأتي بحركات غير منتظمة، ويتكلم بسرعة وبصوت مرتفع، ثم ما لبث أن سأل رفيقه عما إذا كان تصريح المديرية يضع حقيقة نهاية الوباء، وبطبيعة الحال كان

من رأي تارو أن أي تصريح أو رأي لا يكفي في حد ذاته لإيقاف وباء ما، وأنه على الرغم من ذلك، لم يكن من الإسراف في القول بالتصريح بأنه سوف يتوقف، ما لم يحدث ما ليس في الحسبان. وقال كوتار:

- نعم، إذا لم يحدث ما ليس في الحسبان. والواقع أنه يحدث دائماً شيء لم يكن في الحسبان.

فلفت تارو نظره إلى أن المديرية لم تلغ من اعتبارها ما ليس في الحسبان، حين قررت عدم فتح الأبواب قبل مضي أسبوعين، فقال كوتار وهو لا يزال مكفهر الوجه مضطرباً:

- وحسناً فعلت؛ لأن جميع الدلائل تشير إلى أنها ربما كانت قد تكلمت عبثاً.

وكان من رأي تارو أن هذا ممكن الحدوث، ولكنه كان يرى من الأوفق احتمال فتح الأبواب عما قريب، وعودة الحياة الطبيعية إلى مجاريها.

وقال له كوتار:

- لنسلم بذلك جدلاً، ولكن ما الذي تعنيه بعودة الحياة الطبيعية؟

فقال تارو وهو يتسم:

- أفلام جديدة في دور السينما.

ولكن كوتار لم يتسم، كان يريد أن يعرف ما إذا كان يحق لنا أن نظن أن الطاعون لم يغير في المدينة شيئاً، وأن كل شيء سوف يبدأ من جديد، كما كان من قبل، أي كما لو لم يكن قد حدث شيء، وكان

من رأي تارو أن الطاعون سوف يغير المدينة ولن يغيرها؛ ذلك أن أحر رغبات المواطنين كانت تنحصر -وستظل منحصرة- في أن يعودوا إلى تصرفاتهم العادية، كما لو لم يكن قد حدث شيء، وعلى ذلك فلن يتغير شيء من هذه الناحية، ولكن من ناحية أخرى، لن يمكن نسيان كل شيء، حتى ولو أردنا ذلك بكل جوارحنا؛ ولذلك فلا بد أن يترك الطاعون آثاره على الأقل في القلوب.

وحينئذ صرح الرجل المتوسط الحال في وضوح تام، بأنه لا يهتم بالقلب، بل وبأن القلب آخر ما يشغله، وإنما يهمه أن يعرف ما إذا كان النظام نفسه لن يتغير، وما إذا كانت الخدمات العامة والإدارات ستستمر في عمل ما كانت تعمل في الماضي. واضطر تارو إلى أن يقرر أنه لا يعرف شيئاً عن ذلك، وكان من رأيه أنه لا بد من افتراض أن هذه المكاتب التي سادها الاضطراب طوال مدة الوباء، لا بد أن تعاني بعض التعب لكي تنهض من جديد، كما أنه يمكن الاعتقاد بأنه ستجد مجموعة من المشاكل الجديدة التي من شأنها أن تتطلب -على الأقل- إجراء تنظيم شامل لمكاتب الخدمات العامة القديمة.

وقال كوتار:

- آه، هذا محتمل في الواقع؛ إذ إنه يجب أن يبدأ كل فرد من جديد. وهنا كان الرجلان قد وصلا في سيرهما قرب منزل كوتار الذي كان قد اشتعل حماساً، وانحاز نحو التفاؤل، وأخذ يتخيل المدينة وهي تحاول أن تحيا من جديد، فشطبت كل ماضيها، وبدأت من الصفر.

وقال تارو:

- حسن، أيًا ما كان، فقد تتحسن الأحوال بالنسبة لك أيضًا، فإنها حياة جديدة -على نحو ما- تلك التي ستبدأ.

وهنا كانا قد وصلنا أمام الباب، فشد كل منهما على يد الآخر، وقال كوتار في اضطراب متزايد:

- إنك على حق، فإن من الخير أن نبدأ من الصفر.

وفي هذه اللحظة برز من وسط ظلام الدهليز شعبا رجلين، ولم يكدا تارو يسمع رفيقه وهو يتساءل ماذا كان ينبغي هذان العصفوران اللذان كانا يبدوان كموظفين في ملابس يوم الأحد، حتى أخذنا يسألان كوتار عما إذا كان هو من يُدعى كوتار، فصدرت من هذا الأخير صيحة تعجب مكتومة، ودار حول نفسه، ثم غاص في ظلام الليل دون أن يجدان هذان الرجلان أو تارو من الوقت ما يسمح لهم بالقيام بأي حركة، ولما ثابوا إلى أنفسهم، سأل تارو الرجلين عما يريدان، فقالا بلهجة متحفظة مهذبة: إن الأمر يتعلق ببعض الاستفسارات، ثم انطلقا بوقار في الاتجاه الذي سار فيه كوتار.

ولما عاد تارو إلى بيته سجل هذا المشهد، ثم عقب على ذلك بقوله: إنه كان متعبًا -وكان خطه خير دليل على صدقه- وأضاف أنه كان لا زال أمامه من العمل الشيء الكثير، وأن ذلك لم يكن ليمنعه من أن يكون على أهبة الاستعداد، ثم تساءل عما إذا كان حقًا على أهبة الاستعداد؟ وفي ختام كلامه أجاب على تساؤله بقوله: إن هناك دائمًا ساعة من النهار والليل يصير فيها المرء جبانًا، وأنه لم يكن يخشى إلا هذه الساعة، (وهنا تنتهي مفكرة تارو).

وبعد ذلك بيومين، وقبل فتح الأبواب ببضعة أيام، كان الدكتور ريو يعود إلى منزله ظهرًا، وهو يتساءل عما إذا كان سيجد البرقية التي كان ينتظرها؟ وعلى الرغم من أن مهامه في هذه الأيام لم تكن ثقل عما كانت عليه في أقصى مراحل الوباء، فإن توقعه للخلاص النهائي كان يبدد كل متاعبه، ذلك أن الأمل كان يحدوه، وقد كان سعيدًا بذلك. والحقيقة أنه ليس في مقدور المرء أن يشد إرادته ويقبض أساريه دائمًا، وإنه لمن السعادة أن يحل المرء -وسط مظاهر الابتهاج- رباط تلك الباقية من الجهد التي كان قد أعدها للكفاح، فإذا قدر لريو أن يجد البرقية التي كان ينتظرها في صالحه هي الأخرى، كان في وسعه أن يبدأ من جديد، لقد كان هو الآخر يرى أن كل الناس يبدأون من جديد.

ومر ريو أمام حجرة البواب، وكان البواب الجديد قد التصق بزجاج النافذة وراح يبتسم له، وأخذ يصعد السلم وهو يعيد النظر إلى وجهه الذي أشعبه الإجهاد وضروب الحرمان.

نعم كان سيبدأ من جديد عندما ينتهي الغموض، وكان سيجد أمامه الفرصة مواتية أكثر من ذي قبل، ولكن في نفس اللحظة التي كان فيها يهمّ بفتح الباب، أقبلت عليه أمه لتخبره أن السيد تارو لم يكن على ما يرام، فقد نهض في الصباح، ولكنه لم يستطع الخروج، فعاد إلى فراشه، وكانت السيدة قلقة، فقال لها ابنها:

- قد لا يكون الأمر خطيرًا.

كان تارو ممددًا في فراشه، وقد غاص رأسه الثقيل في تجويف الوسادة، وكانت خطوط صدره القوي تبدو واضحة من تحت الغطاء الكثيف. كان يشكو من ارتفاع في الحرارة وألم في الرأس، وقال لريو: إن الأعراض التي يشعر بها غامضة، ومن المحتمل أن تكون أعراض الطاعون.

وأجاب ريو بعد أن فحصه:

- كلا، ليس هناك شيء محدد حتى الآن.

ولكن تارو كان نهبًا للعطش، وفي الدهليز قال الدكتور لأمه: إن هذه الحالة قد تكون بداية الطاعون.

وقالت هذه:

- يا إلهي! هذا غير ممكن، ليس في هذا الوقت!

ثم أضافت على الفور:

- لنبقه معنا يا برنار.

وأخذ ريو يفكر، ثم قال:

- إنني لا أملك هذا الحق، ولكن الأبواب على وشك الفتح، وأعتقد أن هذا أول حق كنت أمنحه لنفسه لو لم تكوني معي.

فردت عليه بقولها:

- لنبقه معنا يا برنار، فأنت تعرف جيدًا أنه قد أعيد تطعيمه.

وأجاب الدكتور: إن تارو قد طعم، ولكن من المحتمل ألا يكون قد أخذ الحقنة الأخيرة تحت تأثير التعب، أو أن يكون قد نسي اتخاذ بعض الاحتياطات.

وذهب ريو إلى مكتبه، ولما عاد إلى الغرفة لاحظ تارو أنه يحمل أنابيب المصل الضخمة، فقال له:

- أهو ذلك؟

- كلا، ولكنه إجراء وقائي.

وكان كل رد تارو على ذلك أن مد ذراعه، وصمد للحقنة الكبيرة التي تستغرق وقتاً لا يكاد ينتهي، والتي كان هو نفسه يعطيها للآخرين.

وحقق ريو في وجه تارو، وقال:

- سوف نرى هذا المساء.

وأجابه تارو:

- والعزل يا ريو؟

فقال:

- ليس هناك ما يؤكد أنك مصاب بالطاعون.

وابتسم تارو بجهد، وقال:

- هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها حقناً بالمصل لا يصحبه أمر بالعزل.

وأدار ريو ظهره، وقال:

- سوف أتولى علاجك أنا وأمي، سوف تكون هنا أكثر راحة.

وصمت تارو، وراح الطبيب يعمل في ترتيب الأنايب، وهو ينتظر أن يسمع تارو يعاود الكلام لكي يستدير ناحيته ثانية، وفي النهاية اتجه هو إلى السرير، فرأى المريض ينظر إليه ووجهه بادي التعب، ولكن عينيه كانتا هادئتين، وابتسم له ريو، وقال:

- حاول أن تنام إن استطعت، وسوف أعود بعد قليل.

وما إن وصل إلى الباب حتى سمع صوت تارو يدعو، فعاد إليه. ولكن تارو كان كمن يقاوم الكلمة التي يريد قولها، وأخيرًا نطق قائلاً:

- ينبغي أن تقول لي كل شيء يا ريو، إنني في حاجة إلى ذلك.
فأجابه:

- أعدك بذلك.

وتقلص كل وجهه بعض الشيء في شبه ابتسامة، وواصل كلامه قائلاً:

- شكرًا، ليست بي رغبة إلى الموت، وسوف أقاوم، ولكن إذا لم يكن بد من فقدان الجولة، فإنني أرغب أن أنتهي نهاية طيبة.
ومال ريو عليه، وضغط على كتفه، ثم قال:

- كلا، فلنكن قديسًا يجب أن تعيش، ينبغي أن تقاوم.

وفي أثناء النهار أخذ البرد الذي كان قارسًا يخفف من حدته بعض الشيء، ثم تبعه في فترة ما بعد الظهر وابل عنيف من المطر والبرد، وعند الغروب انقشعت السحب قليلًا، واشتدت حدة البرد من جديد.

وفي المساء عاد ريو إلى بيته، وقبل أن يخلع معطفه دخل غرفة صديقه، وهناك كانت أمه تشتغل بالإبرة، وبدا تارو وكأنه لم يتحرك من المكان الذي كان يضطجع فيه، ولكن شفثيه اللتين كانتا قد ابيضتا من الحمى كانتا تعبران عن الكفاح الذي كان يبذله.

وقال له الطبيب:

- وبعد؟

وهز تارو قليلاً كتفيه الممتلئتين خارج السرير، وقال:

- وبعد؟! إني في سبيل فقدان الجولة.

وانحنى الطبيب عليه، وهناك رأى بعض العقد التي تكونت تحت الجلد المحموم، وبدا صدره كما لو كان يردد كل أنواع الضوضاء التي تصدر من مصنع حدادة يقع تحت الأرض، ومن الغريب أنه كانت تبدو عليه سلسلتا الأعراض كلاهما، وقال ريو وهو ينهض: إن المصل لم يتوفر له الوقت الكافي بعد لكي يثبت مفعوله، ولكن نوبة من نوبات الحمى كانت قد أخذت تحشرج في حلقه، فغطت على الكلمات التي كان تارو يحاول النطق بها.

وبعد العشاء أتى ريو وأمه، وجلسا بجانب المريض، وقد بدأ ليله خلال مقاومته. وكان ريو يعرف أن هذه المعركة القاسية مع ملك الطاعون لا بد أن تستمر حتى الفجر، ولم تكن كتفاه القويتان وصدره العريض أمضى أسلحته، ولكن كان أقواها ذلك الدم الذي جعل ريو منذ لحظة يفجره من تحت إبرته، وفي مجرى الدم ذلك الشيء الذي يعد

أعمق من الروح، والذي لا يستطيع أي علم أن يوضحه. أما هو، فما كان في مقدوره إلا أن يشاهد نضال صديقه. أما ما كان سيفعله هذا الأخير، أمام الخرايب التي يجب أن يعالجها، والمقويات التي يجب أن يحقنه بها، فإن أشهرًا طويلة من الفشل المتواصل قد علمته كيف يقدر مفعولها حق قدره. الواقع أن مهمته الوحيدة كانت تنحصر في منح الطريق لهذه الصدفة التي كثيرًا ما ترفض العمل إلا إذا دُعيت له، وكان ينبغي لهذه الصدفة أن تعمل؛ ذلك لأن ريو كان قد وجد نفسه أمام صورة محيرة للطاعون، فلقد تعمد مرة أخرى أن يضلل خطط المقاومة التي اتخذت ضده، فظهر في الأماكن التي لم يكن أحد ينتظره فيها ليختفي من أماكن أخرى، كان يبدو للجميع أنه قد استقر فيها، مرة أخرى تعمد الطاعون أن يشير دهشة الناس.

كان تارو يقاوم دون أن يتحرك، لم يحدث مرة واحدة خلال الليل أن قاوم ضربات الداء بالاضطراب، كان يقاومها فقط بكل جسمه العريض، وكل سكونه، وكذلك ما من مرة واحدة حاول فيها أن يتكلم، وكان هذا اعترافًا منه -على طريقته- بأن التسلية لم تعد ممكنة بالنسبة له.

وأخذ ريو يتتبع مراحل المعركة في عيني صديقه اللتين كانتا تنفرجان تارة، وتغمضان أخرى، وفي جفنيه اللذين كان يقبضهما بشدة على حدقتي عينيه حينًا ويتركهما على السجية حينًا آخر، فيحدق في أحد الأشياء، أو في الطبيب وأمه، وكان كلما التقت نظرتيه بنظرة الطبيب ابتسم، ولكن بكل مشقة.

وأنت لحظة أخذاً فيها يسمعان وقع أقدام تسارع الخطى في الشارع، كانت خطى من يولي الأدبار أمام صوت يتهدده من بعيد، وأخذ ذلك الصوت يقترب شيئاً فشيئاً حتى انساب فملاً الطريق، لقد عاد المطر إلى الهطول، ثم ما لبث أن امتزج بالبرد الذي كانت دقاته تُسمع على الأفاريز بوضوح، وراحت الستائر الكبيرة تتموج أمام النوافذ.

وكان ريو الذي قبع في ظل الغرفة -وجذبه المطر إلى الشرود بعض الشيء- قد أخذ من جديد ينظر إلى تارو الذي كان ينعكس عليه ضوء مصباح الفراش، وظلت أمه تشتغل بالإبرة، ثم ترفع من حين لآخر رأسها، وتنظر بانتباه إلى المريض. لقد فعل الطبيب الآن كل ما كان في مقدوره أن يفعله، وبعد أن توقف سقوط المطر انتاب الغرفة نوع من السكون الكثيف، ولم يعد يغمرها سوى همهمة خرساء لحرب خفية. وخُيِّل إلى الطبيب -الذي كان قد أضناه الأرق- أنه سمع من أطراف السكون ذلك الصفير الهادئ المنتظم الذي لازمه طيلة فترة الوباء، وأشار إلى أمه أن تذهب للنوم، ولكنها رفضت بإشارة من رأسها، ثم لمعت عيناها، وأخذت تفحص على طرف إبرها غرزة لم تكن متأكدة منها، ونهض ريو ليسقي المريض، ثم عاد فجلس مكانه.

وانتهز بعض المارة فرصة الهدنة التي منحهم إياها المطر والرياح، فراحوا يسارعون الخطى على الإفريز، ثم أخذت خطواتهم تتضاءل وتبتعد، ولأول مرة لاحظ الطبيب أن تلك الليلة التي غصت بالمارة المتأخرين، وخلت من رنين عربات الإسعاف كانت شبيهة بغيرها من الليالي الخالية، كانت ليلة خالية من الطاعون، وكان يبدو أن المرض

الذي طرده البرد والأضواء والجماهير قد هرب من الأعماق المظلمة للمدينة، ولجأ إلى تلك الغرفة الدافئة؛ ليسدد هجومه النهائي إلى بدن تارو المسجي بلا حراك.

لم يعد الوباء يجثم على سماء المدينة، ولكنه كان يرسل صفيره في هواء هذه الغرفة الثقيل، إنه هو نفسه الذي كان ريو يسمعه منذ ساعات، كان من الضروري أن نتوقع له التوقف هنا أيضًا، وأن يعترف هنا أيضًا بهزيمته.

ونفضت مدام ريو، ورتبت شغل الإبرة الذي كان في يدها، ثم تقدمت نحو السرير. كان تارو قد أغمض عينيه منذ وقت قليل، وكان العرق قد جعد شعره المنسدل على جبينه الصارم، وتنهدت مدام ريو، ففتح المريض عينيه، ورأى ذلك الوجه الحنون الذي مال عليه، ومن تحت موجات الحمى الدائبة الحركة عادت الابتسامة العنيدة مرة أخرى، ولكن سرعان ما أطبق المريض عينيه من جديد، ولما صار ريو بمفرده ذهب إلى المقعد ذي الذراعين الذي غادرته أمه، وجلس عليه.



كان الشارع صامتًا والسكون الآن مطبقًا، وبدأ برد الصباح يعلن عن وجوده في الغرفة.

ونام الطبيب، ولكنه صحا من غفوته على ضوضاء أول عربة مرت في الشارع ساعة الفجر، وصحا وهو يرتعد، ولما نظر إلى تارو أدرك أن المرض كان يمر بفترة من فترات سكونه، وأن المريض هو الآخر كان قد نام، وكانت العربة ذات الحصان ما زالت تُسمع من بعيد بعجلاتها المصنوعة من الخشب والحديد، وكان الضوء الآتي من النافذة ما زال خافتًا، ولما تقدم الطبيب ناحية السرير، كان تارو ينظر إليه بعينين لا تعبير فيهما، كما لو كان النوم ما زال يطغي عليهما، وسأله ريو:

- لقد نمت، أليس كذلك؟

وأجاب: نعم.

فقال: هل تتنفس بأسهل من ذي قبل؟

وأجاب: نوعًا ما، هل هذا يعني شيئًا؟

وصمت ريو، ثم قال:

- كلا يا تارو، هذا لا يعني أي شيء، فأنت تعرف - كما أعرف -

أنا، هدنة الصباح.

وأقر تارو ذلك، وقال:

- شكرًا، أجبني دائمًا بهذه الدقة.

وجلس ريو عند قدمي المريض. كان يشعر بساقي المريض إلى جواره طويلتين متصلبتين كما لو كانتا ساقي جثة.

وكان تارو يتنفس الآن بقوة أكبر، وقال بصوت لاهث:

- إن الحرارة ستعود، أليس كذلك يا ريو؟

- نعم، ولكن في ساعة الظهر سيتضح كل شيء.

وأغمض تارو عينيه، وكأنه كان يجمع قواه، وكان وجهه يعبر عن التعب والخور، لقد كان ينتظر ارتفاع الحرارة التي كانت بدأت في تلك اللحظة تتحرك في جهة ما في أعماقه، ولما فتح عينيه كانت نظرتة ذابلة، ولم يعد إليها بريقها إلا عندما لمح ريو منحنيًا بالقرب منه، وقال له هذا الأخير:

- اشرب.

وشرب تارو، ثم ترك رأسه يهوي، وقال:

- إنه أمر يطول مداه.

وأمسك ريو بذراعه، ولكن تارو كان قد أشاح عنه بنظرته، ولم يبد أي رد فعل، وفجأة اندفعت موجات الحمى حتى وصلت إلى جبينه وكأنها قد خرقت سدًا داخليًا، ولما ارتد بصر تارو نحو الطبيب أخذ هذا يشجعه بوجه سمح، ولم تستطع الابتسامة التي حاول تارو رسمها على محياه أن تتعدى جيوبه الأنفية المنقبضة، وشفتيه اللتين غطتهما طبقة من الزبد الأبيض تشبه طبقة الأسمت، ولكن ظلت عيناه تومضان وسط وجهه المنقبض بكل ما ينبعث عن الشجاعة من بريق.

وفي الساعة السابعة دخلت مدام ريو الغرفة، وذهب الطبيب إلى مكتبه ليكلم المستشفى بالتليفون طالبًا البحث عن بديل له، كما قرر في نفس الوقت أن يرجئ استشاراته، ثم تمدد لحظة على أريكة مكتبه، ولكنه عاد ونهض من فوره، ورجع إلى الغرفة. كان رأس تارو متجهًا ناحية مدام ريو، كان ينظر إلى ذلك الظل الصغير الذي تكور بجواره على أحد المقاعد واضعًا يديه على فخذه، كان يتأملها بنوع من التركيز حملها على أن تضع أصبعها على شفتيها، ثم تنهض لتطفئ مصباح الفراش، ولكن كان ضوء النهار يتسرب بسرعة من خلف الستائر، وبعد ذلك بقليل بدأت ملامح المريض تبرز من الظلام، واستطاعت مدام ريو أن تلاحظ أنه ما فتئ ينظر إليها، فمالت عليه، وعدلت من وضع وسادته، وفي أثناء نهوضها وضعت يدها لحظة على شعره المبلل الملوي، وحينئذ سمعت صوتًا مكتومًا آتيًا من بعيد يشكرها، ويقول لها: إن كل شيء الآن على ما يرام، وحين عادت إلى جلستها من جديد، كان تارو قد أغمض عينيه، وارتسم على وجهه المنهك مرة أخرى ما يشبه الابتسامة رغم فمه المغلق.

وعند الظهيرة بلغت الحمى أقصى ارتفاعها، وأخذ نوع من السعال الجوفي يهز بدن المريض الذي بدأ يبصق دمًا. نعم، لقد توقفت العقد عن التورم، ولكنها ما زالت هناك صلبة كالمسامير المحواة الغائرة في تجويف المفاصل، وقد رأى ريو أنه من المستحيل فتحها، وكان تارو في فترات توقف الحمى والسعال لا يكف عن النظر من بعد متزايد إلى أصدقائه، ولكن سرعان ما أخذ يغمض عينيه شيئًا فشيئًا، وبدأ الضوء

الذي كان يضيء وجهه في الانطفاء؛ لقد أخذت العاصفة التي كانت تهز هذا البدن في نفضات تشنجية تضيئه بومضات من البرق تندب بالتدريج، وكان تارو يهيم ببطء وسط هذه العاصفة كالريشة في مهب الرياح، ولم يعد ريو يرى أمامه سوى قناعاً عديم الحركة اختفت منه الابتسامة. إن هذا الهيكل البشري الذي كان جد قريب منه بدا وكأنه قد انهالت عليه ضرباً عصا حديدية، واحترق بنار شر فوق طاقة البشر وتلوت أعضاؤه تحت تأثير رياح السماء الحاقدة جميعها، فراح يغرق ناظره في مياه الطاعون دون أن يكون في مقدوره فعل شيء لإنقاذه من الغرق، بل كان عليه أن يقف مرة أخرى على ضفة النهر خاوي اليدين معصور القلب بلا سلاح وبلا معين أمام تلك الكارثة. وأخيراً تفجرت من عينيه دموع العجز لتمنعه من رؤية تارو وهو يلتفت فجأة ناحية الحائط ويلفظ أنفاسه في أنه جوفاء، وكأن وترًا رئيسًا قد انقطع في مكان ما بداخل جسمه.

أما الليلة التالية فلم تكن ليلة كفاح، بل ليلة صمت؛ ففي هذه الغرفة المنعزلة عن العالم، وأمام تلك الجثة التي لا زالت مسرلة في ملابسها، كان ريو يشعر بذلك الهدوء الغريب الذي كان منذ ليال طويلة خلت، قد تبع الهجوم على أبواب المدينة من فوق الأسطح المشرفة على الطاعون، وكان في هذه الآونة قد فكر في هذا السكون الذي ينبعث من الأسرّة التي كان الناس يموتون فوقها أمام سمعه وبصره، كان ذلك نفس الصمت مهما كان مكانه، نفس التوقف الخاشع، نفس الاسترخاء الذي يتلو المعارك، كان سكون الهزيمة. غير أن السكون الذي كان يلتفت الآن بصديقه كان سكونًا متمشيًا مع الشوارع، سكون المدينة التي تحررت

من الطاعون، حتى إن ريو أخذ يشعر بأن الأمر يتعلق هذه المرة بالهزيمة النهائية، الهزيمة التي تضع خاتمة للحروب، والتي تجعل من السلام نفسه مصدر ألم لا علاج له، ولم يكن الطبيب على بينة مما إذا كان تارو قد وصل إلى السلام في نهاية الأمر، ولكنه كان، في هذه اللحظة على الأقل، يعتقد أنه - هو نفسه - لن يعرف طريق السلام بعد اليوم، كما أن الأم التي يستقطع منها ابنها، والرجل الذي يدفن صديقه لا يمكن لهما أن يعرفا الهدنة.

أما في الخارج، فقد كان نفس الليل البارد، والنجوم المتجمدة في سماء صافية قارسة البرد. وفي تلك الغرفة نصف المعتمة كانت تُحس البرودة وكأنها ترزح على زجاج النوافذ، كانت الليلة القطبية بأنفاسها الشاحبة. كانت مدام ريو تجلس بهيئتها المعتادة قرب الفراش، وقد أضاء المصباح جانبها الأيمن، وفي وسط الغرفة كان ريو ينظر في مقعده الكبير بعيداً عن الضوء، وكانت ذكرى زوجته تراوده، ولكنه كان لا يلبث أن يطردها من خاطره.

وفي بداية الليل كانت أقدام المارة تدق بوضوح وسط الليل البارد، وقالت مدام ريو:

- هل ربت كل شيء؟

وأجاب الابن:

- نعم، لقد تحدثت بالتليفون.

وعادا من جديد إلى سهادهما الصامت، وكانت مدام ريو تنظر إلى

ابنها من حين لآخر، فكان إذا فاجأ إحدى نظراتها ابتسم لها، وأخذت ضوضاء الليل المعتادة تتوالى في الشارع، ورغم أنه لم يكن قد صدر بعد تصريح بسير العربات، فقد عاد الكثير منها إلى المرور من جديد، فكانت تمر وهي تنهب الأرض نهباً، ثم تختفي لتظهر من جديد. كنت تسمع أصواتاً ونداء يتلوه سكون، ثم تتعالى ضوضاء حوافر حصان، أو عربتي ترام تثنان لدى أحد المنحنيات، أو بعض الصخب غير الواضح إلى أن تعود من جديد فتسمع أنفاس الليل.

وفجأة سألت مدام ريو:

- برنار؟

- نعم.

- أأست متعباً؟

- كلا.

لقد كان ريو يعرف فيم تفكر أمه في تلك اللحظة، ويعرف كذلك أنها تحبه، ولكنه كان يعرف أيضاً أنه ليس بالشيء الكبير أن يحب المرء شخصاً ما، أو على الأقل أن أي حب لا يتمتع مطلقاً بالقوة الكافية التي تجعله قادراً على التعبير عن نفسه. وهكذا كان هو وأمّه يحب كل منهما الآخر في صمت دائماً، وقد تموت بدورها، أو قد يموت هو دون أن يكونا قد تمكنا طيلة حياتهما من أن يذهبا إلى مدى أبعد من ذلك المدى في الاعتراف بحنانهما. وعلى هذا النحو أيضاً عاش إلى جانب تارو، ولقد مات تارو هذا المساء دون أن تجد صداقتهما من الوقت ما

يمكنهما من أن يعيشاها حقيقة. لقد خسر تارو الجولة كما كان يقول. أما ريو، فماذا ربح؟ لقد ربح أنه عرف الطاعون وأنه بقيت له ذكراه، وأنه عرف الصداقة، وأنه قد بقيت له ذكراها، وأنه عرف الحنان، وأنه لا بد أن يأتي يوم لا يبقى له منه إلا ذكراه. إن كل ما يمكن للمرء أن يربحه في لعبة الطاعون والحياة هو المعرفة والذكرى، وقد يكون هذا هو ما عناه تارو بقوله: «ربح الجولة».

ومرت سيارة من جديد، وتململت مدام ريو قليلاً على مقعدها، وابتسم لها ريو، فقالت له: إنها ليست متعبة، ثم أردفت قائلة:
- ينبغي أن تذهب للاستحمام هناك في المنطقة الجبلية.
وأجابها:

- بكل تأكيد يا أماه.

نعم، سوف يستجم هناك. لِمَ لا؟ قد يكون ذلك باعثاً لربح ذكرى، ولكن إذا كان هذا هو ربح الجولة، فما أقسى الحياة التي ليس لنا فيها سوى ما نعرفه وما نتذكره دون ما نؤمله. إن تارو -ولا ريب- قد عاش هكذا، وكان على بينة من عقم حياة تخلو من الأوهام. لا شك أنه لا سلام بلا أمل، وأن تارو الذي كان يأبى على الناس أن يحكموا بإعدام أحد، والذي كان يعرف مع ذلك أنه لا يوجد أحد يستطيع منع نفسه من إصدار مثل هذا الحكم، وأن الضحايا أنفسهم قد يكونون جلادين أحياناً، تارو هذا قد عاش في اللوعة والتناقض، ولم يعرف الأمل قط. أترأه لهذا السبب أراد القداسة، وبحث عن السلام من خلال خدمة الناس؟ لم يكن ريو يعرف في حقيقة الأمر شيئاً، ولم يكن يأبه لهذا كثيراً. إن كل ما

سيبقى في ذاكرته لتارو هو صورة رجل يمسك بعجلة القيادة بكلتا يديه ليقود سيارته، أو صورة هذا الجسد المتين البنية الذي يرقد الآن مسجى بلا حراك. تلك هي المعرفة: دفء الحياة وصورة الموت.

لهذا السبب -بلا شك- تلقى الدكتور ريو في الصباح نبأ موت زوجته في هدوء. كان في مكتبه، وأتت أمه شبه مهرولة تناوله البرقية، ثم خرجت لتعطي من أحضرها نفحة من المال، ولما عادت كان ابنها يمسك بالبرقية مفتوحة في يده، ونظرت إليه، ولكنه كان يرسل نظره خلال النافذة في إصرار؛ ليتأمل ذلك الصباح الرائع الذي أخذ يغمر الميناء. وقالت مدام ريو:

- برنار.

وتفحصها الطبيب بعين شاردة، فسألته:

- ماذا عن البرقية؟

ورد الطبيب قائلاً:

- إنه كذلك منذ ثمانية أيام.

وأشاحت مدام ريو برأسها ناحية النافذة، ولاذ الطبيب بالصمت، ثم طلب إلى أمه ألا تبكي، وقال: إنه كان يتوقع ذلك، ولكنه مع هذا أمر شاق عسير، وكان يعلم وهو يقول هذا أن ألمه لم يكن بالمفاجأة؛ إذ إنه كان نفس الألم الذي عاش فيه منذ شهور، ومنذ يومين.



في فجر صباح جميل من فبراير، فُتحت أخيرًا أبواب المدينة، وقد قامت الجماهير والصحف والراديو وبلاغات المديرية بتحيتها، ولم يبق الآن للراوي إلا أن يقوم بتاريخ ساعات البهجة التي تلت فتح تلك الأبواب، رغم أنه هو نفسه كان ضمن أولئك الذين لم تكن لهم حرية المشاركة فيها مشاركة كلية.

لقد نُظمت احتفالات كبيرة طوال الليل وطوال النهار، وفي نفس الوقت بدأت القطارات ترسل دخانها داخل المحطة، في الوقت الذي بدأت فيه السفن القادمة من البحار النائية ترسو في مينائنا، وكأنها بذلك تبرهن -بطريقتها الخاصة- على أن هذا اليوم هو يوم اللقاء الكبير بالنسبة لكل من كانوا يئنون من ألم الفراق.

ومن السهل أن نتخيل هنا ماذا كان من شأن الشعور بالفراق الذي كان قد حل في نفوس أغلبية مواطنينا. إن القطارات التي كانت تدخل مدينتنا نهارًا لم تكن أقل ازدحامًا من تلك التي كانت تخرج منها، إن الجميع كانوا قد أقبلوا على حجز أماكنهم لهذا اليوم خلال أسبوعي الانتقال، وهم يرتجفون خشية أن تلغي البلدية قرارها، بل إن بعض المسافرين الذين اقتربوا من المدينة لم يكونوا قد تخلصوا نهائيًا من مخاوفهم، وذلك لأنهم -وإن كانوا يعرفون بصفة عامة مصير أولئك الذين يهمهم أمرهم من قرب- كانوا يجهلون كل شيء عن الآخرين، وعن المدينة نفسها، تلك المدينة التي كانوا يظنون أنها قد شُوْهِت

تشويهاً، ولكن ذلك لم يكن حقيقياً إلا بالنسبة لغير المتحمسين ذوي
العواطف الملهبة. أما المتحمسون، فقد وقفوا عند الفكرة التي كونوها
لأنفسهم عن هذا الأمر؛ ذلك أنه لم يكن قد تغير إلا شيء واحد بالنسبة
لهم، وهو الوقت الذي كانوا -طيلة مدة نفيهم- يريدون دفعه إلى الأمام
حتى يحث الخطى، وكانوا حتى الآن يصرون على دفعه. ولكنهم في
هذه اللحظة التي لاحت لهم فيها مدينتنا أصبحوا على العكس من
ذلك يتمنون أن يبطئ الوقت، وأن يتوقف لدى الآونة التي يبدأ فيها
القطار يهدئ من سيره قبل أن يستقر به المقام. إن شعورهم -الذي
كان يتسم في آن واحد بالغموض والجدة خلال تلك الشهور الضائعة
بالنسبة لحبهم- قد جعلهم يلحون في الحصول على نوع من التعويض
يضمن لهم أن يسير زمن الفرح بمعدل أبطأ ضعفين من زمن الانتظار.
وأما هؤلاء الذين كانوا ينتظرون في غرفة ما، أو على الرصيف -ومنهم
رامبير الذي كان قد أخبر زوجته منذ أسابيع، فعملت كل ما في جهدها
لكي تصل إليه- فقد كانوا جميعاً نافدي الصبر مضطربي النفوس؛ ذلك
أن هذا الحب، أو هذا الحنان الذي اضطرتهم أشهر الطاعون إلى أن يعيش
في عالم المجردات، كان رامبير وهو يرتجف أن يقابله بذلك الشخص
الملموس المكون من لحم ودم، والذي كان موضعاً لذلك الحب.

كان بوده أن يعود -من جديد- ذلك الشخص الذي كان يتمنى في
بدء الوباء أن يندفع خارج المدينة في قفزة واحدة لكي يحظى بلقاء من
يحب. ولكنه كان يعرف أن هذا أمر أصبح في حيز المستحيل؛ ذلك أنه
كان قد تغير، لقد خلق الطاعون فيه نوعاً من الشرور راح يحاول -بكل
جهده- أن ينكره، ولكنه مع ذلك، كان يلزمه كقلق مكتوم. كان يشعر

-على نحو ما- بأن الطاعون قد انتهى فجأة، وأنه لم يعد حاضراً الذهن كما كان من قبل، فهذا هو ذي السعادة تتقدم بخطى المارد، وهذا هو الحادث المأمول يجري بأسرع مما كان يفعل الانتظار، وكان رامبير يفهم أن كل شيء يسير إليه دفعة واحدة، وأن الفرح ليس إلا حرقاً لا يستساغ.

كان الجميع -على وجه العموم- في مثل حاله، وكانوا كلهم على بينة من ذلك إن قليلاً وإن كثيراً. نعم، كانوا جميعاً مثله، ولذا ينبغي لنا أن نتكلم، عن الجميع، لقد وقفوا على رصيف المحطة حيث كانوا يستأنفون حياتهم الخاصة، ولكنهم كانوا على بينة مما لا يزال بينهم من إحساس مشترك كلما تبادلوا النظرات والابتسامات، ولكن ما إن رأوا دخان القطار حتى اختفى فجأة شعورهم بالنفي تحت وابل من الفرح الغامض المذهل، ولما توقف القطار توقف معه عهد الفراق الذي لم تكن له نهاية، والذي كان يبدأ في غالب الأحيان عند هذا الرصيف. توقف عهد الفراق فجأة، في لحظة واحدة، في اللحظة التي أطبقت فيها الأذرع -في شح وحرص- على أجسام كانت قد نسيت شكلها الحي. ولم يجد رامبير من الوقت ما يمكنه من رؤية الهيكل الذي كان يعدو نحوه؛ لأنه سارع بالارتقاء على صدره. لقد أمسك بها ملء ذراعيه، وأخذ يضم إليه رأساً لا ير منه سوى شعر أليف إليه، وترك لدموعه العنان، وهو لا يدري أهى دموع السعادة الحاضرة، أم الألم الذي طال كبته، ولكنه كان -على الأقل- واثقاً من أن تلك الدموع تعوقه عن التحقق مما إذا كان هذا الوجه الذي اختفى في تجويف كتفه هو نفسه الوجه الذي طالما حلم به، أم أنه -على العكس من ذلك- وجه امرأة غريبة. إنه سيعرف فيما بعد ما إذا كانت شكوكه في موضعها أو لا، أما الآن فقد كان يريد أن يفعل ما يفعله

الناس من حوله، أولئك الذين كانوا فيما يبدو يعتقدون أنه من الممكن أن يحل الطاعون ويرحل دون أن يغير من قلوب البشر.

عاد الجميع إلى بيوتهم وقد ضم كل منهم حبيبته إليه، ولم يعودوا يرون شيئاً مما حولهم، وبدأت على وجوههم علامات الانتصار الظاهري على الطاعون، وقد نسوا البؤس كما نسوا الذين عادوا معهم بنفس القطار، ولم يجدوا أحداً في انتظارهم، فانقلبوا إلى بيوتهم استعداداً لتلقي مصداق المخاوف التي كان السكون الطويل قد ولدها في قلوبهم. وأما بالنسبة لهؤلاء الذين لم يعد لهم من إلف سوى الألم الحديث العهد، ولأولئك الذين كانوا يستسلمون الآن لذكرى شخص اختفى من بينهم، فإن الأمر كان يختلف، فقد وصل الشعور بالفراق عندهم إلى الذروة. نعم، بالنسبة لجميع هؤلاء الذين فقدوا كل مباحج الدنيا عندما فقدوا شخصاً عزيزاً لعله كان الآن مُلقى في إحدى الحفر المشتركة، أو ذاب في كومة من الرماد، وسواء أكان ذلك الشخص أمماً أم زوجاً أم حبيباً، فإن الطاعون كان لا يزال محيطاً بهم.

ولكن من ذا الذي كان في وسعه أن يفكر الآن في هذا النوع من الوحدة؟ ففي ساعة الظهيرة كانت الشمس المنتصرة على هبات الريح الباردة التي كانت تناضل في الجو منذ الصباح تفرغ على المدينة طوفاناً لا يتوقف من الضوء الساكن، وكان النهار في حالة توقف، وراحت مدافع القلاع ترسل من فوق التلال دويها المستمر في أرجاء السماء الساكنة، وخرج سكان المدينة من بيوتهم عن بكرة أبيهم للاحتفال بتلك اللحظة الحافلة التي انتهت فيها زمن الآلام دون أن يكون زمن النسيان قد بدأ بعد.

وأخذ الناس يرقصون في جميع الميادين، وازدادت حركة المرور بين عشية وضحاها زيادة ملحوظة، حتى كان طوفان السيارات المتزايد يمر بصعوبة في الشوارع الغاصة بالناس، وتجاوبت أجراس المدينة طيلة فترة الأصيل حتى ملأت برنينها السماء الزرقاء المذهبة، ذلك أنه إذا كانت قد أقيمت صلوات الشكر في الكنائس، فقد كانت أماكن اللهو تغص في الوقت نفسه، وكانت الملاهي -التي لم تكن قد حسبت لهذا اليوم حسابه- توزع على روادها آخر ما عندها من مشروبات روحية، وأمام مناضد الشراب كانت تتزاحم جموع تتكون من أناس متساوين في درجة الانفعال، وكان من بينهم أزواج عديدون من الذكور والإناث وقد تحاضنوا دون أن يخشوا نظرات الفضوليين. كانوا جميعاً يصبحون أو يضحكون؛ ذلك أن الحياة التي كانوا قد اختزنوها -في صميمهم- طيلة تلك الأشهر كانت قد استيقظت من رقادها، وراحوا هم ينفقونها في ذلك اليوم الذي كان كأنه يوم الخلاص من موت محقق. نعم، لقد كانت هذه الحياة نفسها ستستأنف سيرتها في اليوم التالي بما فيها من حذر وحيلة، أما الآن، فقد أخذ الناس -مهما اختلف أصلهم- يسرون جنباً إلى جنب، ويتآخون. إن المساواة التي لم يستطع الموت أن يحققها يوم كان ماثلاً قد حققتها بهجة الخلاص، على الأقل لبضع ساعات.

ولكن هذا التهريج المبتذل لم يكن كل شيء، فقد كان الذين يملأون الشوارع في ساعة الأصيل -من حول رامبير- غالباً ما يخفون وراء مظهرهم الهادئ أنواعاً من السعادة أكثر رقة، والواقع أن الكثير من الأزواج والأسر لم يكن يبدو عليهم إلا أنهم يسرون في سلام. وحقيقة الأمر أن أغلبهم كانوا يطوفون كالحجيج بالأمكن التي ذاقوا

فيها العذاب، لقد كانوا يرمون بذلك إلى أن يطلعوا القادمين الجدد على العلامات الظاهرة أو الخفية للطاعون، وعلى الآثار التي تدل على تاريخه. وفي بعض الحالات كانوا يقومون بدور المرشد، دور من رأى الكثير ومن عاصر الطاعون، وكانوا يتكلمون عن الخطر دون أن يثيروا ذكرى الخوف. وكانت هذه من المتع التي لا ضرر منها، ولكن في بعض الحالات كانت الرحلة أشد من ذلك تأثيرًا، حيث كان العاشق يقول لمعشوقته -وقد استسلم لقلق الذكرى الهادئ-: «في ذلك المكان وفي ذلك الزمن كنت قد اشتيتك ولكنك لم تكوني هنا». وقد كان من السهل على سائحي العاطفة هؤلاء أن يتعرف بعضهم على بعضهم الآخر، فقد كانوا يكونون جماعات منعزلة غارقة في الهمس والنجوى وسط الضجيج الذي كانوا يسيرون فيه، لقد كانوا هم الذين يعلنون عن الخلاص الحقيقي أكثر مما كانت تفعل فرق الموسيقى في الميادين؛ ذلك أن هؤلاء الأزواج المتجاوبين المتوافقين غير الثرائين كانوا وسط هذه الضوضاء كاللذيل الساطع الذي يؤكد -بجانب انتصار السعادة الظالم- أن الطاعون قد ولى، وأن الإرهاب قد انتهى عهده، لقد كانوا ينكرون في هدوء -ورغم ما لا يستطيع نكرانه- أنه قد مر بنا وقت عرفنا فيه ذلك العالم المجنون الذي كان مقتل الرجل فيه من الأمور التي تحدث كل يوم كمقتل الذباب، وأنا قد عرفنا تلك الوحشية المحددة المعالم، ذلك الهذيان المدبر، ذلك السجن الذي يجلب معه نوعًا من الحرية البشعة بالنسبة لكل ما لم يكن حاضرًا، رائحة الموت التي كانت تذهل جميع من لم تكن تقتلهم. وأخيرًا كانوا ينكرون أننا كنا ذلك الشعب الذي ضرب عليه بالحذر، والذي كان يذهب منه كل

يوم جزء -في شكل كومة- إلى الأتون، فما يلبث أن يتحول إلى دخان دسم، بينما ينتظر جزء آخر دوره مكبلاً بأصفاد العجز والخوف.

هذا على كل حال ما كان يبدو جلياً أمام عيني الدكتور ريو، وهو يحاول أن يصل إلى الأحياء الخارجية، ويسير وحده ساعة الأصيل وسط رنين الأجراس، وطلقات المدافع، وأنغام الموسيقى، والصيحات المدوية. لقد كان مستمراً في أداء مهنته، فليس هناك عطلة بالنسبة للمرضى. وعندئذ كانت روائح الشواء السابقة، والكحول الممزوج بالينسون تفوح من كل مكان خلال الضوء الدقيق الجميل الذي كان يكسو المدينة، ومن حوله كانت هناك وجوه ضاحكة تنكفي تجاه السماء. كان هناك رجال ونساء يحتضن بعضهم بعضاً، وقد احتقنت وجوههم بكل ما في الرغبة من عصبية وصياح. نعم، لقد ولى الطاعون، وولى معه الإرهاب، والواقع أن تلك الأذرع المتشابكة كانت تقول: إنه كان منفي، وكان فراقاً بكل ما في هذه الكلمات من معنى عميق.

ولأول مرة استطاع ريو أن يعثر على اسم لذلك التشابه الخلقي الذي كان يلاحظه خلال شهور مضت على وجوه المارة جميعاً. كان حسبه الآن أن ينظر حوله؛ فإنه لم يكدهؤلاء الناس يصلون إلى نهاية البؤس والحرمان بانتهااء الطاعون، حتى أخذوا يرتدون رداء الدور الذي كانوا يؤدونه منذ زمن بعيد، دور المهاجرين الذين كانت وجوههم من قبل -ثم أصبحت ملابسهم الآن- تعبر عما كان ينطوي عليه من الغياب وبعد الوطن. فمئذ اللحظة التي أغلق الطاعون فيها أبواب المدينة لم يكونوا يعيشون إلا في ألم الفراق، كما لو كانوا قد انتزعوا من حرارتهم البشرية التي تنسي الناس كل شيء، ففي أركان المدينة كلها، كان هؤلاء

الرجال والنساء يهفون -بدرجات متفاوتة- إلى لقاء لم يكن بالنسبة لهم جميعاً ذا طبيعة واحدة، ولكنه كان بالنسبة لهم جميعاً في درجة متساوية من الاستحالة. إن أغلبهم كانوا يصيحون بكل ما فيهم من قوة منادين الغائب طلباً لدفع الجسد أو الحنان، أو إعادة وجوده معهم. كان بعضهم يرى نفسه -على غير شعور منه في غالب الأحيان- يتألم؛ لأنه في معزل عن صداقة الناس، ولأنه لم يعد قادراً على أن يلحق بهم بالوسائل العادية للصداقة أي بالخطابات أو القطارات أو السفن. وهناك آخرون -أقل من هؤلاء عدداً وربما كانوا مثل تارو- كانوا يتمنون الالتقاء بشيء ما لا يستطيعون تعريفه، ولكنه كان كل ما يرغبون فيه، ولما لم يكونوا يعرفون له اسماً، فقد قنعوا بتسميته السلام.

واستمر ريو يسير، وكان كلما تقدم في سيره رأى الجموع تتكاثر من حوله، والضجيج يشتد، حتى بدا له أن الأحياء الخارجية التي يريد الوصول إليها قد جعلت تتراجع، ثم أخذ يذوب شيئاً فشيئاً في ذلك الجسم الكبير الذي يصيح، لقد أخذ يتبين بوضوح يزداد شيئاً فشيئاً أن ذلك الصياح هو صياحه هو، جزئياً على الأقل. نعم، إن الجميع كانوا قد ذاقوا العذاب معاً، قد قاسوا من عذاب الجسم مثل ما قاسوا من عذاب النفس، قاسوا الفراغ العسير، والمنفى الذي لم يكن له علاج، والظماً الذي لم يكن ليُطفأ أبداً؛ ففي وسط هذه الأكوام المكدسة من الموتى ورئين عربات الإسعاف، وإنذارات ما اصطُح على تسميته بالقدر ووطأ أقدام الخوف الملحة، وثورة القلوب، كانت هناك شائعة لا تكف عن السريان بين هؤلاء المفزوعين لتنذر تلك النفوس الهلعة بضرورة العودة

إلى وطنها الحقيقي، وكان الوطن الحقيقي بالنسبة لهم جميعاً يقع فيما وراء جدران تلك المدينة المحتقنة... كان يقع فوق الحشائش الشذية العرف، وفوق التلال وفي البحر وفي البلاد الحرة وفي كل ما للحب من وزن، وكانوا يريدون العودة إلى هذا الوطن، إلى السعادة، أما ما عدا ذلك فكانوا يشيخون عنه بامتعاض.

أما عما يمكن أن يكون هناك من معنى لذلك المنفى، وهذه الرغبة في اللقيا، فلم يكن ريو يعرف عنه شيئاً. كان يواصل سيره والجموع تتدافع حوله من جميع الجهات والأسئلة تُوجه إليه حتى ابتعد شيئاً فشيئاً، ووصل إلى شوارع أقل ازدحاماً، لقد كان يفكر أنه لم يكن من المهم أن يكون لتلك الأشياء معنى أو لا يكون، ولكن كل ما ينبغي الاتجاه إليه هو النظر فيما يتجاوب مع آمال الناس.

لقد كان يعرف منذ الآن ما يتجاوب مع آمال الناس، وكان يتبينه بوضوح أجلى في الشوارع الأولى من الأحياء المتطرفة، الشوارع المقفرة تقريباً؛ فهؤلاء الذين لم يكونوا يتمنون سوى العودة إلى مقر حبهم، فقد نالوا -في بعض الأحيان- ما تمنوا رغم قلة عددهم، ولكن من المؤكد أن بعضهم قد استمر يتجول في المدينة بمفرده بعد أن حُرِم من الشخص الذي كان ينتظره، وكذلك كان من السعداء أولئك الذين لم يقاسوا ألم الفراق مرتين كبعض الناس الذين لم يستطيعوا قبل الطاعون أن يوطدوا أركان حبهم منذ الوهلة الأولى، والذين كانوا قد قضوا السنين الطويلة في حياتهم المشتركة الصعبة وهم مغمضو العينين، تلك الحياة التي تنتهي بربط أواصر الألفة بين الأعداء المتحابين.

لقد كان هؤلاء -ومن بينهم ريو نفسه- من سطحية التفكير بحيث اعتمدوا على الزمن، فظلوا مفترقين إلى الأبد، ولكن كان هناك آخرون قد عادوا دون تردد إلى الغائب الذي ظنوا أنهم فقدوه، ومنهم رامبير الذي كان الطبيب قد غادره في الصباح وهو يقول له: «تشجع، إن ذلك هو الوقت الذي ينبغي أن يشعر المرء فيه بالانتصار». وهؤلاء سيكونون سعداء، لفترة ما على الأقل، إنهم يعرفون الآن أنه إذا كان ثمة شيء يتمناه الناس دائماً، ويحصلون عليه أحياناً فهو الحنان.

أما هؤلاء الذين كانوا قد أرسلوا دعاءهم وراء النطاق البشري إلى شيء لا يستطيعون حتى مجرد تخيله، فإنهم -على العكس من ذلك- لم يتلقوا أي جواب. ويبدو أن تارو كان قد لحق بذلك السلام العسير الذي كان يتحدث عنه، ولكنه لم يجده إلا في الموت، وفي الوقت الذي لم يعد فيه السلام يجديه شيئاً. وأما أولئك الذين كان يراهم ريو أمام بيوتهم في ضوء الغروب الخافت وقد تعانقوا بكل قواهم، وأخذوا يتبادلون النظرات في حبور وانفعال، فإنهم إذا كانوا قد نالوا ما تمنوا، فلم يكن ذلك إلا لأنهم لم يطلبوا أكثر مما يتوقف عليهم.

وفي اللحظة التي أدار فيها ريو سيارته في الشارع الذي يسكن فيه جران وكوتار، أخذت تدور في رأسه هذه الفكرة، وهي أنه من الحق أن يغمر الفرح -من وقت لآخر على الأقل- أولئك الذين يقنعون بمقدور الكائن البشري ونصيبه من الحب، ذلك النصيب البائس الرهيب.



إن هذه المذكرات تقترب من نهايتها، وقد آن الأوان لكي يعترف الدكتور «برنار ريو» بأنه صاحبها، ولكنه يود -قبل أن يخط آخر أحداثها- أن يبرر تدخله، وأن يبين للقارئ أنه قد استمسك بلهجة الشاهد المحايد؛ فقد مكنته مهنته -طيلة مدة الطاعون- من الاتصال بأغلبية مواطنيه، ومن التعرف على مشاعرهم. لقد كان إذن في خير موقف يمكنه من رواية ما رآه وما سمعه، ولكنه حرص على أن يقوم بذلك بما ينبغي له من تحفظ. وقد حرص على وجه العموم ألا يروي شيئاً أكثر مما استطاع أن يرى، وألا ينسب إلى رفاقه في الطاعون أفكاراً لم تكن لهم، وألا يستعمل سوى النصوص التي وضعتها الصدفة أو الكارثة بين يديه.

ولما كان قد دُعِيَ للشهادة بمناسبة إحدى الجرائم، فقد التزم بعض التحفظ الذي يليق بشاهد خالص النية، ولكن في نفس الوقت حملة قلبه النبيل على الانضمام -بعد تفكير- إلى صف الضحية، وأراد أن يجمع الناس، أن يجمع مواطنيه على الحقائق الوحيدة التي يشتركون

فيها جميعاً، ألا وهي الحب والألم والمنفى، وهكذا لم يكن هناك أمر من الأمور التي أقلقته مواطنيه إلا شاركهم فيه، ولا موقف من مواقفهم إلا كان موقفه هو أيضاً.

وقد آلى على نفسه -لكي يكون شاهداً أميناً- ألا يستشهد بغير الأفعال والوثائق والشائعات. أما ما كان في وسعه هو شخصياً أن يقوله، أما انتظاره وتجاربه الشخصية، فقد رأى لزماً عليه أن يكتمها. وإذا كان قد استعان بها، فلم يكن ذلك إلا لكي يفهم مواطنيه، ويساعد الآخرين على فهمهم، ولكي يحدد بقدر الإمكان ما كانوا يحسونه، في أغلب الأحيان، بصورة غامضة. والحقيقة أن هذا المجهود العقلي لم يكلفه شيئاً؛ ذلك أنه كان كلما شعر بالميل إلى مزج أحاسيسه الشخصية بالآلاف المؤلفة من أصوات مرضى الطاعون، كانت تعترضه تلك الفكرة، وهي أنه لم يكن هناك من ألم إلا تقاسمه الناس جميعاً، وأن هذه ميزة مهمة بالنسبة لذلك العالم الذي غالباً ما يعيش فيه الألم وحيداً. لقد كان عليه بطبيعة الحال أن يتكلم باسم الجميع.

ولكن كان هناك -على الأقل- شخص واحد من مواطنينا لم يكن في مقدور الدكتور ريو أن يتكلم عنه، وذلك هو الشخص الذي قال عنه تارو يوماً ما لريو: «إن جريمته الحقيقية الوحيدة هي أنه أقر بقلبه ذلك الشيء الذي يتسبب في موت الأطفال والكبار. أما ما عدا ذلك، فإني أفهمه، وهذا أيضاً أراني مضطراً لأن أغفره له». وإنه لمن العدل أن تختتم هذه المذكرات به، فقد كان له قلب جاهل، أي قلب غارق في الوحدة.

ولم يكدر ريو يغادر الشوارع الكبيرة التي تتردد في جنباتها ضوضاء العيد، ويدلف فيها إلى شارع جران وكوتار، حتى أوقفه حاجز من رجال الشرطة، ولم يكن يتوقع ذلك؛ لأن صخب العيد الذي يصل إليه من بعيد كان يجعل الحي يبدو أمامه ساكنًا، وكان يتصوره مقفّرًا بقدر ما هو صامت. وأخرج ريو بطاقته، فأجابه الشرطي.

- مستحيل يا دكتور، فإن هناك مجنونًا يطلق النار على الناس، ولكن ابق قريبًا منا؛ فقد نحتاج إليك.

وفي هذه اللحظة نظر ريو فرأى جران قادمًا نحوه، ولم يكن هو الآخر يعرف شيئًا، ومُنِع هو أيضًا من المرور، ثم علم أن تلك الطلقات تصدر من منزل. والواقع أنه كانت تُرى من بعيد واجهة المنزل، وقد طرزتها الشمس الخابية بخيوط ذهبية من أشعتها الغاربة، ومن حول المنزل كان هناك قطاع كبير خال يمتد حتى الإفريز المقابل، وفي وسط الشارع كانت تُرى بوضوح قبعة وقطعة من قماش قدر ملقتان على الأرض، وكان في مقدور ريو وجران أن يريا على بعد كبير في الناحية المقابلة من الشارع حاجزًا آخر من رجال الشرطة موازيًا لذلك الذي منعهما من التقدم، ومن خلفه بعض سكان الحي يروحون ويغدون بسرعة، ولما دققا النظر رأيا كذلك بعض رجال الشرطة وقد أمسكوا بمسدساتهم، وانبطحوا أرضًا أمام أبواب العمارات المواجهة للمنزل، وكانت نوافذ المنزل الخشبية كلها مغلقة، ومع ذلك فقد كانت هناك نافذة في الدور الثاني تبدو مواربة، وكان السكون مخيمًا على الشارع، ولم يكونوا يسمعون سوى نبرات موسيقية آتية من قلب المدينة.

وفي لحظة ما صدرت من أحد المنازل المقابلة لمنزل جران
طلقتان من مسدس تبعتهما انفجارات راجعة من النافذة المواربة، ثم
عاد السكون من جديد، وكان كل ذلك يبدو من بعيد كالوهم في نظر
ريو، بعد ضوضاء اليوم الذي مر به، وقال جران فجأة باضطراب:

- إنها نافذة كوتار، ولكن كوتار مع ذلك قد اختفى.

وسأل ريو الشرطي:

- لماذا يطلقون النار؟

وأجاب الشرطي:

- إنهم يلهونه، وهم في انتظار سيارة تحمل المعدات اللازمة؛ لأنه
يطلق النار على من يحاولون الدخول من باب العمارة، وقد أصيب أحد
رجال الشرطة.

- ولماذا يطلق هو النار؟

- لا يدري أحد سبباً لذلك. كان الناس يلهون في الشارع، ولما
سمعوا أول طلقة لم يفهموا شيئاً، ولما سمعوا الطلقة الثانية صدرت
منهم بعض صرخات، وسقط أحدهم جريحاً، ثم ولوا الأدبار جميعاً.
إنه مجنون بلا شك.

ولما عاد السكون بدت الدقائق وكأنها تتلأأ في مرورها،
وفجأة، رأوا من الناحية الأخرى من الشارع كلباً يبرز، أول كلب
يراه ريو منذ وقت طويل، لقد كان كلباً ضئيل الجسم بادي القذارة،
لا بد وأن يكون أصحابه قد أخفوه حتى الآن. وأخذ يجري جرياً بطيئاً

محاذيًا للجدران، ولما وصل قرب الباب تردد وأقعى على مؤخرته، ثم انقلب ليلتهم براغيثه، وانطلقت صفارات رجال الشرطة العديدة تدعوه، فرفع رأسه، ثم حزم أمره على أن يجتاز الشارع ببطء ليذهب إلى القبة يتشممها، وفي نفس اللحظة صدرت طلقة من الدور الثاني، فانقلب الكلب رأسًا على عقب، وأخذ يحرك أرجله بعنف، ثم انقلب أخيرًا على جانبه وهو ينتفض انتفاضات الموت، وأجاب على هذه الطلقة خمس طلقات أخرى أو ست انبعثت من الأبواب المقابلة، فزادت الشباك الخشبي تفتتًا. وعاد السكون، وكانت الشمس قد استدارت قليلًا، وبدأ الظلام يقترب من نافذة كوتار، وسمعت في الشارع من خلف ريو ضوضاء ألجمة خيل تنن أنينًا خافتًا، وقال الشرطي:

- ها هم قد حضروا.

وبرز من وراء ظهورهم جمع من رجال الشرطة يحملون حبالًا وسلماً ولفافتين سميكتين لُفتا في قماش مشمع، ودلفوا إلى أحد الشوارع المحيطة بمجموعة المنازل المقابلة لعمارة جران، وبعد لحظة شعر الناس باضطراب أمام أبواب هذه المنازل، ولكن دون أن يروا شيئًا، فوقفوا ينتظرون. ولم يعد الكلب يتحرك، ولكنه كان غارقًا في بركة قاتمة.

وعلى حين غرة سمعت طلقات مدفع رشاش تنبعث من نوافذ المنازل التي احتلها رجال الشرطة، وأخذت النافذة الخشبية التي كانت تصوب إليها الطلقات تتساقط كاشفة عن بقعة سوداء لم يستطع ريو

وجران - وهما في مكانهما - أن يميزا فيها شيئاً، ولما توقف إطلاق النار بدأ مدفع آخر يطلق رصاصه من زاوية أخرى من منزل أبعد مدى، وأغلب الظن أن الرصاص كان يدخل من إطار النافذة، بدليل أن إحدى هذه الرصاصات قد نسفت بعض الطوب. وفي الثانية ذاتها عبر الشارع ثلاثة من رجال الشرطة، واندفعوا إلى مدخل البيت، وفي التو تبعهم ثلاثة آخرون، وتوقفت ضربات المدفع الرشاش، وقد ظل الناس ينتظرون، وسمعت ضربتان بعيدتان تدويان في المنزل، وترددت بعض الأصداء التي راحت تتزايد، ثم رأى الناس رجلاً قصير القامة يخرج محمولاً أكثر منه مقوداً، وهو يصرخ دون توقف، وفتحت جميع النوافذ المغلقة، كما لو كان ذلك بفعل قوة خفية، وامتألت بالمستطلعين، بينما أخذت جموع الناس تخرج من المنازل وتتسابق خلف حواجز الشرطة، وبعد لحظة شاهد الناس الرجل القصير وسط الشارع وقد لمست قدماه الأرض في نهاية الأمر، وكبل رجال الشرطة ذراعيه من خلف ظهره، ولما لم يكن قد كف عن الصياح، اقترب منه أحد رجال الشرطة وضربه مرتين بقبضتي يديه بكل ما فيهما من قوة، وكان يبدو أنه يفعل ذلك بإتقان مرموق.

وتتمم جران قائلاً:

- إنه كوتار، لقد جن!

وسقط كوتار على الأرض، وهنا رأى الناس الشرطي مرة أخرى يوجه قدمه بكل قوتها إلى الكومة الراقدة أمامه على الأرض، ثم ساد

الاضطراب جمع من الناس، وتوجهوا نحو الطبيب وصديقه العجوز،
وهنا قال الشرطي:

- هيا، انصرفوا.

وأدار ريو عينيه عندما مر الجمع أمامه.

وسار جران والطبيب في ظل الغروب الموشك على نهايته، وكان
الحي قد نشط كما لو كان هذا الحادث قد نفّض عنه الخمول الذي كان
يغط فيه.

وأخذت هذه الشوارع النائية تمتلئ من جديد بطنين جمهور تغمره
الفرحة، وعند باب المنزل قال جران للطبيب: إلى اللقاء. لقد كان في
طريقه إلى العمل، ولكن في اللحظة التي هم فيها بالصعود، قال له: إنه
كتب إلى جان، وأنه الآن يشعر بالرضى، وأنه قد بدأ جملة من جديد.
ثم أضاف قائلاً:

«لقد حذف منها جميع الصفات».

وفي ابتسامة مأكرة رفع قبعته في صورة تحية مسرحية، ولكن ريو
كان يفكر في كوتار، وفي الكلمات المكتومة التي اخترقت وجهه، وفي
صوته الذي كان يلاحقه طول مدة اتجاهه إلى منزل العجوز المريض
بالربو، ولعل التفكير في رجل مذبذب كان أشق عليه من التفكير في رجل
ميت.

ولما وصل ريو عند مريضه العجوز كان الليل قد التهم السماء
بأجمعها، وكان في وسع من في الغرفة ان يسمع من نافذتها همهمة

الحرية الآتية من بعيد، وكان الرجل الهرم مستمراً في نقل حبات البازلاء من وعاء إلى آخر في حركة رتيبة تنم عن نوع من الجمود، وقال له:

- إنهم على حق في لهوهم، فإنه لا بد من وجود شيء لتكوين عالم من العوالم، وزميلك يا دكتور، ما هي أخباره؟

وحينئذ قرعت أسماعهما بعض الطلقات، ولكنها كانت طلقات سلمية، فقال:

- إنهم أطفال يطلقون لعبهم النارية.

ورد الدكتور -وهو يفحص صدر مريضه الذي يضطرب بالشخير-:
- لقد مات.

فتوقف العجوز بعض الوقت مبهوئاً، ثم قال: آه!
واضاف ريو:

- بالطاعون.

وقال العجوز بعد لحظة:

- نعم، إن خير الناس هم الذين يذهبون.. هذه سنة الحياة، ولكنه كان رجلاً يعرف ما يريد.

وقال الطبيب وهو يعدل وضع سماعته:

- لماذا تقول ذلك؟

- للاشيء. إنه لم يكن يتكلم دون جدوى، وأياً ما كان، فقد كان

يعجبني أنا شخصيًا، ولكن هذه حال الدنيا. إن الناس يقولون: «إنه الطاعون، لقد حل بنا الطاعون». ومن أجل ذلك يكادون يطالبون بالنياشين، ولكن ما معنى هذا؟ ما معنى الطاعون؟ إنها الحياة، هذا كل ما في الأمر.

وقال الطبيب:

- ضع كماداتك بانتظام.

فرد عليه العجوز بقوله:

- لا تخش شيئًا، فإن الوقت ما زال أمامي طويلاً، وسأرى جميع من حولي يموتون قبلي، أما أنا فأعرف كيف أعيش.

وغشيت الغرفة صيحات فرحة تجيب عليه من بعيد، وتوقف الطبيب وسط الغرفة، وقال:

- هل يضايقتك أن أذهب إلى السطح؟

فرد بقوله:

- كلا، كلا. أتريد أن تراهم من فوق؟ أليس كذلك؟ افعل ما يحلو لك، ولكنهم - هم أنفسهم - لم يتغيروا.

وتوجه ريو إلى السلم، ولكن صوت العجوز لاحقه متسائلاً:

- قل لي يا دكتور، هل صحيح أنهم سوف ينشئون نصبًا تذكاريًا لموتى الطاعون؟

وأجاب الطبيب:

- هذا ما تقوله الصحف، إنهم سوف يقيمون إما نصباً أو لوحة تذكارية.

فقال:

- لقد كنت واثقاً من ذلك، وسوف تُلقى الخطب.

ثم أخذ العجوز يضحك ضحكات مختنقة، ويقول:

- إنني أسمعهم من هنا وهم يصيحون: «إن موتانا...»، ثم بعد ذلك يذهبون لالتهام طعامهم.

وكان ريو قد صعد السلم، وكانت السماء العريضة الباردة تتألق فوق المنازل، وبالقرب من التلال كانت النجوم تبدو صلبة كأنها قطع من السليكا، ولم تكن تلك الليلة تختلف عن تلك التي صعد فيها مع تارو فوق هذا السطح لكي ينسيا الطاعون، غير أن البحر في هذا اليوم كان أكثر صخباً عند أقدام الشواطئ، وكان الهواء خفيفاً ساكناً، قد تخفف من الأنفاس المالحة التي تجلبها معها رياح الخريف الدافئة، وفي هذه الأثناء كانت ضوضاء المدينة تتلاطم أسفل الشرفات، كما لو كانت هدير الموج. ولكن تلك الليلة كانت ليلة الخلاص لا ليلة الثورة ومن بعيد كانت الحلقة الضاربة إلى الحمرة تحدد أماكن الشوارع الكبيرة، والميادين المتألقة بالأنوار. أما الرغبة، فكانت قد تخلصت مما كان أمامها من عوائق في ذلك الليل الذي عادت إليه الآن حرته، ولم تكن الزمجرة التي تقرع آذان ريو في هذه اللحظة إلا زمجرتها.

ومن الميناء المظلم انطلقت أول الصواريخ النارية إعلاناً عن البهجة الرسمية، وحيثها المدينة بصيحة طويلة مكتومة. إن كوتار وتارو وكل من أحبهم ريو من الرجال والنساء ثم فقدهم قد ذهبوا جميعاً في طي النسيان، سواء من مات منهم أو من كان مذنباً. إن العجوز كان مصيباً، فإن الناس دائماً هم الناس، ولكن هذا هو مصدر قوتهم وبراءتهم، وكان ريو يشعر رغم آلامه أنه يشترك معهم في ذلك. وفي وسط الصيحات التي كانت تتضاعف قوة واتساعاً، والتي كان يتردد صداها حتى يرتطم بأسفل الشرفة كلما ارتفعت في سماء المدينة باقات الألعاب النارية المتعددة الألوان، قرر الدكتور ريو أن يكتب تلك القصة التي تصل الآن إلى نهايتها؛ وذلك حتى لا يكون من أولئك الذين يلزمون الصمت، وحتى يقدم شهادة في صالح مرضى الطاعون، ولكي يترك من ورائه على الأقل شهادة تذكر بالظلم والعنف اللذين حاقا بهم.. وأخيراً لكي يذكر ببساطة أننا نتعلم من النكبات أن الإنسان فيه مما هو جدير بالإعجاب أكثر مما يستحق الازدراء.

ولكنه كان يعرف مع ذلك، أن تلك القصة لا يمكن أن تكون قصة النصر النهائي، إنها ليست إلا شهادة على ما لا بد لهؤلاء الناس من تحقيقه، وما ينبغي لهم أن يحققوه - في أغلب الظن - رغم الإرهاب وسلاحه الذي لا يكل، ورغم همومهم الشخصية؛ ذلك أنهم إذا كانوا لا يستطيعون أن يكونوا قديسين، ويرفضون الاستسلام للأوبئة، فإنهم مضطرون أن يكونوا أطباء.

والواقع أن ريو كان ينصت إلى صيحات الفرح تتصاعد من

المدينة، فيذكر أن ذلك الفرح ما زال مهدها؛ لأنه كان يعرف ما تجهله
تلك الجموع المبتهجة، وما يمكن قراءته في الكتب من أن جرثومة
الطاعون لا تموت ولا تختفي أبدًا، وأنها قد تظل عشرات السنين نائمة
في الأثاث والفرش، وأن تنتظر - في صبر وأناة - في الغرف والأقبية
والحقائب والمناديل والأوراق القديمة، وأنه ربما يأتي يوم يوقظ فيه
الطاعون فئرانته، ويبعث بها إلى الناس من أجل شقائهم وتعليمهم؛ لكي
يختطفهم الموت من بين أحضان مدينة سعيدة.

